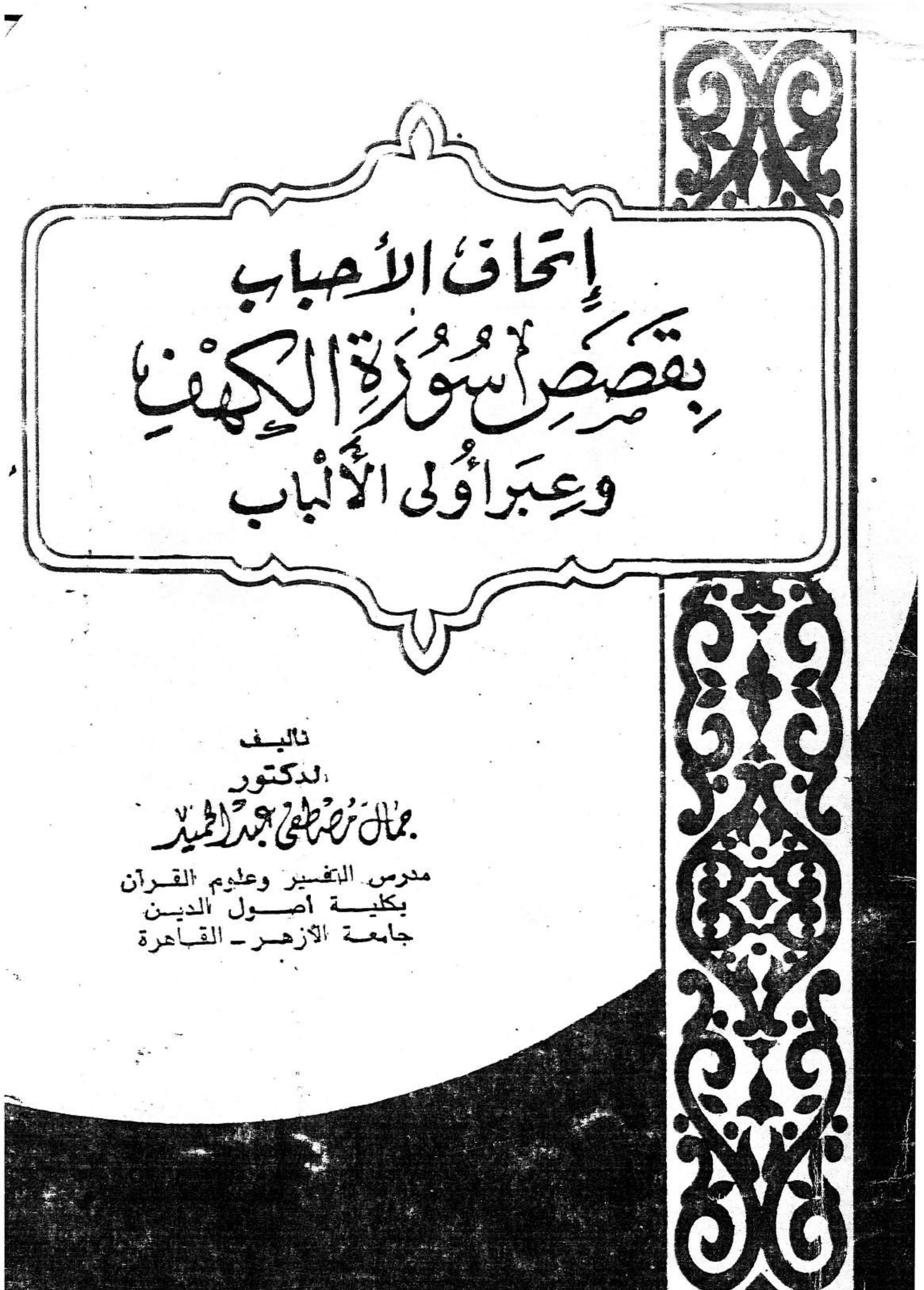


إتحاف الأحباب بقصص سورة الكهف وعبر أولى الألباب

تاليف

الدكتور

جمال مصطفى عبد الحميد

مدرس التفسير وعلوم القرآن

بكلية أصول الدين

جامعة الأزهر - القاهرة

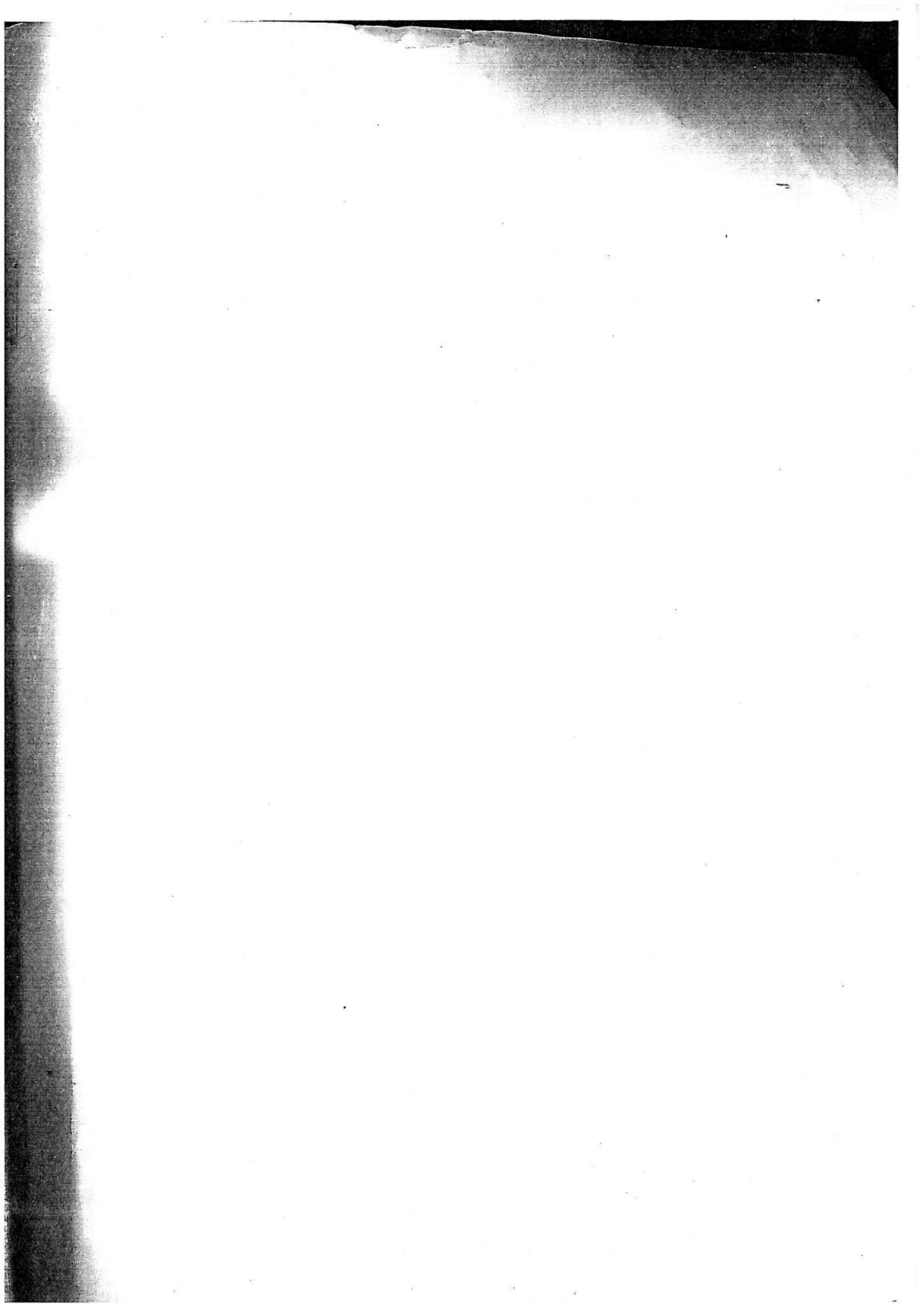
إتحاف الأحباب
بقصص سورة الكهف
وعبر أولى الألباب

تأليف
الدكتور
جمال مصطفى عبد الحميد
مدرس التفسير وعلوم القرآن
بكلية أصول الدين
جامعة الأزهر - القاهرة

الطبعة الأولى

١٤١٢هـ - ١٩٩١م

الناشر
مطبعة الحسين الإسلامية
٢٥ حارة المدرسة - خلف الجامع الأزهر
تليفون ٥١٠٦٧٢٤



بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعـالى :

« لقـد كان فى قصـصهم عبـرة لأولى الألبـاب ، ما كان حديثـاً يفتــرى ولكن تصـديق الذى بين يديه ، وتفصـيل كل شىء ، وهـدى ورحمـة لقـوم يؤمنـون » .

سـورة يوسف ، آية : ١١١



الإهـــداء

- الى والدى الغـالى : الذى أحب العلم والعلمـاء ، وقدر للأزهـر دوره ، وللأزهريين قدرهم ، فنذرنى منذ ولادتى لخدمة القـرآن الكريم ، واعتنى بى أعظم ما يكون الاعتناء ، فى كل مرحـلة من مراحل عمرى وتعليمى .

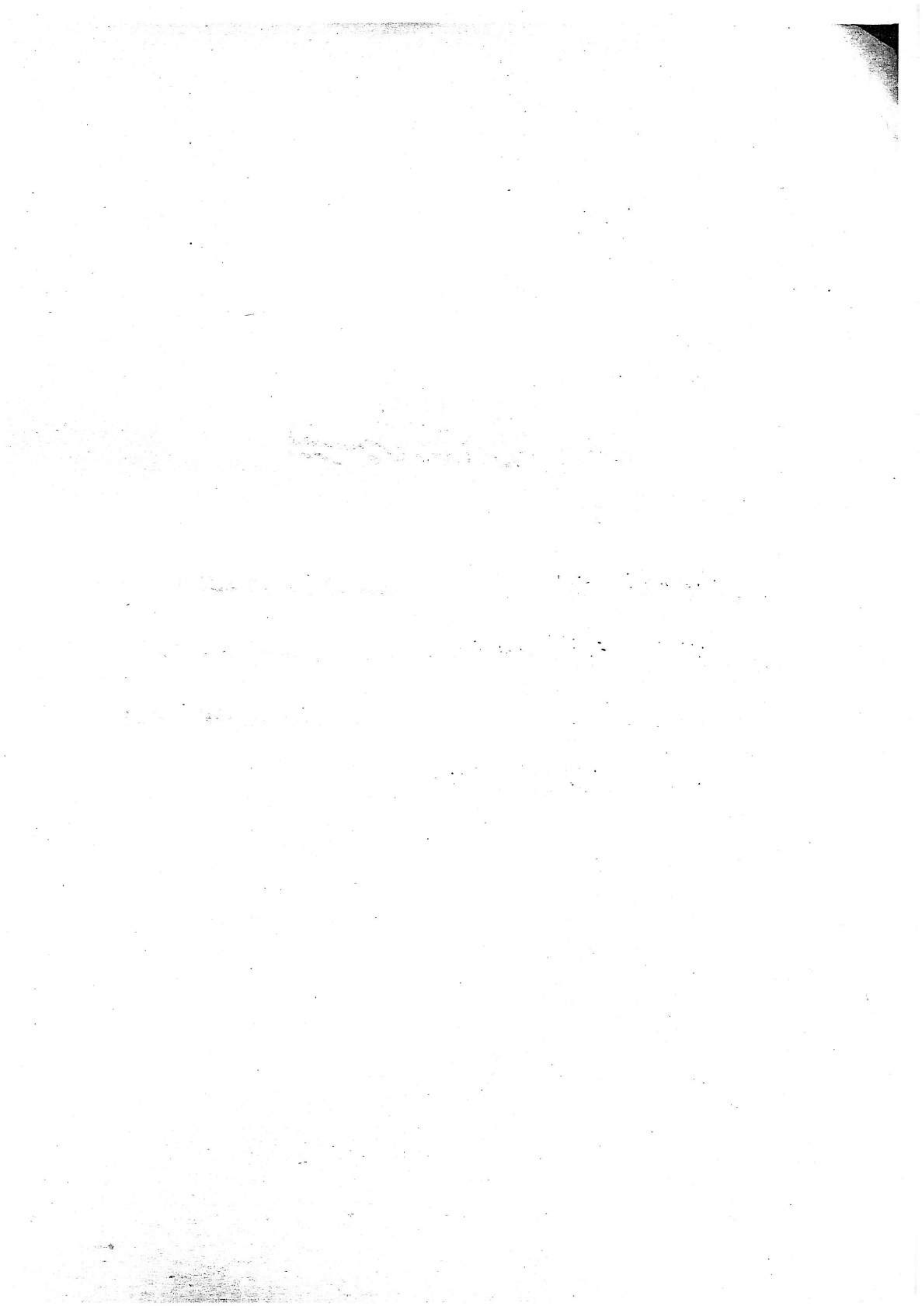
- الى والدتى الغالية : التى أتعبت نهارها ، وأسهرت ليلهـا ، من اجـل ان يتعلم كبيرها كتاب ربه ، عسى أن يسهم من المخلصـين فى دعـوة الحـق .

- الى حـرمى المصـون ، والى أحبتى وفـلذة كبـدى : محمـد ، ومصطفى ، وسيف الاسلام ، والذين ارجو من الله عز وجل ان يجعل طريق القـرآن طريقهم ، وأن يبلغهم القمة فى ذلك ، وان يجعلهم للمتقين أئمة خير ، وقدوة صـلاح .

الى هؤلاء ، والى كل مسلم مخلص لاسلامه وللمسلمين :

أهـدى هـذا الكتاب ؟

جمـال مصطفى



مقدمة

ان الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، ونستعيذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، ونشهد أن لا اله الا هو ، وحده لا شريك له ، ونشهد أن محمدا بن عبد الله رسول الله ، وصفيه من خلقه ومجتباه ، ونصلي ونسلم عليه وعلى صحبه ومن ولاه ، صلاة وسلاما عدد خلق الله ، ورضا نفسه ، وزنه عرشه ومداد كلماته ، كلما ذكر الله الذاكرون ، وغفل عن ذكره الغافلون ٠٠٠٠ أما بعد

فلما كان القرآن الكريم روح هذه الحياة ونورها : الذى يسرى فيها فيحيها ويبدد ظلماتها « **وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ، ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ، ولكن جعلنا نورا نهدى به** »(١) ولما كان نجاح وفلاح المسلمين موقوفا على العمل بهذا القرآن الكريم ٠

ولما كان العمل بهذا القرآن موقوفا على فهم مراد الله تعالى منه بقدر الطاقة البشرية ٠

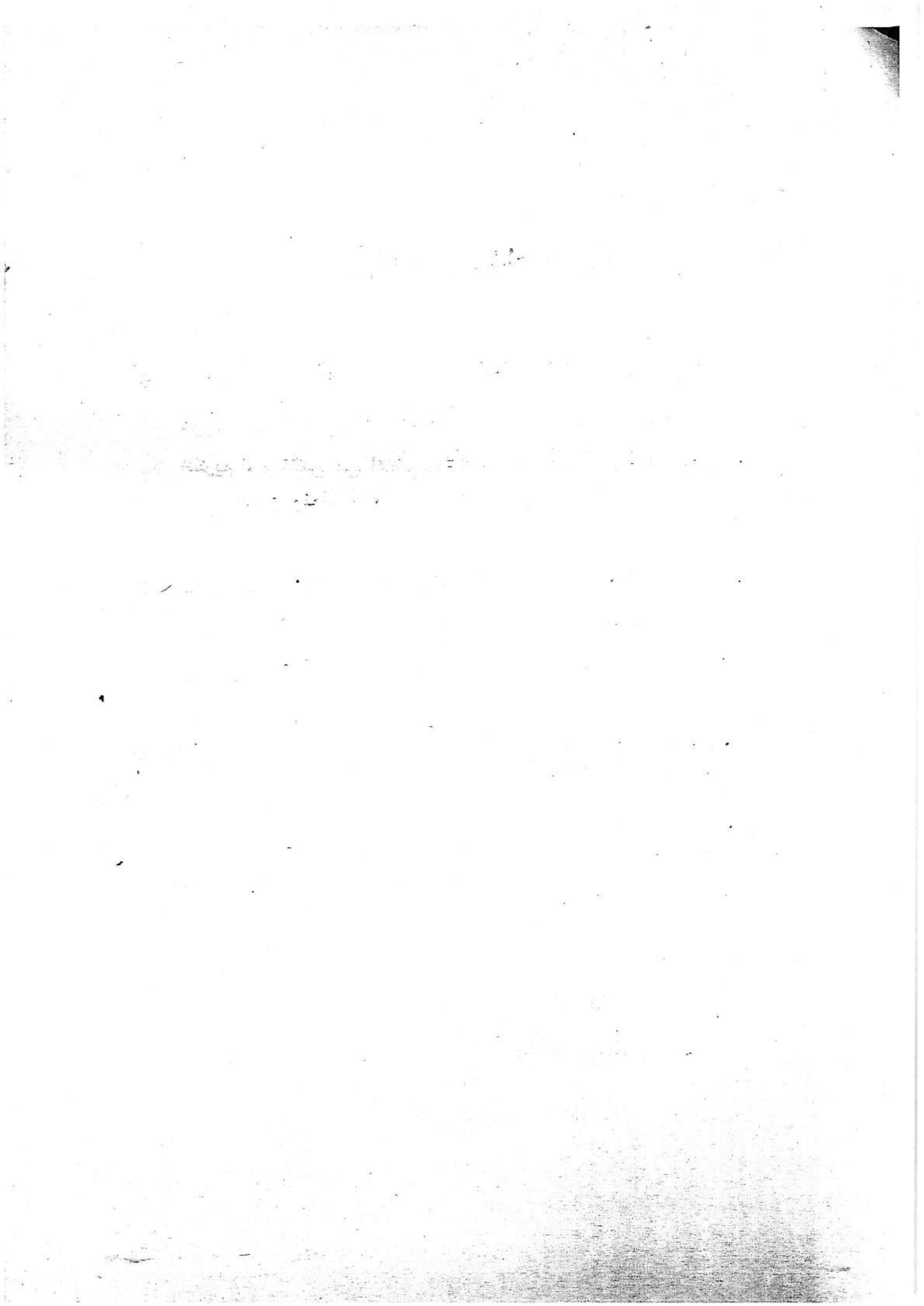
ولما كان الاشتغال بتفسير كتاب الله تعالي ، أشرف الاعمال على الاطلاق ٠

لما كان الامر كذلك رايت - رغم قلة بضاعتى ، وضعف حولى - أن أسهم فى هذا المجال ، عسى ان احشر مع أولى القدر والشان عند الله عز وجل ، فان لم اكن مثلهم ، فيكفينا ان المرء مع من أحب ٠

ولما كان القصص القرآنى من أقوى الأساليب التى استخدمها

---

(١) الشورى : آية ٥٢ ٠



المولى عز وجل فى دعــوة الناس الى الاســلام ، حتى بلغ هذا القصص من القــرآن حــوالى الربع من آياته الكــريمة ، رأيت ان أتناول بعض القصص القــرآنى بالتفسـير ، وذلك لما للقصة من سلطان « على النفس لا يقــاوم ، انه يدخــل على الانســـان من كل باب ، ويتســور عليـــه كل الأسوار ، حتى يملك أقطار النفس ، ويأخذ من الانسان كل وســائل الادراك من العقل والوجدان والحس »(٢) .

ولـمــا كانت سورة الكهف قد غلب عليها الجانب القصصى ، حتى بلغ احدى وسبعين آية ، من عشر ومائة آية ، ومعظم ما يتبقى من آيات السورة تعليق ، أو تعقيب على هذا القصص ، أو على الأقــل له صــلة وطيدة به فى ناحية من نواحيه .

ولـمــا كانت ســورة الكهف من الســور التى حث الرسول ﷺ على قراءتها ، وبخاصة فى يوم الجمعــة .

ولـمــا امتثل المسلمون فعــلا لقراءتها كل جمعة .

لـمــا كان الأمــر كذلك وجدت كل هذه الدوافع تدفعنى دفعــا الى وضع تفســير لهذا الجانب القصصى فى سورة الكهف ، فاستخرجت الله تعالى فى ذلك ، فشرح لى صدرى ، ويســر لى أمــرى . فالحمد لله فى الأولى وفى الآخــرة .

ومعلوم ان سورة الكهف قد اشتملت على أربع قصص :

١ ـ قصــة أصــحاب الكهف .

٢ ـ مثل الرجلين ، صاحب الجنتين وصــاحبه .

٣ ـ قصــة موسى والخضر عليهما الســلام .

---

(٢) تفسير سورة مريم ، لأستاذنا الفاضل : أ. د/ محمد على حجازى : ٧٨ .

٤ ـ قصة ذى القرنين .

بالاضافة الى آية واحدة ، تحدثت عن طرف من قصة آدم عليه السلام ، ولم أشأ أن أتعرض لها ، لعدم ورود القصة كاملة فى هذه السورة .

وقبل التعرض لقصص سورة الكهف كان لزاما علينا أن نذكر عدة أمور تتعلق بسورة الكهف ، حتى تؤتى الثمرة المرجوة من دراسة هذا القصص فيها ، فجعلت هذه الأمور فى تمهيد لهذا الكتاب ، حيث تكلمت عن اسم السورة ، وسبب تسميتها بذلك ، وعن فضلها ، وسبب نزولها وعن أهم أغراضها ، ومناسبتها لسورة الاسراء التى قبلها ، وغير ذلك .

وبعد ذلك قصدت لدراسة الجانب القصصى فيها ، وكان منهج بحثى مع كل قصة كما يأتى :

(أ) تقديم تمهيد توضيحى للقصة

قمت فيه بالحديث عن بعض النقاط التى يجب أن تعرف قبل الدخول فى تفسير آيات القصة ، فمثلا فى قصة أصحاب الكهف جاء فى تمهيدها :

١ ـ متى كان زمانهم ؟ ٢ ـ وأين كانت مدينتهم ؟

٢ ـ وما مكان الكهف الذى اليه أووا ؟ وهل هو فى الاردن كما قالت ادارة الآثار هناك ؟

٤ ـ وما حقيقة ما يذكره بعض المفسرين فى تعيين أسمائهم ؟

٥ ـ وما مناسبة آيات القصة لما قبلها من آيات ؟

وفى المثل الخاص بصاحب الجنتين ، كان من ضمن نقاط التمهيد :

١ ـ تعريف المثل ٢ ـ معنى ضرب المثل

٣ - الغرض من ضرب الأمثال فى القــرآن الكريم

٤ - هل هذا المثل حقيقة وقعت ، أو هو افتراض وتقدير ؟

٥ - أين هاتان الجنتان ؟ ٦ - مناسبة آيات المثل للآيات قبلها .

وفى قصــة موسى والخضر عليهما السلام ، كان من نقاط التمهيد :

١ - هل موسى صاحب هذه القصة هو موسى النبى المعروف أو غيره ؟

٢ - ومن فتى مــوسى ؟

٣ - ومن الخضر ؟ وهل هو نبى أو ولى ؟

وهل هو حى الى الآن كما ذهب بعض العلماء أو مات ؟

وبالنسبة لقصة ذى القرنين كان من نقاط التمهيد :

١ - من ذو القرنين ؟ ٢ - وهل هو بشر أو ملك ؟

٣ - واذا كان بشرا فهل هو نبى أو ولى أو ملك كسائر الملوك ؟

٤ - وهل هو الاسكندر المشهور ، صاحب الفتوحات العظيمة ، كما قال بذلك جمهور غفير من العلماء ؟

٥ - ولم سمى بهذا الاســم ؟ ٦ - وفى أى زمان كان ؟

٧ - ومن هم قوم ياجوج وماجوج الذين ذكروا فى قصــته ، وردم ردما يحول بينهم وبين افســادهم فى الأرض ؟

وهكذا جعلت لكل قصة تمهيدا يشمل عدة أمــور ، ينبغى أن تذكر قبل الدخول فى تفسيرها ، واستخراج العبر منها .

(ب) تقسيم كل قصــة الى عدة مشاهد

وبعد ذلك التمهيد لكل قصة ، قمت بتقسيم القصــة الواحدة الى عدة مشــاهد ، وجعلت لكل مشهد عنــوانا مناســبا ، ثم تعــاملت مــع كل مشهد كالآتى :

أولا : بيان معانى المفردات لآياته ، وأسرار تراكيب هذه الآيات .

وبمعنى أوضح : تفسير آيات المشهد تفسيرا تحليليا ، يتعرض لكل ما ينبغى التعرض له ، حسبما يقضى منهج مدرسة التفسير التحليلى .

ثانيا : بيان المعنى العام لآيات المشهد .

ثالثا : بيان ما ترشد اليه الآيات ، بذكر بعض العبر التى تؤخذ من المشهد .

وهكذا تعاملت مع كل مشهد ، حتى تنتهى جميع مشاهد القصة ، وقد اتضحت بهذه الطريقة ، بحيث نكون قد وضعنا أيدينا على بعض العبر ، التى ضمنها الله تعالى هذا القصص ، ليكون عبرة وهدى ورحمة لقوى يؤمنون .

وانتى اذ أقدم هذا الكتاب لابرأ من كل حول وقوة ، فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ، فما كان فيه من صواب فمرده الى الله تعالى وحده ، وما كان فيه من غير ذلك فمرده الى خطأ صاحبه وجهله ، فهو لا يعدو ذرة فى خلق الله جميعا الذين خاطبهم بقوله : **(وما أوتيتم من العلم الا قليلا)** .

وختاما ادعو ربى - عسى أن لا أكون بدعاء ربى شقيا - أن يغفر لى ما قد يكون فى هذا الكتاب من هفوات ، ومن تقصير ، وأن يعلمنى من لدنه علما ، وأن يجعلنى ممن يعمل بعلمه ، ويخلص فى عمله ، وأن يجعله فى ميزان حسناتى وحسنات أساتذتى وحسنات أبى وأمى ، وأن يرحمنى واياهما كما ربيانى صغيرا ، وأن يجعل خير أعمالنا خواتيمها وخير أيامنا يوم لقائه وهو عنا راض .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

شبرا الخيمة :
فى صباح الاثنين ١٢ ربيع الثانى ١٤١٢هـ
٢١ أكتوبر ١٩٩١م

الفقير الى عطاء ربه
أبو محمد
دكتور/ جمال مصطفى

تمهيـــــد

بين يدى الســورة الكريمـة

قبــل أن نبدأ الحديث عن موضوعاتنا فى هذه الســورة الكريمة ، أرى أن نذكر بين يديها عــدة أمــور تمهيــدية ، حتى اذ ما جئنــا الى هــذه الموضوعات جئنــا اليهــا ، وقــد عرفنا مكانها ومكانتها من هــذه الســورة ، فتفهم كما ينبغى ، ونكون حينئذ قد دخلنا البيت من بابه ، وسرنا فى سبيلنا هــذا على بصــيرة وهــدى .

ويشمل حديثنا هنا تسعة أمــور ، ألا وهى :

١ ـ اسم الســورة ، وسبب تسميتها بهذا الاسم .

٢ ـ فضل السورة   ٣ ـ سبب نزولها

٤ ـ عــدد آياتها   ٥ ـ مكيتها وترتيبها

٦ ـ أهم أغراضها   ٧ ـ مناسبتها لسورة الاسراء التى قبلها

٨ ـ عــرض موجــز لموضوعاتها .

٩ ـ كلمــة عن القصــة القــرآنية .

فنبدأ مستعينين بالله تعالى ، صاحب كل حــول وقــوة ، ومصــدر كل يســر وتوفيق ونقــول :

الأمر الأول : أسم السورة وسبب تسميتها بذلك

سماها رسول الله ﷺ سورة الكهف ، كما سنذكر ان شــاء الله تعــالى فى فضلها ، وعلى هذا فاسمها توقيفى ، لا دخــل لأحد من الصــحابة ، ولا من بعــدهم فى ذلك .

وانما سميت هــــذه الســورة بسورة الكهف لاشــتمالها على قصــة الفتيــة المؤمنــة التى اعتزلت الكفــر وداره ، ولجــأت الى كهــف من

الكهوف ، فى أحد الجبـال ، بعيدا عن كفـر الكافرين وأذى الطغـاة الظـالمين ·

وقد ذكـر لفظ الكهف فى قصتهم هذه ست مرات ، وذلك فى الآيات (٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢٥) ، ولم تذكـر هـذه القصـة فى سـورة أخـرى من سـور القـرآن الكريم ·

الأمـر الثـانى : فضـل سـورة الكهف

معلوم أن القـرآن كله فضـائل ، وأن أية سعادة فى الدنيـا ، وأى فـوز فى الآخـرة موقوف على العمل بهذا القـرآن ، وقد وردت أحاديث كثيرة فى فضـل قـراءته على العموم ، تفيد عظيم الثواب ، وجـزيل المـكانة لمن قـرأه ·

ولكننا وجدنا بعض الأحاديث تنص على فضـل قراءة سـور معينة ، أو آيات خاصـة ، لمـا فيهـا من أعظم الثواب وأجزل العطـاء ، ومن هذه الأحاديث الخاصة ، أحاديث خاصـة بقـراءة سـورة الكهف كلها ، وأحاديث خاصة بقـراءة بعض آيات منها فقط ·

فمن الأحاديث الصحيحة التى وردت فى فضل سورة الكهف كلها :

ما أخرجه الحاكم فى مستدركه ، والبيهقى فى سننه ، عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : « من قـرأ سـورة الكهف يوم الجمعـة أضـاء له من النـور ما بينه وبين الجمعتين »(١) ·

ومن هذه الأحاديث أيضا : ما أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن البراء قال :

« كان رجـل يقـرأ سـورة الكهف ، وإلى جانبه حصـان ، مربوط

---

(١) مستدرك الحاكم ، كتاب التفسير : ٢/٣٦٨ ، وسنن البيهقى : ٣/ ٢٤٩ ·

بشطنين(٢) ، فتغشته سحابة ، فجعلت تدنو وتدنو ، وجعل فرسه ينفر ، فلما أصبح أتى النبى ﷺ ، فذكر ذلك له ، فقال : تلك السكينة ، تنزلت بالقرآن »(٣) .

ومن الاحاديث التى وردت فى فضائل آيات خاصة منها :

ما رواه مسلم وغيره عن النبى ﷺ أنه قال : « من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال »(٤) .

وما رواه الامام أحمد عن النبى ﷺ انه قال : « من قرأ عشر آيات من آخر سورة الكهف عصم من الدجال »(٥) .

الى غير ذلك من الأحاديث ، التى تبرز لنا فضل هذه السورة الكريمة ، ومزاياها الخاصة ، التى لا توجد فى غيرها من سور القرآن الكريم ، مما يجعل المسلم حريصا على قراءتها وتدبرها ، والعمل بما جاء فيها ، والاتعاظ بمواعظها .

الأمر الثالث : سبب نزول السورة

يذكر المفسرون عليهم رحمة الله فى نزول هذه السورة ، سببا ذكره ابن اسحاق فى سيرته بدون سند ، وأسنده الطبرى الى ابن عباس، ولكن فى أسناده مجهول .

تقول رواية هذا السبب : « بعثت قريش النضر بن الحارث ، وعقبة بن أبى معيط الى أحبار اليهود بالمدينة ، فقالوا لهم : سلوه عن محمد ، وصفوا لهم صفته ، وأخبروهم بقوله ، فانهم أهل الكتاب ،

---

(٢) أى بحبلين .
(٣) أخرجه البخارى فى فضائل القرآن ، باب فضل سورة الكهف ، ومسلم فى كتاب المسافرين ، باب نزول السكينة لقراءة القرآن .
(٤) أخرجه مسلم فى كتاب المسافرين ، باب فضل سورة الكهف ، وأبو داود فى كتاب الملاحم ، باب خروج الدجال .
(٥) مسند أحمد : ٤٤٦/٦ .

وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبيـاء ، فخرجا حتى قدما المدينـة ، فسألوا أحبار اليهود عن رسول الله ﷺ ، ووصفوا لهم أمـره ، وبعض قـوله ، وقالا : انكم أهـل التوراة ، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا ، فقال لهم أحبار يهود ، سلوه عن ثلاث نأمـركم بهن ، فان أخبركم بهن فهو نبى مرسـل ، وان لم يفعل فالرجـل متقول ، فروا فيه رأيكم .

سلوه عن فتيـة ، ذهبوا فى الدهـر الأول ، ما كان من أمرهم ؟ فانهم قد كان لهم حديث عجيب ، وسلوه عن رجـل طواف بلغ مشـارق الأرض ومغاربها ، ما كان نبؤه ؟ وسلوه عن الروح ، ما هو ؟

فان أخبركم بذلك فهو نبى فاتبعوه ، وان لم يخبركم فانه رجـل متقول ، فاصنعوا فيه ما بدا لكم .

فاقبـل النضر وعقبة حتى قدما على قـريش ، فقالا : يا معشـر قريش ، قد جئناكم بفصـل ما بينكم وبين محمـد ، قد أمـرنا أحبـار يهود أن نسـأله عن أمـور ، فأخبروهم بها .

فجاءوا رسول الله ﷺ ، فقالوا : يا محمـد : أخبرنا ، فسألوه عما أمـروهم به ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « أخبركم غدا بما سألتم عنه » ولم يستثن (٦) ، فانصرفوا عنه .

ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة ، لا يحدث الله اليه فى ذلك وحيا ، ولا يأتيه جبريل عليه السـلام ، حتى أرجف أهـل مكة (٧) ، وقالوا : وعدنا محمـد غدا ، واليوم خمس عشرة ، قد أصبحنا فيهـا ، لا يخبرنا بشىء عما سألناه عنه ، وحتى أحزن رسول الله ﷺ مكث الوحى عنه ، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة ، ثم جاءه جبريل عليه السلام ، من عند الله عز وجل ، بسورة أصحاب الكهف ، فيها معاتبته اياه على

---

(٦) أى لم يقل ان شاء الله .
(٧) أى خاضوا فى الحديث عن هذا الأمر .

حـزنه عليهم ، وخبر ما سـألوه عنـه ، من أمـر الفتيـة ، والرجـل الطواف ، وقول الله عز وجل : « **ويسـألونك عن الروح ، قل الروح من أمـر ربى ، وما أوتيتم من العـلم الا قليـلا** »(٨) .

وهذه الرواية - كما قلنـا - حينما تروى بدون سند ، وان أسندت فان فى سندها مجهولا ، وهى بهذا الحال ضعيفة السند ، الا أنه توجد بعض القـرائن التى ربما ترجح حدوث الواقعة التى تتحدث عنها هـذه الرواية .

ومن هذه القـرائن أن الآية التى تحدثت عن الروح ، والآيات التى تحـدثت عن ذى القـرنين بدأت بقوله تعـالى (ويسـألونك) ، فهى تنص على أن الآيات ما نزلت الا بعد أسئلة سئلها رسول الله ﷺ ، والمعلوم أن الذين وجهوا الأسئلة مباشرة هم كفار قريش ، وهم لم يكن عنـدهم علم بثقافة أهل الكتاب الا بما أخذوا منهم ، كما هو معـروف من اللقاءات التى كانت تتم بين كفار قريش وأهل الكتاب ، خارج مكة ، فى الأسفار والرحـلات والتجـارات .

الأمـر الرابع : عدد آيات السـورة

وعدد آياتها : مائة واحدى عشرة آية عند البصريين ، ومائة وعشرة عنـد الكوفيـين ، ومـائة وست عند الشـاميين ، ومائة وخمس عنـد الحجـازيين(٩) .

وهذا الخلاف لا يرجع الى زيادة حروف عند البعض ، ونقصانها

---

(٨) السيرة النبوية لابن هشام : ٢٦٦/١ ، وتفسير الطبرى وابن كثير فى أول تفسير هذه السورة . وأسباب النزول للواجدى فى سبب نزول آية (ويسالونك عن الروح) ، وأسباب النزول للسيوطى ، فى سبب نزول سورة الكهف .

(٩) تفسير الألوسى : ١٥/١٩٩ .

عند الآخـرين ، - حاشـا لكتاب الله المحفوظ من ذلك - ولكن يرجـع الى أمـرين :

١ - **الأمـر الأول** : كيفية قـراءة الرسول ﷺ للقـرآن ، حيث كان - كما يقول السيوطى - يقف على رءوس الآى للتوقيف ، فاذا علم محلها وصـل للتمام ، فيحسب السـامع حينئذ أنها ليست فاصلة (١٠) .

٢ - **الأمـر الثانى** : هو البسمـلة ، حيث كان البعض يعـدها آيـة ، والبعض الآخر لم يعدها ، وأيا ما كان الأمر : فلا اختلاف بينهم فى عـدد حـروف هـذه السـورة ، وهذا هو الأهم ، قال تعـالى : « إنا نحن نزلنـا الذكـر وإنا له لحافظـون »(١١) .

الأمر الخامس : مكية السـورة وترتيبها

معـلوم أن القـرآن الكريم فيه المـكى والمدنى ، والمشهور - وهو الراجح - أن المكى ما نزل قبل الهجرة ، والمدنى ما نزل بعد الهجرة ، وعلى ذلك فقد أجمع المفسرون على أن سـورة الكهف مكية ، لأنها نزلت قبـل الهجرة ، ومع هـذا الاجماع فان البعض قد استثنى منهـا بعض آيات ، وقال بمدنيتها .

فوجدنا البعض يقول : ان أول السـورة الى قوله تعالى (جرزا) نزل بالمدينة ، وكذلك آخـرها من أول قوله تعـالى : (**إن الذين آمنـوا وعمـلوا الصـالحات كانت لهم جنـلات الفـردوس نزلا**) .

ووجدنا احدى روايتين عن ابن عباس تنص على مدنية قوله تعالى : (واصـبر نفسـك) .

واقـول : لا يوجـد دليـل واحد على أن هذه الآيات التى قـالوا

---

(١٠) أنظر الاتقان : ١/٦٧ .
(١١) سـورة الحجـر : آية ٩ .

بمدنيتها مدنية ، بل فيها من سمات القرآن المكى ما يدل على مكيتها ، ولذلك أشار القرطبى الى القول الذى ينص على مكيتها كلها بقوله : « والأول أصح »(١٢) ٠

أما عن ترتيب هذه السورة : فمن حيث ترتيب التلاوة ، فهى السورة الثامنة عشرة ، ومن حيث ترتيب النزول ، فقد نزلت بعد سورة الغاشية ، أى بعد أكثر من ستين سورة ، وعلى هذا فان سورة الكهف من أواخر السورة المكية نزولا ، حيث إن المعروف لدى العلماء أن السورة المكية لم تتجاوز الثمانين الا بنذر قليل(١٣) ٠

الأمر السادس : أغراض سورة الكهف

ولأن سورة الكهف مكية فان أغراضها لم تخل من أغراض القرآن المكى كله ، ومن معالجة القضايا التى اهتم بها فى تلك الفترة ، والسورة وان اشتملت على عدة موضوعات الا أننا نلاحظ فيها غلبة العنصر القصصى ، حيث ذكرت فيها أربع قصص كاملة لم تذكر فى سور اخرى ، واشارة من قصة خامسة ،، وهى قصة آدم وابليس ٠ وهذا القصص تجاوز السبعين آية ، من آيات هذه السورة ، التى بلغ مجموع آياتها مائة اية وعشراً ، ونستطيع أن نرجع موضوعات السورة الكريمة سواء ما كان منها قصصيا أم غير ذلك الى ثلاثة محاور أساسية(١٤) ، عليها تدور كل آيات السورة الكريمة ٠٠٠

المحور الأول : تصحيح عقيدة الناس ، التى انحرفوا بها بعيدا عن الفطرة التى فطر الله الناس عليها ٠

---

(١٢) تفسير القرطبى : ٣٤٦/١٠ ٠
(١٣) أنظر فى ذلك : الاتقان للسيوطى : ١١،١٠/١ ٠
(١٤) أشار الى ذلك الأستاذ سيد قطب عليه رحمة الله فى ظلال القرآن : ٢٢٥٧/٤ ٠

المحـور الثانى : وضع أسـاس سليم ، للنظر المستقيم ، والفكـر الصـائب .

المحـور الثالث : تصحيح القيم ، التى بها يوزن النـاس ، وعلى أساسها يتعامل معهم .

فاذا ما جئنا الى المحـور الأول ، وهو :

تصـحيح العقيـدة

فاننـا نجد ذلك منبثا فى السـورة كلها ، من مبدئها الى ختامها ، ومنثورا بين ثناياها .

فمن أركان العقيدة التى عالجتها هذه السـورة ، ركن الايمان بالله وعـدم الاشـراك به .

نلاحظ ذلك فى ابتداء هذه السـورة حيث ابتدأت بقوله تعـالى :

(الحمـد لله الذى أنزل على عبـده الكتـاب ولم يجعـل له عـوجا)

الى أن قال : **(وينذر الذين قـالوا اتخذ الله ولدا)** .

ثم تتوالى آيات السـورة الكريمة مقـررة هـذا الركن الركين من أركان العقيـدة الاسـلامية ...

هؤلاء الفتيـة الذين فـروا الى كهف فى أحد الجبـال يقـولون :

(ربنـا رب السـموات والأرض لن ندعـوا من دونه إلهـا لقد قلنـا إذاً شـططا) .

وفى تعقيب الله على قصـة هؤلاء الفتية يقول **(ما لهم من دونه من ولى ولا يشـرك فى حـكمه أحـداً)** .

وفى المثـل الذى ضربه الله لرجلين ، يقول المؤمن لصاحبه الكافر وهو يحـاوره **(أكفـرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفـة ثم سـواك رجـلا ، لكنا هو الله ربى ولا أشرك بربى أحـدا)** .

... وحينما نزل عقاب الله على الكافر ، وأحيط بثمره ، قال ذلك الكافر : (**يا ليتنى لم أشرك بربى أحدا**) •

ويعقب الله تعالى على كفره هذا ومآله الذى آل اليه بقوله : (**ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا ، هنالك الولاية لله الحق هو خير ثوابا وخير عقبا**) •

وعن مشهد من مشاهد يوم القيامة والذى تتحقق فيه هذه الحقيقة بوضوح تام ، يوم يقال لمن الملك اليوم ؟ فلا يكون الجواب الا لله الواحد القهار ، عن مشهد من هذه المشاهد يحدثنا الله فى هذه السورة فيقول : (**ويوم يقول نادوا شركائى الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقا**) •

وفى قصة موسى والعبد الصالح تجىء هاتان الآيتان (**وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا ، فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما**) •

وفى قصة ذى القرنين يجىء قوله تعالى : (**وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا**) •

وقبيل ختام السورة الكريمة نقرأ قوله تعالى : (**أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء**) ، وقوله تعالى : (**ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا**) •

وفى ختام السورة الكريمة يجىء هذا البيان الخالد (**فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا**) •

وهكذا تتوالى آيات هذه السورة الكريمة من البداية الى النهاية لتقرر هذه الحقيقة المطلقة التى لا يشك فيها عقل عاقل ، أو فكر ثاقب ، ألا وهى الايمان بإله واحد لا شريك له ، ولا ولد له ولا والد •

ومن أركان العقيدة التى عالجتها هذه السورة الكريمة ، قضية

البعث بعد الموت ، حيث كان مشركو مكة يقولون ان هى الا أرحام تدفع وأرض تبلع ، وان هـذه الحياة الدنيـا لن تزول ، ولكنها ستظل هكذا .

تعالج هـذه السـورة هـذه النظرة للحياة الدنيا ، وللآخـرة فى عدة مواضع ، اقـرأ على سبيل المثـال (**لينذر باسـا شـديدا من لدنه ويبشـر المؤمنين الذين يعمـلون الصـالحات أن لهم أجرا حسنا ، ماكثين فيـه ابدا ، وينذر الذين قـالوا اتخذ الله ولدا**) .

ويقـول : (**إنا جعلنـا ما على الأرض زينـة لها لنبـلوهم أيهـم احسن عمـلا ، وإنا لجـاعلون ما عليها صعيدا جـرزا**) .

ويقـول اثناء الحديث عن اصحاب الكهف : (**وكذلك اعثرنا عليهم ليعلموا ان وعـد الله حـق وان السـاعة لا ريب فيهـا**) .

وفى موضـع آخـر يقول عن الكافرين : (**إنا أعتـدنا للظـالمين نارا احـاط بهم سـرادقها**) الى أن يقول عن المؤمنـين : (**اولئـك لهم جنـات عـدن تجـرى من تحتهم الانهـار .. الآية**) .

وفى مثل الرجلين حينما قال الكافر : (**وما أظن الساعة قائمة**) رد عليـه صاحبه بقوله : (**اكفـرت بالذى خلقـك ... الآية**) .

وعن زوال هذه الدنيـا التى اعتقد الكفار دوامها ، وأن ليس وراءها دار للثواب والعقاب ضرب الله لها مثـلا ، حيث قال : (**واضرب لهم مثل الحيـاة الدنيـا كماء أنزلنـاه من السماء فاختلط به نبـات الأرض فأصبح هشـيما تذروه الـرياح**) .

ثم ذكـر مشهدا من مشـاهد يوم القيـامة حيث قال : (**ويوم نسـير الجبـال**) الى قوله تعـالى : (**ووجـدوا ما عمـلوا حاضـرا ولا يظـلم ربـك احـدا**) .

ومشهدا آخـر يقول فيـه : (**ويـوم يقـول نادوا شـركائى الذين**

زعمتم) الى قوله : (ورأى المجرمون النار ... الآية) .

وآية أخرى يقول فيها : (**وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب ، بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا**) .

وفى قصة ذى القرنين (**قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد الى ربه فيعذبه عذابا نكرا ، وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا**) .

وقوله تعالى : (**ونفخ فى الصور فجمعناها جمعا**) .. الى غير ذلك من الآيات التى تنص على حتمية البعث بعد الموت ، حتى لا يكون هذا الوجود عبثا ، وحتى يلقى كل انسان جزاء ما عمل حاضرا .

ومن اركان العقيدة التى عالجتها هذه السورة الكريمة التركيز على صدق رسول الله ﷺ فى دعواه هذه الرسالة ، وفى دعواه نزول هذا القرآن عليه من عند الله تعالى .

نقرأ ذلك فى اول آية من آيات هذه السورة ، حيث يقول تعالى (**الحمد لله الذى انزل على عبده الكتاب ولم يجعل عوجا ، قيما**) .

وما هذا القصص القرآنى كله فى هذه السورة ، والذى غلب على طابعها الا دليل على صدق رسول الله ﷺ فى دعواه الرسالة الى الناس كافة .

هذا هو المحور الأول الذى دارت عليه موضوعات السورة الكريمة .

فاذا ما جئنا **الى المحور الثانى ، الا وهو :**

وضع أساس سليم للنظر المستقيم ، والفكر الصائب

فاننا نجد السورة الكريمة تقرر مبدأ بدهيا ، مركوزا فى فطرة

كل ذى طبع سليم ، وفكر قـويم ، هـذا المبدأ يتلخص فى : (أن الحـكم على الشىء فـرع عن تصـوره) ، فيجب على الانسـان أن لا يتحدث الا عن عـلم ، وأن لا يشهد على شىء ، الا اذا كان واضحا أمـامه وضـوح الشمس وسط النهـار ، ففى الآيات الأولى من السـورة الكريمة نجد هـذا التعقيب الالهى على من زعمـوا أن لله ولدا ، فقال **(وينذر الذين قـالوا اتخـذ الله ولدا ، ما لهم به من علم ولا لآبائهم)** .

وهؤلاء الفتيـة أصحاب الفطـرة الطيبة نعوا على قـومهم عبـادة آلهـة أخـرى من دون الله تعـالى وتحدوهم **أن ياتوا على صـحة هـذا** الشرك بحجة واضحة ، وبرهان بين ، يحكى الله عنهم هـذا فيقـول : **(هـؤلاء قـومنا اتخـذوا من دونه آلهـة ، لولا ياتون عليهم بسلطـان بين فمن أظـلم ممن افتـرى على الله كذبا)** .

وفى أثناء حديثه تعـالى عن خبر هؤلاء الفتية ينكر على من تحدث عن عـددهم بطريق التخمين والظن ، فيقول **(سيقولون ثلاثة رابعهـم كلبهم ، ويقولون خمسـة سادسهم كلبهم رجما بالغيب)** ، وينهى رسوله ﷺ عن أخذ أخبـارهم ممن ليس عندهم بهم علم ، فيقول **(ولا تستفت فيهم منهم أحـدا)** .

وفى قصـة موسى والخضـر ، العبد الصـالح الذى علمـه الله من لدنه علمـا ، حينما أنكـر موسى على الخضر تصرفاته الظاهرة ، **يكشف** له الخضر عن سـر ذلك ، وأنه لم يعمـل ذلك ارتجالا من تلقـاء نفسـه فيقـول : **(وما فعلتـه عن أمـرى)** .

هـذا هو المحـور الثـانى للسـورة الكريمة ، فاذا ما جئنـا الى **المحـور الثـالث ، الا وهـو :**

تصحيح القيم

التى بها يوزن الناس ، وعلى أساسها يتعامل معهم

فاننا نجد ذلك مبثوثا فى مواضع متفرقة من بداية السورة الكريمة الى نهايتها ، ذلك أن الناس - فى غفلة أو تغافل عن منهج السماء - قد تواضعوا فيما بينهم - ان لم يكن قوليا فعلى الاقل سلوكيا - على قيم معينة ، روعى فى هذه القيم ، الأموال والبنون ، والقوة والسلطان الى غير ذلك من مظاهر الحياة ، ، التى بهرت الناس بزينتها البراقة ، وصورها الخادعة ، فتجىء آيات هذه السورة لتقرر أن القيم المعتبرة عند الله تعالى لابد وأن تكون مرتبطة بالايمان والعمل الصالح ، وأنه لا يفضل احد احدا الا بتقواه لربه وخشيته له ٠

أما هذه الأشياء التى بها يزن الناس مقادير الناس من مال وسلطان وغير ذلك ، فهى فى الحقيقة جعلت لاختبار الناس وامتحانهم ، ومصيرها فى النهاية الزوال والفناء ٠

اقرأ فى آيات هذه السورة (إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيها احسن عملا ، وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا) ٠

ولننظر الى هؤلاء الفتية ، فقد تركوا الدنيا بما فيها من متاع ، وبما فيها من اتساع وأووا الى هذا الكهف الضيق الخشن ، وآثروا الآخرة على الدنيا ، ووجدوا أن هذا الكهف الضيق هو متنزل رحمة الله تعالى ، لا هذه الأرض الواسعة ، قال الله تعالى عنهم وهم يتحدثون فيما بينهم (وإذا اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيىء لكم من أمركم مرفقا) ٠

وبعد هذه القصة يأمر الله نبيه ﷺ بملازمة هؤلاء الذين لم ينخدعوا بزخرف الدنيا وزينتها ، وآثروا ما عند الله تعالى ، على ما هو موجود فى هذه الحياة ، وأمره أن يصبر نفسه معهم ،

وأن لا يبالى بزينة الحياة الدنيا ولا بمن غفل قلبه عن ذكر الله ، لامتلاء قلبه بها ، قال تعالى : (**واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان امره فرطا**) .

وقصة صاحب الجنتين اكبر مثال لتصحيح القيم التى تواضع الناس عليها ، وامامنا الايات حية ظاهرة ، وهى تصور لنا هذا الحوار بين الغنى الكافر ، والمؤمن الاقل مالا وولدا ، حيث واجه صاحبه الكافر المنتفش ، واوضح له بم تكون العزة ، وبم يوزن الناس .

وبعد أن ضرب الله تعالى المثل للحياة الدنيا وسرعة زوالها أعقب هذا المثل بقوله : (**المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا**) .

وحينما يحدثنا الله تعالى عن ذى القرنين ، لا يحدثنا عنه لأنه ملك ، فكم من ملك ملك البلاد وحكم العباد ، وكان له سلطان واسع ، وصيت ذائع ، ولكن ذا القرنين يذكره الله لانه كان صالحا عادلا ، فحينما عرض عليه أجر مقابل بنائه السد رفض ذلك قائلا (**ما مكنى فيه ربى خير**) ، وحينما تم البناء رد الأمر الى صاحب كل نعمة ، فقال معترفا متواضعا (هذا رحمة من ربى) .

وقبل أن يختم الله هذه السورة قرر هذه الحقيقة : أن من آمن وعمل صالحا فذلك هو الفائز بجنات النعيم ، أما من كفر ، فلا وزن له عند ربه ، وان ظن أو اعتقد أنه قد أحسن صنعا ..

وهكذا وجدنا هذه المحاور قد دارت عليها آيات السورة الكريمة ، وأن هذه السورة أسهمت بدور بارز فى قضايا القرآن المكى ، مما كان له أعظم الاثر ، **على من القى السمع وهو شهيد** .

الأمــر الســابع التمهيدى :

مناسبة سـورة الكهف لسـورة الاسـراء التى قبلهـا

كل سـورة من سـور القرآن الكريم ترتبط بالتى قبلها وبالتى بعدها ارتبـاطا وثيقا ، حتى ليخيل للقـارىء المتدبر أن القـرآن كله سـورة واحدة مكونة من عـدة حلقات ، كل حلقـة تأخذ بالتى قبلهـا وبالتى بعدها أخذا شديد التماسك ، وتتعاضد معها وبها أفضـل ما يكون التعاضد والتنـاسق ، رغم أن المصحف الشريف لم يرتب كتـابة حسبما نزل من السماء ، فمثـلا نرى سـورة العلق ، وهى أول سـورة نزلت من السماء ، نجدها مكتوبة فى أواخـر المصحف ، وسـورة كسـورة البقـرة وقد نزلت بالمدينة نجـدها ثانى سـورة فى ترتيب المصحف الشريف .

بل ان سـورة البقـرة هـذه « استغرق نزولها ـ كما تدل آياتها ـ قريبا من تسـع سنوات ، اذ نزلت فيهـا آيات تشـريع الصيام ، وهو قد شرع فى السنة الثانية للهجـرة ، ونزل فيها قول الله تعـالى : (**واتقـوا يومـا ترجعـون فيـه إلى الله ثم تـوفى كل نفـس مـا كسـبت وهـم لا يظلمون**) (١٥) ، التى قال عنها العلمـاء انها آخـر ما نزل من القرآن الكريم ، أى فى العـام العاشر ، الذى توفى فيه النبى ﷺ »(١٦) .

ان هـذا التناسق بين آيات القـرآن كله ، والذى نزل فى أكثر من عشـرين سنة ولأسباب متعددة ، ورتب ترتيبـا غير ترتيب نزوله ليعـد وجها من أوجـه اعجاز القـرآن .

يقول الشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى : «لا ريب أن هذا الانفصال

---

(١٥) سـورة البقـرة : آية ٢٨١ .

(١٦) تفسير سورة الأنفال ، للدكتور محمد جبريل : ٢٤ .

الزمانى ، وذلك الاختلاف الملحوظ بين هاتيك الدواعى يستلزمان فى مجرى العادة التفكك والانحلال ، ولا يدعان مجالا للارتباط والاتصال بين نجوم هذا الكلام ٠

أما القرآن الكريم فقد خرق العادة فى هذه الناحية ايضا ، نزل مفرقا منجما ، ولكنه تم مترابطا محكما ، وتفرقت نجومه تفرق الاسباب ، ولكن اجتمع نظمه اجتماع شمل الاحباب ، ولم يتكامل نزوله الا بعد عشرين عاما ، ولكن تكامل انسجامه بداية وختاما ٠

اليس ذلك برهانا ساطعا على انه كلام خالق القوى والقدر ، وقيوم الارض والسموات ، العليم بما كان وما سيكون ، الخبير بالزمان وما يحدث فيه من شئون ؟

الى أن يقول : خذ مثلا حديث النبى ﷺ وهو ما هو فى روعته وبلاغته ، وطهره وسموه ، لقد قاله الرسول ﷺ فى مناسبات مختلفة ، لدواع متباينة ، فى ازمان متطاولة ، فهل فى مكنتك ومكنة البشر معك ، ان ينظموا من هذا السرد الشتيت وحده ، كتابا واحدا ، يصقله الاسترسال والوحدة ، من غير أن ينقصوا منه ، او يتزودوا عليه أو يتصرفوا فيه ؟ ذلك ما لن يكون ، ولا يمكن أن يكون »(١٧) ٠

وها هى آيات القرآن ، خالدة خلود الزمان تشهد بتناسق هذا الكتاب تناسقا يشهد بانه كتاب عزيز « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد »(١٨) ٠

فاذا ما أردنا ان نلتمس مناسبة وارتباطا بين سورة الكهف والسورة التى قبلها سورة الاسراء ، وجدنا ذلك فى أكثر من موضع ، بعضها عثرت عليه فى كتب التفاسير ، وبعضها فتح الله به على عندما أعملت

---

(١٧) مناهل العرفان للزرقانى : ٦٢،٦١/١ ٠
(١٨) سورة فصلت : آية ٤٢ ٠

ذهنى قليــلا ، وجلت به فى آيات الســورتين ، وسابدأ أولا بما عثرت عليــه فى كتب التفاسير ، وأثنى ان شــاء الله بما وفقنى الله لاستخراجه .

أما ما عثرت عليه فى كتب التفاسير ، فيتمثل فيما يأتى :

١ ـ افتتحت ســورة الاسراء بالتسبيح ، وســورة الكهف بالتحميد .. والتسبيح والتحميد نراهما كثيرا مقترنين فى القــرآن وفى السنة ، وفى ميزان الحسنات ، وفى كلام الناس . (ذكر هذا الوجه الفخر الرازى والآلوسى) .

٢ ـ وأيضــا تشابه اختتام ســورة الاسراء وافتتاح سورة الكهف ، فان فى كل منهما حمــدا ، ذكــر هذا الوجه الامام الآلوسى .

٣ ـ وذكــر السيوطى ثلاثة أوجه لهذه المناسبة ، فقال :

(أ) أن اليهود أمــروا المشركين أن يســألوا النبى ﷺ عن ثلاثة أشياء ، عن الروح ، وعن قصة أصحاب الكهف ، وعن قصة ذى القــرنين ، وقد ذكــر جواب السؤال الأول ، فى آخــر الســورة الأولى ، وجواب السؤالين الآخرين فى هــذه ، فناسب اتصالهما ، ولم تجمع الأجوبة الثلاثة فى سورة لأنه لم يقع الجواب على الأول بالبيــان ، فناسب أن يذكر وحده فى ســورة ، واختيرت ســورة الاسراء لمــا بين الروح وبين الاسراء من المشــاركة ، بأن كلا منهما مما لا يكاد تصل الى حقيقتــه العقــول .

(ب) ثم قال السيوطى : وظهر لى وجه آخــر ، وهو أنه تعــالى لمــا قال فى ســورة الاسراء (وما أوتيتم من العلم الا قليلا) والخطاب لليهود ، استظهر على ذلك بقصة موسى نبى بنى اسرائيل مع الخضر عليهما الســلام ، التى كان سببها ذكــر العلم ، وما دلت عليــه من كثرة معلومات الله تعــالى التى

لا تحصى ، فكانت هـذه السورة كاقامة الدليل لما ذكـر ، من الحكم فى تلك السـورة .

(حـ) أما الوجه الثالث الذى ذكره السيوطى فقد عبر عنه بقوله : « وأيضا لما قال سبحانه هناك (**فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا**) شرح ذلك هنا وبسطه بقوله سبحانه : (**فاذا جاء وعد ربى جعله دكاء**) الى قـوله (**ونفخ فى الصور فجمعناها جمعا ، وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا**)(١٩) ...

هـذا ما عثرت عليه فى كتب التفسير ، أما ما فتح الله به على بمجرد قليل من اعمال الذهن ، حينما جلت به فى آيات السورتين ، فقد بلغ عشرين وجها على النحو التالى :

١ - فى أوائل سورة الاسراء وأواخرها حديث عن موسى عليه السلام ، وفى سورة الكهف حديث مطول فى قصته مع الخضر .

٢ - فى سورة الاسراء آية (٩) وصف الله القرآن بانه يهدى للتى هى أقوم ، وفى سورة الكهف (آية : ٢) وصفه بكونه (**قيما**) .

٣ - فى سورة الاسراء (آية : ٩ ، ١٠) تبشير للمؤمنين وتهديد للكافرين ، وحول هـذا المعنى جاءت الآيات (٢ ، ٣ ، ٤) من سورة الكهف .

حيث يقول تعالى فى سورة الاسراء : (**إن هـذا القرآن يهدى للتى هى اقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم أجرا كبيرا ، وان الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما**) ، ويقول فى سورة الكهف : (**قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا**

---

(١٩) نقلا عن تفسير الآلوسى : ١٥/١٩٩ .

حسنا ، ماكثين فيه أبدا ، وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا) ٠

٤ ـ فى سورة الاسراء طرف من قصة آدم وابليس (من الآية ٦١ الى الآية ٦٥) ، وفى سورة الكهف طرف من تلك القصة (الآية : ٥٠) ٠

٥ ـ فى سورة الاسراء توجيه للانسان بأن لا يتحرك ولا يسكن الا عن علم ، قال تعالى فى الآية ٣٦ (**ولا تقف ما ليس لك به علم**) ، وفى سورة الكهف (آية ٧٠) نجد هذا التوجيه فى العلاقة بين العالم والمتعلم ، حيث يقول الخضر لموسى (**فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا**) ، والعلاقة بين آيتى الاسراء والكهف واضحة ٠

٦ ـ فى كل من السورتين توجيه للانسان أنه اذا أنعم عليه بنعمة من النعم ، فلا يغتر ، بل يجب أن يتواضع ، وأن يعرف أن هذه النعمة التى يختال بها بين الناس انما هى من الله تعالى ، حتى لو أجهد فيها نفسه ، فان هذا الجهد أيضا انما هو من الله ٠ نلاحظ هذا المعنى فى قوله تعالى فى سورة الاسراء (آية : ٣٧) (**ولا تمش فى الأرض مرحا انك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبال طولا**) ، وفى سورة الكهف حينما حاور المؤمن صاحبه الكافر الذى دخل جنته وهو ظالم لنفسه ، وقال ما أظن أن تبيد هذه أبدا ، وتكر عليه قائلا أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا ، فقال صاحبه : (**ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله**) ٠

٧ ـ فى سورة الاسراء (آية ٤٠) افتخر الكفار على ربهم بالبنين ، حيث نسبوا لله ـ تعالى عما يقولون علوا كبيرا ـ البنات ، أما هم فهم المميزون ، المكرمون ، حيث اختصوا بالبنين ، قال

تعـالى : (افاصفاكم ربكم بالبنـين واتخـذ من المـلائكة اناثا ؟ انكم لتقـولون قـولا عظيمـا) •

وفى سـورة الكهف نجد هذا التفاخر بالبنين من صاحب الجنتين الكافر على صاحبه المؤمن ، حيث يقول له : (انا اكثـر منـك مالا واعـز منـك نفـرا) •

٨ ـ فى كل من السـورتين يذكـر الله تعـالى أنه فى هذا القـرآن يصرف للناس وينوع لهم من كل الأدلة الايمانية ليؤمنوا ، ولكن ذلك كله لا يزيدهم الا جـدلا ونفـورا •

وتقـرأ نفس المعنى فى سـورة الكهف ، فى الآية (٥٤) ، حيث ولقد صـرفنا فى هـذا القـرآن ليذكـروا وما يزيدهم الا نفورا) •

وتقـرأ نفس المعنى فى سورة الكهف ، فى الآية (٥٤) ، حيث يقول تعـالى : (ولقد صرفنا فى هـذا القـرآن للنـاس من كل مثل وكان الانسـان اكثر شىء جـدلا) •

٩ ـ فى كل من السـورتين نفى لتعدد الآلهة ، تقـرأ ذلك فى سـورة الاسراء فى الآيتين (٤٢،٤٣) ، حيث يقول تعـالى : (قل لو كان معـه الهـة كما يقـولون إذاً لابتغـوا الى ذى العـرش سبيـلا ، سبحانه وتعـالى عما يقولون علوا كبيرا) •

وفى سـورة الكهف يقول هؤلاء الفتيـة : (ربنـا رب السموات والأرض لن ندعـوا من دونه إلهـا لقد قلنـا إذاً شططا ، هـؤلاء قـومنا اتخذوا من دونه آلهـة لولا يأتون عليهم بسلطان بين) •

١٠ ـ فى كل من السـورتين يخبرنا الله تعـالى أنه جعـل على قـلوب الكفار الذين استحبوا العمى على الهـدى ، وآثروا الدنيـا على الآخرة ، جعـل على قـلوبهم أكنـة وفى آذانهم وقـرا ، حتى لا يفقهوا القـرآن •

تقـرأ ذلك فى سـورة الاسراء فى الآية رقم (٤٦) ، حيث يقول تعـالى : **(وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقـرا)** ٠

وفى سـورة الكهف فى الآية (٥٧) ، حيث يقـول تعـالى : **(إنا جعلنـا على قـلوبهم أكنـة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا)** ٠

١١ - فى سـورة الاسراء فى الآية (٥٣) أمـر من الله لعباده أن يقولوا التى هى أحسن ، حيث يقول تعـالى : **(وقـل لعبـادى يقولوا التى هى أحسن)** ٠

وفى سـورة الكهف بيان وتنفيذ عملى لهـذا الأمـر الالهى ، فى قصـة صاحب الجنتين ، حيث تكبر الكافر على صاحبه المؤمن وتعـزز عليه ، وأسـاء اليه بقوله : **(أنا أكثر منـك مـالا وأعـز نفـرا)** ، فما كان من المؤمن الا أن رد عليه ردا جميـلا ، وقال له قـولا حسنا ، حيث ذكـره بصاحب هـذه النعم ، وأن من حق صاحب النعمة أن يقـابل بالشكر والعـرفان ، لا بالكفر والنكران ، وأن الدنيـا ليست على حال واحدة ، وأن من سره زمن سـاءته أزمـان ٠

١٢ - فى كل من السـورتين بيان لمهمة الرسل ، وأن لهم رسالة محدودة الا وهى التبليغ عن الله فقط ، أما أمـر الهـداية الفعلى فان ذلك من شـأن الله لا من وظيفة الرسـل ٠

تقـرأ هـذا المعنى فى سـورة الاسراء فى الآية (٥٤) ، حيث يقول : **(وما أرسلناك عليهم وكيـلا)** ، وفى الآية (١٠١) ، حيث يقول : **(وما أرسلنـاك إلا مبشـرا ونذيرا)** ٠

وفى سـورة الكهف فى الآية (١٦) ، حيث يقـول تعـالى : **(وما نرسـل المرسلين إلا مبشـرين ومنذرين)** ٠

١٣ - يقرر الله فى السورتين انه اذا أنزل باحد ضرا من عنده فلا يستطيع أحد كشفه الا هو ، ان شاء كشفه ، وان شاء أمضاه الى حيث يريد .

تقرأ فى سورة الاسراء فى الآية (٦٧) ، حيث يقول الله فيها : (وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه) ، وتجد فى سورة الكهف تطبيقا عمليا لهذا المبدأ الالهى ، حيث أهلك جنة الكافر ، ثم قال بعد ذلك : (ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا ، هنالك الولاية لله الحق) .

١٤ - فى كل من السورتين بيان لأن المهتدى هو من شاء الله له الهداية ، وأن الضال الذى استحب العمى على الهدى هو الذى ختم الله على قلبه ، فلن يجد له من دون الله من يدخله حظيرة الايمان ، أو يوفقه للعمل الصالح .

تقرأ ذلك فى سورة الاسراء فى الآية (٩٧) حيث يقول الله تعالى : (ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له أولياء من دونه) .

وفى سورة الكهف فى الآية (١٧) ، حيث يقول تعالى : من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا) .

١٥ - فى سورة الاسراء يبين الله تعالى أنه اذا أنعم على كثير من الناس بنعم من عنده كانت هذه النعم سببا فى اعراضهم عن

منهج ربهم ، وبعدهم عن دائرة شرعته ، تقرأ ذلك فى الآية (٣٨) منها حيث يقول الله فيها : (**وإذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه**) ، وفى سورة الكهف تطبيق عملى لذلك ، كما حدث لصاحب الجنتين .

١٦ - فى كل من السورتين ثناء على هذا القرآن ، لأنه بلغ القمة فى الكمال ، وعلى من يقول غير ذلك فالمجال مفتوح أمامه الى يوم القيامة ليأتى بمثل هذا القرآن . تقرأ هذا المعنى فى سورة الاسراء فى الآية (٨٨) ، حيث يقول الله تعالى فيها : (**قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا**) ، وفى سورة الكهف بين الله تعالى أن قرآنه هذا بلغ القمة فى الكمال ، حيث يقول : (**الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ، قيما**) .

١٧ - فى كل من السورتين تصوير لرحمة الله تعالى ، حيث لا يعذب أحدا من خلقه ، الا بعد أن يقيم الحجة بارسال رسله يبلغونهم دينه ، بل أكثر من ذلك ، فانه لو عاملهم بعدله بعد ارسال الرسل ما وجدنا على ظهر هذه الأرض من دابة .

تقرأ هذا المعنى فى سورة الاسراء (آية ١٥) ، حيث يقول تعالى : (**وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا**) ، وفى سورة الكهف (آية ٥٨) ، حيث يقول الله تعالى : (**وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب ، بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا**) .

١٨ ـ فى كل من السورتين حديث عن عذاب الكافرين ، وأن عـذابهم انما هو بما قدمت يداهم من كفـر وطغيـان ، وليس بظلم من الرحيم الرحمـن ٠

تقـرأ هـذا المعنى فى سـورة الاسراء (آية ٩٨،٨٧) ، حيث يقول تعـالى : **(ونحشـرهم يوم القيـامة على وجـوههم عميـا وبكماً وصـماً ، مـأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا ، ذلك جـزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنـا وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعـوثون خلقـا جـديدا)** ٠

وفى سـورة الكهف فى الآيتين (١٠٦،١٠٥) ، حيث يقـول تعـالى : **(أولئـك الذين كفـروا بآيـات ربهم ولقـائه فحبطت أعمـالهم فلا نقيم لهم وزنا ، ذلك جـزاؤهم بما كفـروا واتخذوا آياتى ورسـلى هـزوا)** ٠

١٩ ـ فى كل من السورتين تخيير للنـاس بين الايمـان والكفـر ، وأنه لا اكـراه لهم فى معتقدهم ، تجـد هـذا المعنى فى سـورة الاسراء (آية ١٠٧) ، حيث يقول تعـالى : **(قل آمنوا به أو لا تؤمنوا)** وفى سـورة الكهف (آية ٢٩) ، حيث يقول تعـالى : **(وقـل الحق من ربكم فمن شـاء فليؤمن ومن شـاء فليكفـر)** ٠

٢٠ ـ فى كل من السورتين تأكيد على أمـر البعث بعد المـوت ، وأنه آت آت ، لا يتخلف أبدا ، تقـرأ هـذا المعنى فى سـورة الاسراء آية (٩٩) ، حيث يقول الله فيهـا : **(وجعـل لهم أجـلا لا ريب)** وفى سـورة الكهف (آية ٢١) ، حيث يقول الله فيها : **(وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها)** ٠

وبعـــد

فقد كانت هــذه بعض الوجوه التى عثرت عليها فى كتب التفسير ، والوجوه التى من الله بها على ، بقليل من التدبر ، ولولا ضيق الوقت ، لاعملت الذهن ، ولا شــك أن الله سيفتح باذنه ، ان شــاء ، ولكن يكفينا هــذا ، فى هذا المقــام ، لنبرهن به على تناسق ســور القــرآن الكريم ، ســورة سورة ، على نحــو لم ولن نشهد له مثيــلا ، لأن القيــاس فى أى وقت سيكون مع الفــارق ، فهــذا كلام الخــالق وغيره كلام المخــلوق ، وفــرق بين من خلق (بالفتح) وبين من خلق (بالضم) .

الأمــر الثــامن التمهيــدى

عــرض ســريع لســورة الكهف

وفى عجــالة سريعــة ، وخاصة بعد أن تحدثنا عن أغراض ســورة الكهف فى الأمــر الســادس من هــذه الأمــور التمهيدية ، نوجــز القول فى عــرض ســورة الكهف فى السطور التــالية ..

تبدأ الســورة الكريمة بالحديث عن أهم أركان العقيــدة الاســلامية (الله ـ الرســول ـ القــرآن) حديثا لا غموض فيه ولا التواء ، فتقــرر أن الثنــاء الكامل ثابت ومستحق لمصــدر كل نعمــة فى هــذا الوجود ، لله رب العــالمين ، الذى اختص من بين خلقه انســانا قد بلغ القمــة فى العبودية لله تعــالى ، سمعا وطاعة ، وأنزل عليه هــذا القــرآن ، الذى الذى جعــله كاملا متكاملا مستقيما لا اعوجاج فيــه ، فيــه سعادة الانسان ـ كل انســان ، لانه حــوى كل خير جــاء فى الكتب السماوية ، وشمل أسباب الســعادة فى الدارين ، وبين الله وظيفــة هــذا الكتاب بقــوله : **(لينذر باســا شــديدا من لدنه ويبشــر المؤمنــين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجــرا حســنا) .**

ثم تتحدث السورة عن الهم والغم الذى كاد يصل الى درجة الموت للرسول ﷺ ، أسفا على كفر قومه ، وعدم انصياعهم لمنهج ربهم ، من أجل دنيا زائلة ، ومتاع فان .

ثم تنتقل الآيات للحديث عن هذه الدنيا الزائلة وعن هذا المتاع الفان ، فتبين أن هذا المتاع ما جعل الا للابتلاء والاختبار ، فكما يختبر الله بالضراء يختبر أيضا بالسراء ، كما قال : « **وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون** »(٢٠) ، وكما قال عن سليمان عليه السلام حينما أتاه عرش الملكة : « **هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر** »(٢١) .

ثم تنتقل السورة فى ثمانى عشرة آية لتقص علينا نبأ فتية آمنوا بربهم الواحد الأحد ، ورفضوا الخضوع لكل سلطان الا لسلطانه ، والطاعة لكل أمر ونهى ، الا لأمره هو ونهيه هو ، حيث تركوا وراءهم الأهل والوطن ، فرارا بدينهم ، الى خالقهم ووليهم ، فيرقدون فى كهف من الكهوف ثلاثمائة سنة وازدادوا تسعا ، شرعاهم خلالها رعاية الله وأمنه ، وتحدث لهم من الكرامات والخوارق ما يكون دليلا حيا على البعث بعد الموت ، حتى يعلم قومهم ومن بعدهم أن وعد الله حق ، وأن الساعة لا ريب فيها .

ثم تنتقل الآيات بعد ذلك الى الحديث عن الفقراء والأغنياء ، فتوجه الخطاب لرسول الله ﷺ أن يلزم أهل الايمان ولو كانوا فقراء ، وأن لا يغتر بغيرهم ولو كانوا وجهاء أغنياء ، فقد تبين للناس الحق ، الذى لا اكراه فيه ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر .

---

(٢٠) الأعراف : ١٦٨ .
(٢١) النمل : ٤٠ .

ثم ذكرت طرفا مما ينتظر هؤلاء الكفار من عذاب اليم ، ومما ينتظر أولئك المؤمنين من نعيم مقيم .

وفى امتداد للحديث عن الفقر والغنى ، والشكران والكفران تنتقل الآيات لتضرب لنا مثلا لرجلين ، جعل الله لأحدهما جنتين من أعناب ونخيل وزروع وفجر له خلالهما نهرا ، وجعل له من الأموال ما جعل ، فاذا به يطغى ، وعلى المؤمن يتكبر ، ولربه يتنكر ، فيحذره صاحبه من ذلك ، ولكن الغرور قد أعماه ، فاذا بيد المنتقم تمتد الى جنته فتصبح صعيدا زلقا ، وهكذا تكون نهاية البطر والتكبر ، وليبرهن لنا هذا المثل على أن العاقبة دائما للمتقين ، وأن الخسران دائما للظالمين الجاحدين .

... ثم تنتقل الآيات بنا بعد ذلك الى ضرب مثل آخر للدنيا ، فترينا كيفية زوالها وسرعة انتهائها ، وأن كل ما عليها من متاع من مال وبنين وغيره زائل ، ولن يبقى للانسان فى النهاية الا الايمان والعمل الصالح (**المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا**) .

ثم تصور لنا الآيات بعضا من مشاهد يوم القيامة يتخلله حديث عن طرف من قصة آدم وابليس الى أن يصل الحديث عن سنة الله فى اهلاك الظالمين ، وعن رحمة الله الواسعة ، ولكنها بالنسبة للكافرين لن تدوم أبد الآبدين ، ولكن الى أجل معلوم (**وربك الغفور ذو الرحمة ، لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب ، بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا**) .

ثم يأتى بعد ذلك الحديث عن العلم ، وعن العلاقة بين الأستاذ

وتلميذه ، وعن مصدر العلم ، وعن الفرق بين الحكمة الانسانية المقيدة ، والحكمة الالهية المطلقة ، فتروى لنا قصة موسى والخضر ، وما دار بينهما من حوار ، وما شاهده موسى وأنكره من غرائب ، الى أن لا يستطيع صبرا عما يشاهده ، ويطلب فى كل مشهد تفسيرا لما فعله الخضر ، فما كان فى النهاية من الخضر الا أن أخبره بتأويل ما لم يستطع عليه صبرا ، ثم قال له : **(وما فعلته عن أمرى)** .

ثم تنقلنا الآيات بعد ذلك للاجابة عن سؤال اختبار ساله كفار قريش عن رجل طواف ، طاف مشارق الأرض ومغاربها ، فتخبرنا بشىء عن عدله وجهاده ، وما قدم للناس من خير وسعادة .

ثم تنتقل السورة بعد ذلك للحديث عن بعض مشاهد القيامة ، وعما أعده الله للكافرين من عذاب الهون ، وما أعده للمؤمنين ، من منازل الكرامات ، وعالى الدرجات .

ثم تختتم السورة بأمر لرسول الله ﷺ يبلغه للناس ، ان أرادوا لقاء ربهم على خير ، فعليهم أن يعدوه وحده ، ولا يشركوا به شيئا ، وأن يخلصوا له العبادة طيلة حياتهم حتى يأتيهم اليقين **(فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا)** .

الأمر التاسع

كلمة عن القصة القرآنية

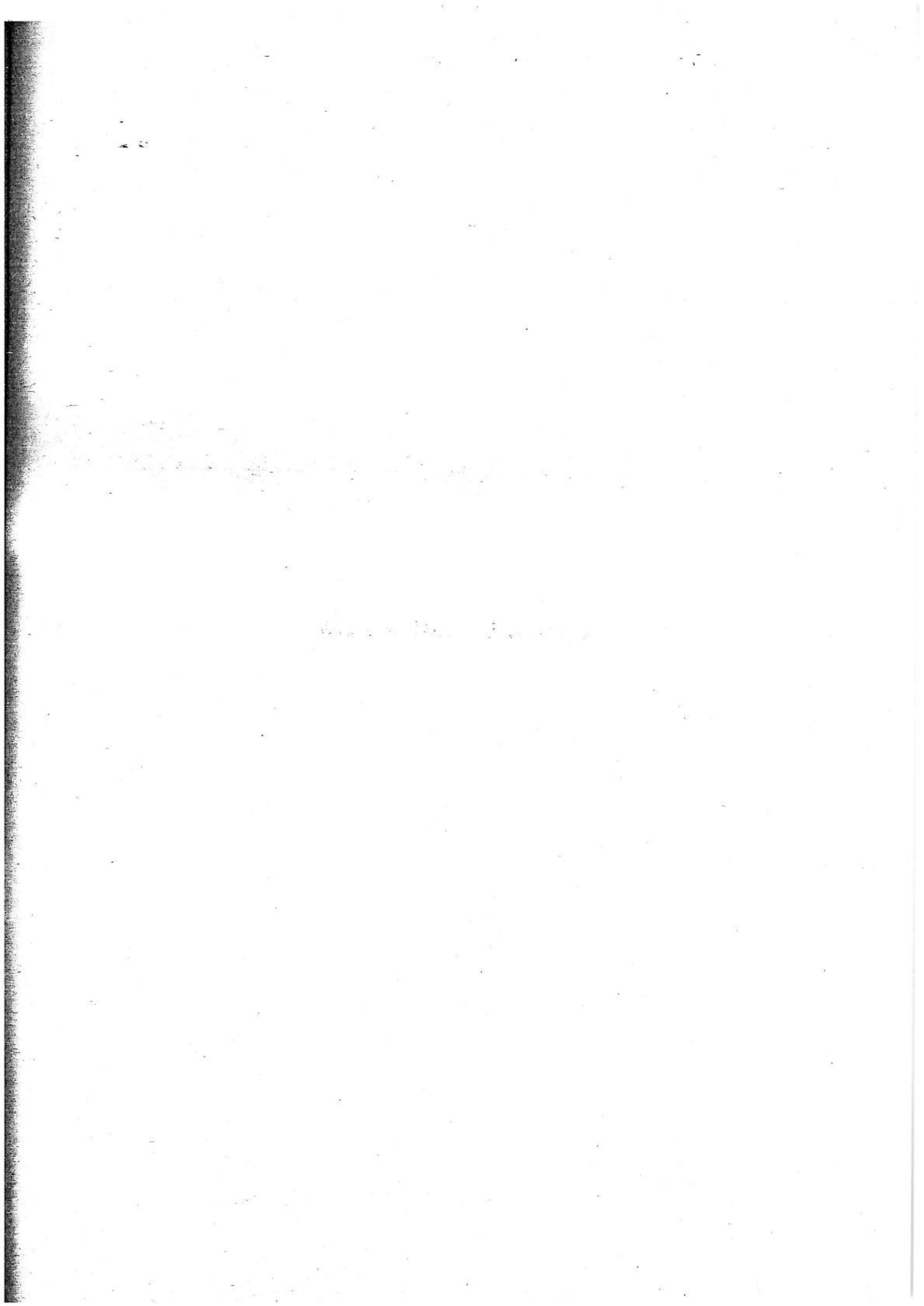
وقبل أن ندخل فى تفصيلات قصص سورة الكهف كان لابد من ذكر كلمة عن القصة فى القرآن ، ولا نريد أن نتوسع فى هذه الكلمة ، مع وعد بافراد كتاب خاص عن القصة القرآنية ان شاء الله تعالى بمجرد الانتهاء من هذا الكتاب .

والذى نريد أن نقوله ان القصة القرآنية قد بلغ شأنها من التاثير على الناس فى فتح قلوبهم واصغاء آذانهم الى الحد الذى جعلها تحتل من القرآن الكريم ربع آياته !!! ، واذا كان للقصاص هدفهم من هذا القصص ما يجعلهم يكذبون ، ويختلقون ، ويزيدون ، وينقصون ، فان القرآن الكريم كان أسمى وأجل من كل ذلك ، لقد كانت كل قصة منه حقا واقعا ، وضمنها الله كتابه حتى تكون عبرة لأولى الألباب ، وليست للتسلية ، أو لتضييع أوقات الناس ، فالمسلم ليس عنده وقت ضائع ، فان الواجبات كما يقولون أكثر من الأوقات .

ومن هنا فقد كان للقصة القرآنية أهداف متعددة يضيق المجال عن ذكرها ، ولكن يكفى أن نقول ان أهدافها قد اتسعت لكل أهداف القرآن ، لأنها فى النهاية لم تخرج عن كونها قرآنا كريما يخرج الناس من ظلمات الكفر والجهل والضلال ، الى نور الايمان والعلم والهدى .

★ ★ ★

قصـــة أصـــحاب الكهف



هــذه هى القصــة الأولى فى هــذه الســورة ، وقد قسمت آياتهــا الى ستة مشــاهد كالتــالى :

المشــهد الأول

مشهد اجمــالى للقصــة كلهــا

قال تعــالى : « أم حسبت أن أصــحاب الكهف والرقــيم كانوا من آياتنــا عجبــا (٩) إذ أوى الفتيــة إلى الكهف فقــالوا ربنــا آتنــا من لدنك رحمــة وهيىء لنــا من أمـرنا رشــدا (١٠) فضــربنا على آذانهم فى الكهف ســنين عــددا (١١) ثم بعثنــاهم لنعــلم أى الحــزبين أحصى لمــا لبثــوا أمــدا (١٢) » .

المشهــد الثــانى

(ولاء لله وجنده ، وبراء من الطاغوت وحزبه)

قــال تعــالى :

« نحن نقص عليــك نبــاهم بالحــق ، إنهم فتيــة آمنــوا بربهم وزدناهم هــدى (١٣) وربطنــا على قــلوبهم إذ قــاموا فقالوا ربنــا رب السـموات والارض لن ندعــوا من دونه إلهــا لقد قلنــا إذاً شططا (١٤) هــؤلاء قــومنا اتخــذوا من دونه آلهــة ، لولا يأتون عليهم بسلطان بين ، فمن أظلم من افتــرى على الله كذبا (١٥) وإذ اعتزلتموهم وما يعبــدون إلا الله فــاووا إلى الكهف ينشــر لكم ربكم من رحمتــه ويهيىء لكم من من أمــركم مرفقــاً (١٦) » .

المشهــد الثــالث

(الفتيــة داخــل الكهف)

قــال تعــالى :

« وتــرى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهــم ذات اليمــين وإذا غــربت تقــرضهم ذات الشمال وهم فى فجــوة منــه ، ذلك من آيات الله من يهــد الله فهو المهتــد ومن يضلل فلن تجــد له وليــا مرشــدا (١٧)

وتحسبهم ايقاظا وهم رقود ، ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال ، وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد ، لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا (١٨) وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم ، قال قائل منهم كم لبثتم ؟ قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم ، قالوا ربكم أعلم بما لبثتم ، فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر ايها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرن بكم احدا (١٩) إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا إذاً أبدا (٢٠) » .

★ ★ ★

المشهد الرابع

(الاعثار عليهم وحقية يوم القيامة)

قال تعالى :

« وكذلك اعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها إذ يتنازعوا بينهم أمرهم ، فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم ، قال الذين غلبوا على امرهم لنتخذن عليهم مسجدا (٢١) » .

★ ★ ★

المشهد الخامس

(مراء فى عددهم وتوجيه ربانى فى شأنهم)

قال تعالى :

« سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ، ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ، ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم ، قل ربى أعلم بعدتهم ، ما يعلمهم إلا قليل ، فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهرا ولا تستفت فيهم منهم أحدا (٢٢) » .

المشهد السادس

(توجيهات الهية لسيد البشرية ﷺ)

قال تعالى :

« ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غداً (٢٣) إلا أن يشاء الله ، واذكر ربك إذا نسيت ، وقل عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشداً (٢٤) ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا (٢٥) قل الله أعلم بما لبثوا ، له غيب السموات والأرض ، أبصر به وأسمع ، ما لهم من دونه من ولى ولا يشرك فى حكمه أحدا (٢٦) » .

صدق الله العظيم

* * *

تمهيـد بين يدى آيات القصـة

وقبل أن ندخل فى تفسـير آيات القصـة الكريمة ، والحديث عن مضمونها وما اشتملت عليه من أحكام وأسرار وعبر ، كان لزاما علينا أن نمهد لذلك بالحديث عن بعض النقاط التى يجب أن تراعى فى مثل هذه القصـة ، وأقصر هـذا الحديث التمهيدى فى الأسئلة التالية وأجوبتها :

س ١ : فى أى زمـان عـاش أصحاب الكهف ؟

س ٢ : وفى أى مدينة كانوا يسكنون ؟

وفى أى كهف كانوا يعتزلون ؟ وهـل هو فى الأردن كما قالت ادارة الآثار هنـاك ؟

س ٣ : وما أسماء هؤلاء الفتيـة ؟

س ٤ : ثم ما مناسبة آيات القصة للآيات التى قبلها فى نفس السورة ؟

وقبل أن نجيب على هـذه الأسئلة نحب أن ننبه الى نقطـة هى غـاية الأهمية فى القصص القـرآنى ، فالقصص القـرآنى ـ كما تحدثنا سـابقا ـ لا يقصد منه تسلية النـاس ، أو ملء الفـراغ من الوقت ـ إن كان عندهم فـراغ ـ رغم أن المسـلم الذى يعمـل لاسـلامه ليس عنـده فـراغ .. ، ولا يقصد منه تلك الأهـداف الدنيوية الدنيئة التى يهدف اليها أصحاب الروايات والمسلسلات من كتابتها ، وشيوعها فى المجتمع المسلم ، ولكن الهدف من القصص القـرآنى هو العبرة والاتعـاظ ، كما قال تعالى **« لقـد كان فى قصصهم عـبرة لأولى الألبـاب »(١) .**

وعلى ذلك فان القصص القـرآنى لا يجعل فى اعتبـاره الاهتمام بتلك الجزئيات التى لا تدخـل فى نطـاق هـذا الهدف ، كالحديث عن الزمان ، أو المـكان ، أو تحديد أسماء الأشخاص ؟ كالذى مـر على قرية

---

(١) يوسف : آية ١١١ .

وهى خـاوية على عروشها ، أو تعيين أنواع الطيـور ، كالتى كانت فى قصـة الخليل ، أو تعيين نوع الشجر ، كالشجرة التى أكل منهـا آدم عليه السـلام ، وكالشجرة التى كانت منهـا عصى موسى عليـه السلام والتى صنعت منها سفينة نوح ، أو تعيين أنواع الأطعمة ، كالتى كانت على مائدة المسيح عليـه السـلام ، وغير ذلك مما يهتم بذكـره بعض المفسـرين ، وكلها مما لا فائدة فيـه دينـا ودنيـا ، بل تضر بالدين والدنيـا ، حيث يهتم الانسـان بالجزئيات والشكليات ، ويبتعد عن هدف القصة الحقيقى ، ثم يضيع وقته فيما لا طائل تحتـه ، وقبل ذلك كله وبعده ، فانها لم تأت الينـا من طـريق معصـوم ، بل كلهـا ضعيفة السند الى قائلها ، وان صحت عنه فمصدرها فى النهائية ثقافة بنى اسرائيل .

أما الاجـابة عن السؤال الأول وهو :

فى أى زمـان عـاش أهـل الكهف ؟

فلم تتفق كلمة المفسرين على الزمن الذى عـاش فيـه هؤلاء الفتية ، بل وجدنا آراءهم فى ذلك مضطربة ، فمن قائل يقول انهم كانوا بعـد المسيح عليـه السلام ، وكانوا على دينه ، ومن قائل ينص على انهم كانوا فى الفترة ما بين موسى وعيسى عليهما السـلام ، ومن قائل ثالث يؤكد على أنهم كانوا قبل موسى عليه السلام ، ومن شيعة هـذا الرأى الثالث الحافظ بن كثير عليه رحمة الله ، حيث رجح ذلك بقوله :

والظاهر أنهم كانوا قبـل ملة النصرانية بالكلية ، فانه لو كانوا على دين النصرانية لـمـا اعتنى أحبار اليهود بحفظ خبرهم وأمـرهم ، لمبيانتهم لهم » ، ثم ذكـر أن اليهود هم الذين قالوا لقـريش اسـألوا محمدا عن عن الأشياء الثلاثة (الروح ـ الفتية ـ والرجل الطواف) ثم قال : « فدل هـذا على أن هـذا أمـر محفوظ في كتب أهل الكتاب ، وأنه متقـدم

على دين النصرانية ، والله أعلم »(٢) .

والذى أراه فى هذه المسألة : أننا يجب أن لا نخوض فى الحديث عنها ، لعدم طائل دينى أو دنيوى فى ذلك ، لا سيما وأن الآراء فى ذلك متعارضة ، ولا يمكن الجمع بينها ، وأيضا فان احتمال كل رأى قائم ، فلا نستطيع أن نرد رأيا أو أن نقبل آخر ، أما ما ذكره الحافظ ابن كثير من أن سؤال اليهود للرسول ﷺ عن أصحاب الكهف والروح ، وذى القرنين يدل على أنهم أخذوه من كتبهم ، فليس هذا دليلا على صحة قوله ، لأنهم قصدوا بسؤالهم هذا التحدى لرسول الله ﷺ ، والوقوف على صحة دعواه النبوة ، وهذا لا يشترط فيه أن يكون المسئول عنه موجودا قبل ميلاد السائل ، أو متفقا معه فى عقيدته .

اما عن السؤال الثانى وهو :

فى اى مدينة كانوا يسكنون ؟

وفى اى كهف كانوا يعتزلون ؟

فيكاد يكون هناك اجماع من المفسرين على أنهم من أبناء الروم ، من بلدة يقال لها أفسوس ، أو طرسوس ، على اختلاف فيما بينهم ؛ وبعضهم قال ان اسم أفسوس هذا كان اسمها يوم أن خرجوا منها ، أما طرسوس فهو اسمها اليوم ، أو أنها بلغة الروم أفسوس ، وبلغة العرب طرسوس(٣) ، وهذه المدينة كان عليها ملك جبار يقال له (دقيانوس) أو (دقيوس) .

---

(٢) تفسير ابن كثير : ٥/١٣٧ ، ط الشعب .

(٣) فى بحثى عن تفسير هذه القصة فى المراجع المختلفة وجدت أن أحد الباحثين - عفا الله عنه وأكرمه - وهو يذكر أقوال المفسرين فى اسم هذه القرية قال ان بعضهم قال انها قرية بين غضبان وايلة دون فلسطين ، ونسب هذا القول الى الامام الآلوسى ، والحقيقة أن الآلوسى لم يذكر هذا فى تعيين قريتهم التى خرجوا منها ولكن فى تعيين مكان الكهف الذى أووا اليه . وعلى كل فللمجتهد المخطىء أجر .

ونقـول : ان هـذا لا يعنينـا فى موضوع القصـة بشىء ، فاسم مدينتهم التى خرجوا منها ليس هدفا ولا جـزءا من الهدف ولا يمت الى العبرة التى قصـدها المولى عـز وجل من ذكـر هـذه القصـة بشىء وعلى هـذا : فان كلامهم وان كان مستندا الى التاريخ وما يرويه المؤرخون قد يكون صحيحا وقد لايكون صحيحا ، وعلينا أن لا نشغـل أنفسنا بذلك ، والا لذكـره القـرآن أو وضحته السنة .

أمـا عـن كهفهـم هـذا

فقد اختلف المفسرون فى ذلك اختـلافا بينا ، ولم تجتمع كلمتهم على تحديد موضـع معين يوجد فيـه هـذا الكهف ، فبعضهم ينص على أنه موجـود ببـلاد الروم ، وبعضهم يذكـر أنه ببلاد الأندلس ، وبعضهم يحدده ببلاد الشـام ، وبعضهم يقول : بالبلقـاء ، وآخـرون يقولون انه عند (نينـوى) ، وبعضهم يقول : انه قريب من أيلة ، وغير ذلك كثير .

وقد رجح بعض المفسـرين ـ كابى حيان الاندلسى ـ وجـود هـذا الكهف بالأندلس ، حيث قال : « ويترجح كون أهـل الكهف بالاندلس ، لكثرة دين النصـارى بها ، حتى أنها هى بلاد مملكتهم العظمى ، ولأن الاخبار بما هو فى أقصى مكان من أرض الحجاز أغرب وأبعد أن يعـرفه أحد الا بوحى من الله تعـالى »(٤) .

ومع تقديرنا للامام أبى حيان الاندلسى ولعلمه ، الا أن ما ذكـره لا يعد كافيـا في ترجيح كون هـذا الكهف بالاندلس .

وفى سنة ١٩٦٦ ظهر بالاردن كتاب صـادر عن ادارة الآثار العربية بالاردن ، حول مكان هذا الكهف ، ينص على أن هـذا الكهف موجـود

---

(٤) البحـر المحيط : ١٠٢/٦ .

بمنطقة بالأردن تسمى « الرجيب » ، والذى دفعهم الى البحث فى هـذا المكان ، وجود بعض الأقوال عن العلماء فى تفسير معنى قوله تعالى : (**أصحاب الكهف والرقيم**) ، حيث ذهب بعض العلماء الى أن الرقيم هـذا هو اسم للمكان الذى فيه كهفهم ، وأن هـذا المكان قرب بلدة يقال لها « عمان » ، كما أن هناك رواية منسوبة الى ابن عباس تنص على أن الرقيم واد بين غضبان وأيلة دون فلسطين ، وفيه أصحاب الكهف ، وغضبان واد بالشام .

وقد تصدى أستاذنا الفاضل فضيلة الشيخ مصطفى الحديدى الطير ، عليه رحمة الله لهذا الكتاب ، وفند الادلة التى استندوا عليها لصحة قولهم ان هـذا الكهف هو المذكور فى القرآن الكريم .

وها أنذا أنقل كلام شيخنا الفاضل :

يقول(٥) عليه رحمة الله : « فى سنة ١٩٦٦ ظهر كتاب للأستاذ رفيق الدجانى ، المساعد الفنى لمدير الآثار العربية بالاردن ، ذكر فيه انهم اكتشفوا الكهف بـ (الرجيب) وقبل اكتشافه له عثر على ثلاثة كهوف جميلة النقش والزخارف ، وعلى آثار مسجد بنى على بقايا صومعة بيزنطية فوق الكهف ، ووجد بداخل الكهف نقوشا بيزنطية ، وكتابة بالخطين الكوفى واليونانى ، القديمين ، ولكنها لم تقرأ بعد .

واكتشف رسما باللون الاحمر ، لحيوان يشبه الكلب ، وحوله كثير من الكتابات والرموز ، بالخط اليونانى القديم ، وثمانية مدافن من العهد البيزنطى » .

يقول الأستاذ الدجانى : « ان بقايا الصومعة التى بنى عليها المسجد

---

(٥) نشر هذا المقال فى مجلة منبر الاسلام ، العدد السادس لسنة ١٣٨٩ ، وننقله الآن من رسالة الدكتوراه لأستاذنا الفاضل أ. د/ مسموع أبو طالب .

فوق الكهف تدل على أنها المسجد الذى قال الله تعالى فيه : (**لنتخذن عليهم مسجدا**) ، والكهف الذى تحتها هو كهفهم ، حيث لا تدخله الشمس ، كما جاء فى القرآن » ..

ويعقب فضيلة الشيخ مصطفى الطير على ذلك بقوله :

« وليست الآثار والشواهد التى قالها الأستاذ / الدجانى كافية لتحويل الاحتمال الى حقيقة علمية ، فان الكهوف توجد فى كل بلد به جبال ، ففى جبل المقطم عدة كهوف ، وفى غيره مثل ذلك ، ووجود صومعة رومانية ليست دليلا على مكان المسجد والكهف ، بدليل قوله انها بنيت بين سنتى ٥١٨ ، ٥٢٧ ، فان هذا التاريخ بعد بعث أصحاب الكهف بفترة طويلة ، مع أن المسجد أقيم بعد عثور الناس عليهم .

وأى مانع في أن تكون الصومعة أثر كنيسة رومانية هناك ، ليصلى المسيحيون فيها ، أو لتكون مقبرة ، والمقابر توجد بين المساجد ، كما فى مساجد المماليك ، فى صحراء الدراسة ، وعدم دخول الشمس لكهف الأردن ليس دليلا على أنه الكهف القرآنى ، لأنها لا تدخله لموقعه الجغرافى ، أما الكهف القرآنى فانه لا تدخله أشعة الشمس مع تمكنها من دخوله ، لسعة مدخله ، آية من آيات الله تعالى .

كما أن القبور الثمانية ليست دليلا قاطعا على أنها قبورهم ، فقد تكون قبورا لبعض عظماء البيزنطيين .

والصورة المرسومة باللون الأحمر : قال عنها انها تشبه صورة الكلب ، ولم يقطع بانها صورة له ، والرموز لم يحلوها ، حتى يتحقق منها .

فلهذا يبقى الأمر على الاحتمال ، ولا يتعداه الى القطع بانه في

الأردن ، وكل الذى نستطيع الجزم به هو قصتهم ، التى جاءت فى القرآن ، وندع العلم بما وراء ذلك الى علام الغيوب » .

انتهى كلام الشيخ مصطفى الطير عليه رحمة الله ، وهو كلام نفيس حرصنا على نقله ، حتى لا يغتر المسلمون بأى كشف يكتشف ويصيحون مهللين ، كما يهلل أنصار التفسير العلمى لكل جديد يكتشف ، ويعرضون القرآن الكريم الثابت الحق ، للتقلبات النظرية ولما تتعرض له سائر الأبحاث العلمية .

وخلاصة الكلام فى هذا الأمر : أن الله تعالى لم يذكر لنا فى قرآنه مكان هذا الكهف ، لعدم وجود فائدة شرعية أو دنيوية ، ولو كان لنا فى ذلك - ولو قليل فائدة - دينية أو دنوية ، ما فرط الله فى ذكرها ، ولما غفل رسول الله ﷺ عن بيانها ، فما ترك رسول الله ﷺ شيئا يقربنا الى الجنة ويباعدنا من النار الا وقد أعلمنا به ، فاعدنا الله تعالى بصفة هذا الكهف ولم يعلمنا بمكانه ، ويكفى فى كونه بهذه الصفة التى ذكرها الله أنه آية من آياته ، الدالة على وحدانيته تعالى وقدرته .

* * *

أما عن السؤال الثالث ، وهو :

ما اسماء هؤلاء الفتية ؟

فنقول : سبق أن قلنا ان الله تعالى لم يعر أسماء الأشخاص ، أو بلادهم ، أو زمانهم ، أو غير ذلك ، من الجزئيات البعيدة عن موطن العبرة ومكمن الموعظة اهتماما ، ومن هذه الأشياء : أسماء هؤلاء الفتية ، فلم يرد لهم ذكر فى القرآن ، كما لم يرد عنهم بيان فى السنة ، وبالتالى فان أى تعيين لأسمائهم سيكون غير صحيح .

قال القرطبى فى تفسيره : « وأما أسماء أهل الكهف فأعجمية ، والسند فى معرفتها واه »(٦) .

وقال ابن كثير معلقا على من عين أسماءهم :

« وفى تسميتهم بهذه الأسماء واسم كلبهم نظر فى صحته ، والله أعلم ، فإن غالب ذلك متلقى من أهل الكتاب »(٧) .

وقد نسب الى ابن عباس رضى الله عنه رواية فى خواص أسماء أهل الكهف ، حيث نسب اليه أنه قال : ان هذه الأسماء تصلح للطلب والهرب ، واطفاء الحريق ، تكتب فى خرقة ، ويرمى بها فى وسط النار ، ولبكاء الطفل ، تكتب وتوضع تحت رأسه فى المهد ، وللحرث تكتب على القرطاس ، ويرفع على خشب منصوب وسط الزرع ، وللحمى والصداع والغنى والجاه ، والدخول على السلاطين ، تشد على الفخذ اليمنى ، ولعسر الولادة تشد على الفخذ الايسر ، ولحفظ المال والركوب فى البحر والنجاة من القتل . » ، وهذه رواية لم تصح عن ابن عباس ولا عن غيره من ثقات هذه الأمة ، وما أجمل تعليق الآلوسى عليها بقوله :

« ولعله شىء افتراه المتزيون بزى المشايخ ، لأخذ الدراهم من النساء ، وسخفة العقول »(٨) .

* * *

(٦) تفسير القرطبى : ٣٦٠/١٠ .
(٧) تفسير ابن كثير : ١٤٤/٥ .
(٨) تفسير الآلوسى : ٢٤٦/١٥ .

أما عن السؤال الرابع وهو :

ما مناسبة آيات القصة للآيات التى قبلها ؟

فنقول وبالله التوفيق :

سبق أن ذكرنا - ونحن نتحدث عن الربط بين سورة الكهف ، وسورة الاسراء التى قبلها - أن الله تعالى جعل فى قرآنه الكريم تناسقا شديدا بين كل سورة والتى قبلها ، حتى ليخيل للقارىء المتدبر ، ان القرآن كله سورة واحدة طويلة ، أو سلسلة متعددة الحلقات ، كل حلقة تتعاضد مع الأخرى وبها أشد ما يكون التعاضد ٠

ونقول الآن : وكذلك الأمر بالنسبة لآيات كل سورة على حدة ، فكل مجموعة منها تتماسك وتتناسق مع المجموعة التى قبلها أفضل ما يكون التماسك ، وأجمل ما يكون التناسق ، فاذا ما جئنا الى آخر مجموعة فى السورة ، وجدنا السورة الواحدة ، وكأنها آية طويلة واحدة ٠ كل ذلك ليتحقق فى النهاية وجه عظيم من وجوه اعجاز القرآن الكريم ، يدل على أنه تنزيل من حكيم حميد ٠

والآن نذكر بعض أوجه المناسبة ، فى الربط بين آيات قصة أصحاب أصحاب الكهف ، والآيات التى قبلها ، فنقول مستعينين بالله تعالى :

١ - جاءت الآيات الأولى من هذه السورة لتبين أن هذا القرآن نزل ليبشر المؤمنين بان لهم أجرا حسنا ، ماكثين فيه أبدا ، ولينذر الكافرين بشديد العذاب وسيىء المآل ، لا ينفك عنهم ذلك ما دامت السموات والأرض ، وأن هذا الجزاء للفريقين سيكون بعد زوال هذه الحياة ، وبعث الناس من قبورهم ٠

ثم جاءت آيات القصة لتقدم لنا الدليل العملى على امكان

البعث بعد الموت،وأن هـذا البعث له موعد لن يتخلف ، وسـاعة لا شك فى وقوعها (**وكذلك أعثـرنا عليهم ليعلمـوا أن وعـد الله حـق وأن السـاعة لا ريب فيهـا**) .

٢ ـ نعى الله فى الآيات السـابقة على المشركين قولهم (**اتخذ الله ولدا**) ، لأنهم قالوا ذلك الكلام بدون عـلم صـحيح أو برهـان سليم (**ما لهم به من عـلم ولا لآبائهم**) ، ثم جـاءت آيات القصة لتحكى لنا نعى هؤلاء الفتيـة على قومهم اتخاذهم آلهـة أخـرى من دون الله ، وأن هـذا الاتخاذ أيضـا لم يصـدر عن عـلم بين ، أو حجة ظاهرة ، (**هـؤلاء قـومنا اتخـذوا من دونه آلهـة لـولا يأتون عليهم بسلطـان بين**) .

٣ ـ لمـا ذكـرت الآيات السـابقة تبشـر المؤمنـين باكـرام الله لهم ، جاءت آيات القصـة لتكون تطبيقا عمليـا على اكـرام الله لحـزبه ، وحفظـه ونصـره لجنده .

٤ ـ الآيات السـابقة جاءت كدليـل مقدم لآيات هـذه القصـة ، وبيان ذلك : أنه اذا كان البعض قد عـد قصـة أهـل الكهف عجيبـة من العجائب ، الى الحد الذى أراد أن يختبر به صدق رسول الله ﷺ ، فلينظر الى الأرض وما عليها من زينـة ، انه اذا فعـل ذلك فسوف يعـلم أن هـذه القصـة وان كانت عجبـا فى ذاتها الا أنها ليست بأعجب آيات الله تعـالى فى خلقـه . ان هـذه الأرض التى يعيشون عليها فيها من ملايين العجائب ما لا يقـدر قدرها الا الله تعـالى ، قـال تعـالى : « **وفى الأرض آيات للموقنـين ، وفى أنفسـكم افـلا تبصـرون** »(٨) ، انظر الى هذا الذباب الذى يتقـزز الناس

---

(٨) الذاريات : آية ٢٠، ٢١ .

من رؤيته ومخالطته ، يتحدى الله به الخلق كله أن يخلقوا مثله : **« يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له »**(٩) ، بل تحداهم بهذا الماء المهين ، حيث قال تعالى : **« افرايتم ما تمنون ؟ االنتم تخلقونه ام نحن الخالقون ؟ »**(١٠) ، وهو الذى قال : **« لخلق السموات والأرض اكبر من خلق الناس ، ولكن اكثر الناس لا يعلمون »**(١١) .

وهكذا تجىء الآيات السابقة لتكون دليلا على آيات القصة ، يدل على أن قصة هؤلاء الفتية وان كانت عجبا الا أنها ليست باعجب آيات الله تعالى ، فهناك من الأعاجيب والآيات ما لا يحصيه الا علام الغيوب ، خالق القوى والقدر ، سبحانه وتعالى .

والآن

ننتقل الى قصة أصحاب الكهف بالبحث والتحليل والاستنباط ، سائلين المولى عز وجل أن يجعل لنا من امرنا رشدا . آمين .

* * *

---

(٩) الحج : آية ٧٣ .
(١٠) الواقعة : آية ٥٨، ٥٩ .
(١١) غافر : آية ٥٧ .

المشهـد الأول

(مشهد اجمـالى للقصـة كلهـا)

قال تعـالى : « أم حسبت أن أصـحاب الكهف والرقيم كـانوا من آياتنـا عجبـا (٩) إذ أوى الفتيـة إلى الكهف فقـالوا ربنـا آتنـا من لدنك رحمـة وهيىء لنـا من أمـرنا رشـدا (١٠) فضـربنا على آذانهم فى الكهف سـنين عـددا (١١) ثم بعثنـاهم لنعـلم أى الحـزبين أحصى لمـا لبثـوا أمـدا (١٢) » .

معـانى المفردات وأسرار التراكيب

سبق أن ذكـرنا ما قاله المفسرون فى سبب هـذه السـو ة ، حيث ذكروا أن قريشا أرسلوا وفدا الىيهود المدينة لياتوا من عندهم بما يختبرون بها صـدق محمـد ﷺ فامـروهم أن يسـألوه عن فتيـة فى الدهر الأول كان شـانهم عجبـا ، وعن الـروح وعن ذى القـرنين فانزل الله هـذه السـورة ...

فى هـذه الآيات ابتداء للحديث عن هؤلاء الفتيـة الذين كان أمرهم عجبـا ، حيث أنكر الله سبحانه وتعالى كون أمرهم هذا أعجب العجائب ، ففى كونه ما هو أعجب بكثير وكثير ، فيقول تعـالى : (**أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنـا عجبـا**) .

والخطاب هنا للرسول ﷺ ولكل من يصلح له الخطاب ، أو هـو له ﷺ ، والمـراد كفـار مكة ويهود المدينـة ، الذين اعتقدوا أن أمرهم أعجب العجـائب .

و (أم) هنا منقطعة ، وذهب الجمهور الى أنها بمعنى بل وهمزة الاستفهام ، بل التى للانتقال من كلام الى آخـر ، وليس لابطاله كما هو أصلهـا ، والاستفهام عمـا بعـدها ، وتقـدير الـكلام على هـذا : بل أحسبت ... الخ .

ويرى بعضهم أنها بمعنى الهمـزة الاستفهامية الانكارية ، والتقدير أحسـبت ... الخ ، وآخـرون يـرون أنها بمعنى بل فقـط كما حـكى أبو السعود والشوكانى عن بعضهم(١) ، والتقدير : بل حسبت .

والحسبان بمعنى الظن ، يقـال حسب الشىء كائنا يحسبه بكسـر السين ويحسبه بفتح السين ، والكسر أجود ، حسبانا ، ومحسبة ومحسبة بفتح السين وكسرها ، وقد يستعمـل الحسبان بمعنى العلم ، كما نبـه على ذلك الامام الآلوسى(٢) .

وقوله تعالى : (أصحاب الكهف) ، الصحبة فى الأصل بمعنى الملازمة والمعاشرة ، يقال : صحبه بفتح الصاد وكسر الحاء ، يصحبه بسكون الصاد وفتح الحاء ، وصحبة بضم الصـاد وفتح الحاء ، وصاحبه أى عاشره ، وجمع الصاحب أصحاب ، وأصاحيب ، وصحبان بضم الصاد ، وصـحاب بكسرها ، وصحب بفتحها ، وصحابة ، وصحابة ، بكسر الصادو وفتحها .

أما الكهف فهو النقب المتسع فى الجبـل ، كالمغـارة ، الا أنه أوسع منهـا ، فاذا صغر فهو غـار ، وجمعه كهوف(٣) ، وفى الصحاح : الكهف كالبيت المنقور فى الجبل ، ولذا يقال فلان كهف فلان أى ملجـاه الذى يلجـأ اليـه .

أما الرقيم فقد اختلف العلمـاء فى المراد منه اختـلافا بينا ، فذهب بعضهم الى أنه اسم كلبهم ، واستشهد بشعر أمية بن أبى الصلت :

وليس بهـا الا الرقـيم مجـاورا

وصيدهم ، والقوم فى الكهف همد

---

(١) تفسير أبى السعود : ٢٣٩/٣ ، والفتح القدير للشوكانى : ٢٧١/٣ ، والفتوحات الالهية : ٦/٣ .
(٢) تفسير الآلوسى : ٢٠٨/١٥ .
(٣) أي جمع كثرة ، وجمع القلة أكهف : تفسير الجمل : ٦/٣ .

وقيـل : هو الوادى الذى فيـه الكهف ، وقيـل الجبـل ، وقيـل قريتهم ، وقيـل هو لوح كتبت فيه أسماؤهم وقصتهم ، وشد ذلك اللـوح على باب الكهف •

وارى أن هـذا القول الأخير هو الأولى بالقبول ، ويؤيده الاشتقاق اللغـوى لكلمة الرقيم ، فالرقيم فى قول جميـع أهل المعـانى والعـربية ـ كما نص على ذلك الفخـر الـرازى(٤) ـ الكتـاب ، والأصـل فيـه المرقوم ، ثم نقل الى فعيـل ، والرقم الكتابة ، ومنه قوله تعالى : « كتاب مرقـوم »(٥) ، أى مكتـوب •

وعلى ذلك فالمـراد بأصحاب الكهف والرقيم طائفـة واحدة ، هم اصـحاب هـذا الكهف ، وهم اصحاب هـذا الرقيم ، أى اللوح المكتوب فيـه قصتهم واسماؤهم •

اما ما ذكـره البعض من انهم طائفتان ، طائفـة تسمى أصحاب الكهف ، وطائفة تسمى أصحاب الرقيم ، وأن أصحاب الكهف هم الذين ذكـرهم الله فى هـذه السـورة ، وأن أصحاب الرقيم هم الذين ذكـروا فى السنة ، بانهم ثلاثة أشخاص ، اضطرهم المطر الى الدخول فى غـار فانطبقت عليهم الصخرة فاغلقت عليهم باب الغـار ، فدعا كل منهم باحب اعمـاله فرفع الله الصخرة فخرجوا ، اقـول : هـذا رأى ضعيف للغاية ، ولا داعى لاقحـامه فى هـذه القصـة ، ولذلك يقـول عنـه الالوسى :ـ « ولا يخفى أن ذلك بعيـد عن السياق ، وليس فى الاخبـار الصحيحـة ما يضطرنا الى ارتكابه »(٦) •

---

(٤) فى تفسيره مفاتيح الغيب : ٢١/٨٢ •
(٥) سورة المطففين : آية ٩ ، ٢٠ •
(٦) تفسير الالوسى : ١٥/٢١٠ •

والتعبير عنهم بصحبة الكهف يشير الى عمق ايمانهم ، وصدق رغبتهم فى الدار الآخرة ، وان ترتب على ذلك مفارقة الأحباب والأوطان ، وملازمة الصحارى والجبال .

وقوله تعالى : **(كانوا من آياتنا عجبا)** ، الآية فى اللغة تطلق على العلامة والدليل ، والعبرة ، وغير ذلك ، والجمع : آيات وآى ، و (العجب) : انكار ما يراه الانسان لقلة اعتياده ، ولعدم الفته ، والأمر العجيب هو المعجب ، أى يجعل الانسان يتعجب منه ، والاسم العجيبة ، والأعجوبة ، والتعاجيب : العجائب ، لا واحد لها من لفظها ، قال الجوهرى : ولا يجمع عجب ولا عجيب ، ويقال جمع عجيب عجائب ، وقولهم اعاجيب كانه جمع أعجوبة (٧) .

والمراد بقوله (عجبا) أى آية ذات عجب ، وضع المصدر موضع المضاف ، أو عبر بالمصدر مبالغة (٨) .

ومعنى الآية : أن قصتهم وان كانت من خوارق العادات ، ومنكر المألوفات الا انها ليست بأعجب آيات الله تعالى فى كونه .

ثم بدأ الله تعالى قصتهم هذه على سبيل الاجمال فقال : **(اذ أوى الفتية الى الكهف)** .

وقوله : (اذ) ظرف لما مضى من الزمان ، وهو مفعول به لفعل محذوف ، والتقدير : اذكر اذ أوى الفتية الى الكهف ، ومعنى (**أوى** الفتية الى **الكهف**) ذهبوا اليه وجعلوه مأواهم ، فالمأوى كل مكان يأوى اليه شىء ليلا أو نهارا ، يقال تأوت الطير تأويا : تجمعت

---

(٧) لسان العرب (مادة عجب) .
(٨) تفسير أبي السعود : ٢٣٩/٣ .

بعضها الى بعض ، والمأوى المنزل ، قال الأزهرى : تقول العرب : أوى فلان الى منزله يأوى أويا بضم الهمزة وكسر الواو واواء بكسر الهمزة ، وآويته أناء ايواء . قال أبو عبيد : أويته وآويته بمعنى واحد .

والفتية جمع فتى ، وقيل جمع فتى بكسر التاء ، وهو الانسان فى مطلع شبابه ، وقيل الفتى هو الشاب من كل شىء ، والفتاء بفتح الفاء : الشباب ، يقال للذكر فتى ، وللأنثى فتاة ، وفتية بكسر التاء ، وجمع الفتى فتيان ، وفتية وهو جمع قلة ، وفتوة بكسر الفاء ، وفتو بضم الأول والثانى ، وفتى بضم الأول وكسر الثانى ، وأفتاء ، بفتح ثم سكون ، وجمع فتاة : فتيات ، ويقال للعبد والأمة فتى ، وفتاة .

والتعبير بالفعل (أوى) فيه ايماء الى مدى سعادة هؤلاء الفتية ، وفرحهم بالعثور على هذا المكان ، الذى لا يراهم فيه أحد من قومهم ، رغم ضيقه بالنسبة لما كانوا عليه وخشونة العيش ، بالمقارنة بما كانوا يأكلون ويتمتعون .

والتعبير بلفظ (الفتية) وهو جمع قلة ، والاتيان به مظهرا بدلا من ضميرهم : للتنصيص على ما كانوا عليه من حال الشباب والقوم والفتوة ، فحينما ارادهم ملكهم على الشرك ، تركوا ما ينزع اليه الشباب فى مثل سنهم ، كما يدل على شجاعة غامرة رغم قلة عددهم أمام عدو مشرك ظالم غاشم قوى ، وعن نفوس زكية باعوها لربهم ، طمعا فى جنة عرضها السموات والأرض .

ثم حكى الله عنهم أول فعل فعلوه بمجرد أن دخلوا هذا الكهف الموحش ، حيث قالوا : (ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا) .

والتعبير بالفاء فى قوله تعالى : (فقالوا ربنا) تصريح بأنهم بمجرد دخولهم هذا الكهف جأروا الى الله تعالى بالدعاء ، فهو الذى يذكره الانسان فى السراء ويلجأ اليه فى الضراء ، فلا مغيث الا هو ولا رافع البلاء الا هو .

وفى اختيارهم لفظ (ربنا)بدلا من الهنا مثلا لأن الحال هنا حال حفظ ورعاية ، والمقام هنا مقام صون وعناية .

والرب : هو الله عز وجل ، وهو رب كل شىء ، أى مالكه ، ولا يقال الرب فى غير الله الا بالاضافة فيقال رب الدار ، وهكذا ، وقد جاء فى الشعر مطلقا بدون اضافة على غير الله تعالى ، ولم يذكر فى غير الشعر ، قالوه فى الجاهلية للملك ، قال الحارث بن حلزة :

وهو الرب والشهيد على يو

م الحيارين والبلاء بلاء

ويطلق فى اللغة على المالك ، والسيد ، والمدبر ، والمربى ، والقيم ، والمنعم .

ثم يبين الله تعالى أنهم طلبوا منه أن يمنحهم عطاءين عظيمين ، أن يمن عليهم من لدنه برحمة عظيمة ، وأن يهيىء لهم من أمرهم هذا رشدا .

أما الأمر الأول وهو الرحمة من عنده ، فليس المقصود بها فى جانب الله ذلك المعنى المستعمل فى بنى آدم ، وهو رقة القلب ، ولكن المقصود هنا غفران الله لهم ، واحسانه اليهم ، وايصال الرزق لهم ، والمن عليهم بالأمن من أعدائهم ، وبكل شىء يحتاجون اليه فى هذه العزلة .

ومعنى قولهم (من لدنك) « أى من خزائن رحمتك ، الخاصة

المكنونة عن عيون أهـل العـادات ، فمن ابتدائية ، متعلقة بآتنا »(٩) ، وعلى ذلك يكون التنوين فى (رحمـة) للتنويع ، والتعظيم .

وقولهم (من لدنك) كما أنه يفيد أن هـذه الرحمة التى يطلبونها رحمة خاصـة ، فانه يفيد أيضـا أن هـذا المن عليهم ليس بواجب عليه تعـالى وانما هو من باب التكرم والتفضـل فكانهم قالوا : ربنا تكـرم وتفضـل علينا برحمـة .

أما الأمـر الثـانى الذى طلبـوه فهو قـولهم : (وهيىء لنـا من أمـرنا رشـدا) ، وأصـل التهيئة انشاء حالة يكون عليها الشىء ، مأخوذ من الهيئة والهيئة بفتح الهاء وكسرها ، وهى كما قال ابن منظـور : حال الشىء وكيفيته ، يقال رجـل هيىء أى حسن الهيئة ، ثم استعمل معنى التهيئة فى معنى التيسـير والتسهيل ، فكانهم قـالوا : يسـر لنـا من أمـرنا رشـدا .

والمـراد من قولهم (أمـرنا) ما هم عليـه من مفـارقة الكفـر وأهله ووطنه ، ولزوم طاعته تعـالى .

والرشـد بفتح الراء والرشد بضم الراء والرشـاد : نقيض الغى ، وأرشده ، ورشده : بتشديد الشين وفتحها : هداه .

ومعنى قولهم (وهيىء لنـا من أمـرنا رشـدا) : اى أصلح لنـا أمـرنا ، واجعله أمـرا ذا رشد ، لنكون بسببه راشدين ، أو اجعـل أمرنا رشـدا كله ، على أن تكون (من) هنـا تجـريدية ، ويكـون الـكلام على التجريد ، بان ينتزع من أمـر عظيم أمـر آخر ، مبالغة فى تعظيمه كانه بلـغ فى الكمال مرتبـة نستطيع أن ناخذ منها شيئـا آخـر ، كما يقول الرجل لصـاحبه رأيت منك أسدا .

---

(٩) تفسير أبى السعود : ٢٣٩/٣ .

وتقديم المجـرورين (لنـا ـ من أمـرنا) على المفعول (رشدا) :

١ ـ لاظهار الاعتناء بهما ، حيث يريدون النجـاة لانفسهم ، ويطلبون الصـلاح لأمـرهم ٠

٢ ـ وتشـويق السـامع الى المؤخـر ٠

٣ ـ وابراز رغبـة المتكلم فى حصول هـذا المؤخر ، بأن يقدم عنه فى الذكـر أحـواله ٠

وينطبق هـذا السر أيضا على تقديم قولهم (منْ لدنك) على قولهم (رحمـة) ، وقدموا قولهم (لنـا) على قولهم (من أمـرنا) للاشارة الى أن هـذا الذى يطلبونه انما يطلبونه عن حب ورغبة ٠

ثم بين الله تعـالى أنه قد استجاب دعاء هؤلاء الفتيـة فمن عليهم بانامة ثقيـلة لم يشهد لها الناس مثيـلا ، حتى يذهب عنهم الخوف ، وتكتنفهم رحمتـه تعـالى بالعنـاية واللطف ، فقـال : (**فضربنـا على آذانهم فى الكهف سنين عـددا**) ٠

والتعبير بالفـاء فى قوله : (فضـربنا) يشعر بمدى سرعة قبـول الله دعاءهم ، وصـدق الله العظيم اذ يقول : « **فاذكرونى أذكركم** »(١٠) ٠

اما الضرب فاصـله فى لغـة العرب ارتطام شيء بشيء آخر بشدة ، ثم تفـرع عن هـذا المعنى عدة معـان أخـر ، ترجـع كلها الى شـدة التـأثير واللصـوق ، يقـال ضرب فى الأرض ، أى خـرج فيها تاجـرا وغازيا ، ويقال ضرب فى سبيل الله ، أى نهض وقاتل ، وضربت الطير أى ذهبت وأسرعت ، وضرب الارض بيده أى أهواها عليها بشدة حتى الصقها بهـا ٠

والآذان جمـع اذن ، بتسكين الذال وضمها ، ولا يجمع جمع تكسير

---

(١٠) سـورة البقـرة : آية ١٥٢ ٠

على غير آذان ، وتصغير أذن أذينـة ، ومفعول (ضربنا) محـذوف ؛ والتقدير : فضربنا على آذانهم حجابا حتى لا تسمع ٠

وفى التعبير بالضرب على الآذان ، ما يفيد قـوة هـذا النوم وشدة لزومه ولصوقه بهم ٠

كما قال تعـالى (**وضربت عليهم الذلة والمسكنة**) أى لزمتا لهم لزوما لا مهـرب لهم منه ، والتصقتا بهم التصـاقا لا يستطيعون فكاكا عنـه ٠

والمعنى : فاستجبنا دعاء هـؤلاء الفتيـة وأنمناهم انامة ثقيـلة ، بحيث لا تؤثر فيهم الأصوات لو حدثت ، ولا تنبهم المزعجات لو وقعت ٠ ، فالضرب على الآذان هنا جاء كناية عن الانامة الثقيـلة ٠

وقد يسـأل سـائل : لم خصت الآذان بالذكـر دون بقية الجوارح ، مع أن كل الأعضـاء محجوبة عن اليقظة ؟ فنقول له :

أنه نادرا ما ينقطع نوم نائم الا من جهـة أذنه ، فهى الجارحة التى منها غالبا يفسـد النـوم ، ولا يستحكم نوم نائم الا اذا لم تسمـع أذناه شـيئا ما ٠

ولأهمية الآذان فى النوم ذكـرها رسول الله ﷺ فى الرجـل الذى يتسلط الشيطان على نومه حتى يضيع صـلاته ، فقد قـال عنـه ﷺ : « بال الشيطان فى أذنه »(١١) ٠

ثم بين تعـالى أن هـذا النـوم كان (**سـنين عـددا**) ، وانتصب (سنين) على الظرفية ، والعامل فيه فضربنا ، وقوله (عددا) صـفة

---

(١١) أخرجه البخارى وغيره ، انظر فتح البارى كتاب التهجد ، باب اذا نام ولم يصـل : ٣/٣٤ ٠

لسنين على حذف مضاف ، والتقدير سنين ذوات عدد ، او هو مصدر يراد به المفعول ، والتقدير سنين معدودة .

أو أن عددا مصدر لفعل مقدر ، فيكون منصوبا على المصدرية ، والتقدير : سنين تعد عددا ، وفى وصف السنين بذلك تكثير لهذه السنوات التى نامها هؤلاء الفتية وهم أحياء ، وهذا هو اللائق بكمال قدرته تعالى ، وبعضهم قال ان الوصف هنا للتقليل ، وذلك هو اللائق بهذا المقام ، الذى ينكر الله فيه أن تكون قصة هؤلاء الفتية أعجب آياته ، وذلك أن هذه السنين وان كثرت فان الكثير عند الله قليل ..

وانا أرجح أن الوصف هنا للتكثير ، لأن الشىء اذا كثر احتيج فيه الى التعديد بخلاف ما لو قل فانه يفهم مقداره بدون تعديد ، وأيضا فان من أغراض هذه القصة التدليل على امكان البعث وعظيم قدرته تعالى ، وذلك يناسبه التكثير لا التقليل .

ثم ذكر الله تعالى ما حدث بعد هذه السنوات الطوال من الانامة الثقيلة ، فقال : (**ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا عددا**) .

واصل البعث فى كلام العرب ـ كما قال ابن منظور ـ على وجهين : أحدهما الارسال ، كقوله تعالى : « **ثم بعثنا من بعدهم موسى** »(١٢) معناه أرسلنا ، وثانيهما : اثارة بارك أو قاعد ، تقول بعثت البعير فانبعث أى أثرته فثار ..

وعلى هذا فالبعث يطلق على عدة معان ، كلها ترجع الى ما ذكرنا ، فالبعث يطلق على احياء الله للموتى ، ويطلق على الايقاظ من النوم ،

---

(١٢) سورة يونس : آية ٧٥ .

يقال بعثه من نومه بعثا فانبعث أى أيقظه وأهبه ، فالبعث يطلق على ذلك لأنه ازالة ما كان يحبسه عن التصرفات والانبعاث ، ويقال لمن أحيي بعد موته ، أو لمن استيقظ بعد نومه مبعوث لأنه كان ممنوعا من الانبعاث والتصرفات ، ويقال رجل بعث ـ بفتح فسكون ـ أى كثير الانبعاث من نومه ، وأيضا يقال رجل بعث اذا كانت همومه تبعثه وتؤرقه من نومه ·

وعلى هذا فالمراد من قوله تعالى : (**ثم بعثناهم**) ، **أى** أيقظناهم من هذا النوم الثقيل الذى بلغ ثلاثمائة سنين وتسعا ·

ثم بين الله تعالى الحكمة من بعثهم هذا فقال : (**لنعلم أى الحزبين أحصى لما بعثوا أمدا**) ، أى ليحصل علمنا الظهورى ويطابق علمنا الأزلى ، فالله تعالى له علمان بكل شىء ، علم أزلى قبل حدوث الأشياء ، وعلم ظهورى بعد ظهور الأشياء وحدوثها ، ومثل ذلك قوله تعالى : « **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين** »(١٣) ، أى بعثهم الله تعالى ليحصل العلم الظهورى بأى الحزبين قد أحصى مدة نومهم ·

قال الزمخشرى : « **فان قلت : كيف جعل الله تعالى العلم** باحصائهم المدة غرضا فى الضرب على آذانهم ؟ قلت : الله عز وجل لم يزل عالما بذلك ، وانما أراد ما تعلق به العلم من ظهور الأمر لهم ، ليزدادوا ايمانا واعتبارا ، ويكون لطفا لمؤمنى زمانهم ، وآية بينة لكفاره »(١٤) ·

---

(١٣) آل عمران : ١٤٢ ·
(١٤) تفسير الكشاف : ٧٦/٢ ·

والحـــزب فى اللغــة : يطلق على جماعة الناس ، والجمع أحزاب ، وحـــزب الرجل أصحابه وجنده الذين على رأيه ، وكل قـــوم تشـــاكلت قلوبهم وأعمالهم فهم أحـــزاب ، وان لم يلق بعضهم بعضـــا ، يقال حزب فـــلان أحـــزابا ، أى جمعهم •

واختلف المفسرون فى تعيين الحـــزبين على النحو التالى :

١ ـ فبعضهم قال : ان الحزبين هما أصحاب الكهف أنفسهم ، لمـــا بعثهم الله من نومهم ، انقسموا الى فريقين ، بسبب الاختـــلاف فى مـــدة لبثهم نيـــاما ، واستدل أصحاب هـــذا الرأى بقوله تعـــالى فى نفس القصـــة : (**قال قائل منهم كم لبثتم قـــالوا لبثنـــا يومـــا أو بعض يـــوم ، قـــالوا ربكم أعـــلم بما لبثتم**) •

٢ ـ وذهب بعضهم الى أن المـــراد بالحـــزبين غير أصحاب الكهف ، وهذا البعض اختلف فى تحديهما أيضـــا ،

(أ) فمن قائل ان الحـــزبين قـــوم أهـــل الكهف ، حزب منهم مؤمنون ، وحـــزب منهم كافرون •

(ب) ومن قائل أن الحـــزبين مؤمنـــان ، كانوا فى زمن هؤلاء الفتيـــة ، واختلفوا فى مدة لبثهم •

(جـ) ومن قائل أن الحـــزبين كافران ، والمـــراد بهما اليهـــود والنصارى الذين علموا قريشا سؤال رسول الله ﷺ عن أهل الكهف ، ولكن المشهور أن اليهود هم الذين بعثوا بهـــذه الأسئلة •

٣ ـ وبعضهم قال : ان المـــراد بالحزبين هنا فتية أهل الكهف من ناحية ؛

وغيرهم من ناحية أخـرى ، أما غيرهم هذا فقد اختلف فى تحديده أيضـا .

(أ) فبعضهم قال ان هـذا الحـزب الثـانى هم الملوك الذين تداولوا ملك المدينة ، واحدا بعد واحد .

(ب) وبعضهم قال : ان هـذا الحـزب الثانى هم أهل المدينـة الذين بعث الفتية على عهدهم ، وكان عندهم تاريخ غيبتهم .

ولعلنـا نرجح الرأى الأول الذى ينص على أن الحزبين هما أصحاب الكهف أنفسهـم ، لأن الله تعـالى حينما تحدث عن بعثهم فيما بعـد ، تحدث عن شىء من حـكمة ذلك فقـال : (وكذلك بعثناهم : ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم) ، ووقع بعد ذلك الاختـلاف بينهم فى مدة لبثهم ، وحينما ذهب رسولهم الى المدينة وانكشف أمرهم تبين لهم وجه الحق فى مـدة لبثهم .

ويرجح الألوسى هـذا الرأى : من حيث أن اللام فى لفظ (الحزبين) « للعهد ، ولا عهد لغير من سمعت »(١٥) ، وهو كما ترى ترجيح وجيه ، حيث لم يسبق حديث عن غيرهم .

وقـوله تعـالى : (أى) مرفـوع بالابتـداء ، وهو مضـاف و (الحزبين) مضـاف اليه ، وجملة (أحصى) خبر المبتدأ ، وهـذه الجمـلة الخبرية بمجموعها سدت مسد مفعـولى نعلم ، ولهـذا لم يظهر عمـل قوله (لنعلم) فى لفظ (أى) بل بقى على ارتفـاعه . كقـوله تعالى : « ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا »(١٦) وقـوله تعـالى (أحصى) مشتق من الاحصـاء ، وهو العـد والحفظ ،

وقوله تعـالى (أحصى) مشتق من الاحصـاء ، وهو العـد والحفـظ ،

---

(١٥) تفسير الألوسى : ١٥/٢١٢ .

(١٦) سورة مريم : آية ٦٩ .

تعد شيئا بحيث لا يقع فى العدد خطأ استعانت بالحصا ، وهو صغار الحجارة ، ومن أسمائه تعالى (المحصى) : أى الذى أحاط بعلمه كل شىء ، فلا يفوته دقيق منها ولا جليل .

ولفظ (أحصى) فعل ماض ، بمعنى ضبط ، والمعنى لنعلم أى الحزبين ضبط لما لبثوا أمدا ، وذهب بعضهم الى انه أفعل تفضيل ، ورد الزمخشرى هذا الرأى بقوله : (ليس بالوجه السديد ، وذلك أن بناءه من غير الثلاثى المجرد ليس بقياس ، ونحو : « أعدى من الجرّب » و « أفلس من ابن المذلق » شاذ ، والقياس على الشاذ فى غير القرآن ممتنع ، فكيف به ؟) .

ويقول الآلوسى : « وفى الكشف : أن قول الزجاج ـ يعنى أن أحصى افعل تفضيل ـ ليس بذلك المردود ، الا أن ما آثره الزمخشرى أحق بالاعتبار »(١٧) .

وقوله تعالى : (**لما لبثوا أمدا**) : اللبث المكث والاقامة ، يقال : لبث بالمكان لبثا ولبثا بفتح اللام وضمها ، اذا أقام به ، والأمد : الغاية ، وهو منصوب على أنه مفعول به عند بعضهم ، وقال الفراء : نصب على التمييز ، وقال الزجاج : نصب على الظرفية ، أى أى الحزبين ضبط لبثهم فى الأمد .

وذلك ينتهى هذا المشهد الاجمالى لقصة أصحاب الكهف ، لتأتى الآيات بعد ذلك تفصل لنا خبرهم ، وتقص علينا ما حدث لهم وعنهم .

(المعنى العام لآيات المشهد الأول)
من الآية (٩) الى الآية (١٢)

سبق أن ذكرنا أن قريشا سألت رسول الله ﷺ ـ عن طريق اليهود ـ عن ثلاثة أشياء ، عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ، وكان

---

(١٧) تفسير الآلوسى : ٢١٤/١٥ .

أمـرهم عجبا ، وعن رجـل طواف ، بلـغ مشرق الأرض ومغـربها ، وعن الـروح •

وفى هـذه الآيات يخبر الله حبيبه ﷺ عن قصـة هؤلاء الفتية الذين ذهبوا فى الدهـر الاول وكان أمـرهم عجبـا ، فيقول له : أظننت أن هؤلاء الفتيـة كانوا أعجب آياتنـا فى الوجـود ؟ كلا ، كلا ، ان أمرهم حقـا كان خارقا للعـادة ، وان أمـرهم فعـلا يجعل الانسـان يعجب منه ، ولكنه بالنسبة الى سـائر آياته تعـالى المنسوبة فى الآفاق والأنفس ليس باعجبها ، وها هو الكون نفسـه يشهد بذلك ، ان البعوضـة التى لا يعيرها الانسـان اهتماما لهى أعجب فى خلقها وأمـرها من شأن هؤلاء الفتيـة ، بل ان الذباب الذى يتقـزز الانسـان منه فى أمـر خلقه لهو أعجب من أمـرهم أيضـا ، وبه تحدى الله العـالمين أجمعين ، فما بالك بملكوت السموات والأرض ، « **لخلق السموات والأرض أكبـر من خلـق النـاس ولكن أكثـر النـاس لا يعلمـون** »(١٨) •

ثم يبدأ الله بذكر قصة الفتية أولا بطريقة اجمالية ، فيقول :

ان هؤلاء الفتيـة كانوا قـلة من الشباب ، فى مقتبل أعمارهم ، وكان الشـأن فى حياتهم أن يعيشوا مع أقـرانهم حيـاة اللهـو واللعب والمـرح ، بل حيـاة الفسق والفجـور ، لأنهم كانوا بين قـوم كافرين ، وكان المتوقـع منهم وهم القـلة الضعفاء أن ينضووا تحت قيادتهم القوية ، حيث ملك ظـالم غاشم مستبد ، ولكن هؤلاء الشباب عرفوا هويتهم ، وعرفوا لمـاذا خلقوا ، وعرفوا أن الله أقـوى من كل قـوى ، وأكبر من كل كبير ، بل انه مصـدر كل قـوة ، فهو خالق القوى والقدر ، فلم الخوف ؟ أيخـافون على أعمارهم ، أم يخشـون على أرزاقهم ، ان الأعمار مقدرة عند الله ، فلن يموت انسـان قبـل أجـله ، ولن يؤخـر عنه سـاعة اذا

---

(١٨) سـورة غـافر : آية ٥٧ •

ما حضر ، ولن يموت قبل أن يستوفى رزقه كله ، اذاً فلم الخوف ؟ لما ثبتت هذه الحقيقة فى وجدانهم ، ولما رأوا أن العيش فى دار الكفر والظلم والطغيان مستحيل، صمموا على اعتزال قومهم، فاذا بهم يتركون سعة الدنيا كلها ويذهبون الى كهف ضيق ، ويتركون نعيم الحياة ، الى مكان ليس فيه من مقوماتها شىء ، ولكنه الايمان بالله ، والثقة فيه ، واليقين أنه لن يضيعهم ، كما لم يضيع من قبل صغير الخليل اسماعيل ، وأمه هاجر عليهم سلام الله ، حينما تركهما فى واد غير ذي زرع ، لا ماء فيه ، ولا نبات ، ولكن :

اذا ما العناية لاحظتك عيونها
نم فالمخاوف كلهن أمان

ذهب الفتية الى الكهف الضيق الموحش ، وهم يحملون بين ضلوعهم هذا الايمان واليقين ، وبمجرد وصولهم الى هذا المكان الذى اعتبروه مأوى وراحة لهم ، بل وجنة ينعمون فيها بالبعد عن الكفر وأهله ، وعن الظلم وجنده ، بمجرد وصولهم الى الكهف لجأوا ـ كما هى عادة المؤمن فى كل وقت ـ الى الله تعالى بالدعاء ، وركزوا فى دعائهم هذا على طلبين :

الأول : ان يغفر الله لهم ما سلف من ذنوبهم ، وأن يمن عليهم من عنده ، برحمة خاصة ، من رحماته المكنونة ، التى لا تكون الا لأوليائه ، الذين باعوا أرواحهم له ، طمعا فى رحمته ، ومحبة فى ذاته العلية ، وأملا فى نيل رضوانه ، والتمتع برؤية وجهه الكريم .

أما الأمر الثانى : فقد طلبوا الى ربهم أن يقف معهم فى أمرهم هذا ، فان الدنيا قد شاع فيها الفساد ، وعمها الظلم والاستبداد ! فالى أين يسيرون ، ولأمورهم كيف يدبرون ، انهم فى حيرة ؟ ماذا يصنعون من أجل الحفاظ على هذا الايمان الذى يحملونه بين ضلوعهم ؟

انهم لا يريدون أن يفقـدوه ، فما السبيـل الى ذلك ؟ انهم لا يدرون ، ولذلك وجدناهم لربهم يجـأرون (**هيىء لنـا من امـرنا رشـدا**) .

وبمجـرد أن دعا الفتيـة ربهم ، وبسرعة ـ لم تخطر على بالهم ـ اذا برحمـة الله تعـالى تتغشـاهم ، واذا بعنـايته ترعاهم ، فيلقى الله تعـالى عليهم نوما ثقيـلا يبلغ مئـات السنين ، وبعدها يوقظهم من هذه الرقدة الطويلة ليعـلم علمـا ظهوريا ـ كما علم علمـا أزليـا ـ من الذى ضبط مدة لبثهم نيـاما ضبطا دقيقـا ، وليعلم النـاس أن البعث بعـد الموت لا يختلف كثيرا عن الايقـاظ بعد النوم ، مئـات السنين ، فمن قدر على هـذا الأمـر الخارق للعـادة يقدر على البعث بعد الموت ، وصـدق الله اذ يقـول : « **كمـا بدأكم تعـودون** »(*) .

(العبـر المستفـادة)

من خـلال آيات هـذا المشهد الاجمالى للقصـة كلها ، والتى تروى اعتزال الفتيـة للكفـر وأهله نستطيع أن نخـرج بعدة دروس وعبـر ، نكتفى منهـا بما يلى :

١ ـ ان الدين والاستمساك به هو السياج لحفظ انسانية الانسـان وكرامته ، وعـزته وشرفه ، فاذا غلب عليـه أو فقد لم يغن من ورائه الأهل والمـال بل ولا الدنيـا كلها ، أما اذا علت رايتـه فى المجتمعات ، ورسخت عقيدته فى القـلوب ، فان أى شىء فقد فى سبيـله فانه سيعود ، وبصـورة أقـوى من ذى قبل ، حيث يحرسـه الايمان ، وتظلل عليـه الكرامة ، وان لم يعد ذلك للانسـان فى حياته ، فهو فى انتظـار جنة عرضها السموات والأرض ، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

(*) سورة الأعراف : آية ٢٩ .

٢ - يجب على المسلم أن يتميز باسلامه عن أهل الباطل ، فيكون واضح المعالم فى كل مكان حل به ، وأن يعلن براءته من كل نظام جاهلى ، لا يتخذ الاسلام دينا ، ولا أحكامه منهجا وشريعة ، أما نظام الترقيع فى الدين ، والأخذ بحل وسط فى الشريعة ، فليس من طبيعة الاسلام ، ولا من أسلوب المسلمين ، ذلك أن الاسلام لايمكن له فى أى زمان وفى أى مكان أن يلتقى والجاهلية فى منتصف الطريق ولا فى أى طريق ، لأن الهوة بينهما لا تقبل قسمة ، أو اتخاذ قنطرة عليها .

لقد جاءت الأحاديث تترا حاكية محاولات متعددة من جانب كفار قريش ، للاتفاق مع الرسول ﷺ على أن يلتقى الاسلام والجاهلية فى منتصف الطريق ، وداهنوا ولاينوا فى محاولاتهم ، ولكن الرسول ﷺ ، الذى هو الين الخلق أجمعين وأبر الخلق بالخلق ، وهو الرءوف الرحيم ، ما كان يداهن وما كان يلين ، لأن الدين هو الدين ، فاما اسلام كله عدل ونور ، واما جاهلية يسودها الظلم وتعمها الظلمات والجور .

يقول السيد قطب رحمه الله ، وطيب ثراه : « ان التوحيد منهج ، والشرك منهج آخر ، ولا يلتقيان ، التوحيد منهج يتجه بالانسان - مع الوجود كله - الى الله وحده لا شريك له ، ويحدد الجهة التى يتلقى منها الانسان عقيدته وشريعته ، وقيمه وموازينه ، وآدابه واخلاقه ، وتصوراته كلها عن الحياة ، وعن الوجود ، هذه الجهة التى يتلقى المؤمن عنها هى الله ، الله وحده ، بلا شريك ومن ثم تقوم الحياة كلها على هذا الأساس ، غير ملتبسة بالشرك فى أية صورة من صوره الظاهرة والخفية ، وهى تسير .

وهذه المفاصلة بهذا الوضوح ضرورية للداعية ، وضرورية للمدعوين ...

ان تصـورات الجاهلية تتلبس بتصـورات الايمان ، وبخاصـة فى الجماعات التى عرفت طريق العقيدة من قبـل ، ثم انحرفت عنها ، وهذه الجماعات هى أعصى الجماعات على الايمان فى صـورته المجـردة من الغبش والالتـواء والانحراف ، أعصى من الجماعات التى لا تعرف العقيدة أصـلا ، ذلك أنها تظن بنفسها الهدىَ في الوقت الذي تتعقـد انحرافاتها وتتـلوي •

ان الجاهلية جاهلية ، والاسـلام اسلام ، والفـارق بينهما بعيـد ، والسبيل هو الخـروج عن الجاهلية بجملتها ، الى الاسـلام بجملته ، هو الانسـلاخ من الجاهلية بكل ما فيها ، والهجرة الى الاسـلام بكل ما فيه •

وأول خطوة فى الطريق هى تميز الداعيـة ، وشعوره بالانعـزال التـام عن الجاهلية ، تصـورا ومنهجا وعمـلا ، لا ترقيع ، ولا أنصـاف حـلول ، ولا التقـاء في منتصف الطريق •

وتميز هـذه الصـورة فى شعور الداعية هو حجر الأساس ، شعوره بانه شىء آخـر غير هؤلاء ، لهم دينهم ، وله دينـه ، لهم طريقهم وله طريقه ، لا يملك أن يسـايرهم خطوة واحدة فى طريقهم ، ووظيفته أن يسـيرهم فى طريقه هو ، بلا مداهنة ، ولا نزول عن قليـل من دينـه أو كثيـر •

وما أحوج الداعين الى الاسـلام اليوم الى هـذه البراءة ، وهـذه الفاصلة ، وهـذا الحسم ، ما احوجهم الى الشعور بأنهم ينشئون الاسلام من جديد ، فى بيئـة منحـرفة ، وفى اناس سبق لهم أن عرفوا العقيدة ، ثم طال عليهم الأمـد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون •

ان الدعـوة الى الاسـلام لا تقوم على الأسس الواهنة الضعيفة ، انها لا تقـوم الا على الحسم والصراحة والشجاعة والوضوح ، وهـذا هو طريق الدعـوة الأول ، « لـكم دينـكم ولى دين »(١٩) •

---

(١٩) فى ظلال القرآن : تفسير سورة الكافرون •

٣ - تخبرنا آيات هذا المشهد الاجمالى أن الفتية المؤمنة حينما أوت الى الكهف تضرعت الى ربها بقولها : (**ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا**) .

وهذا يدل على أهمية التضرع الى الله تعالى فى مثل هذه الاوقات ، كما قال تعالى : « **فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم** »(٢٠) ، فهذا عتاب شديد على ترك الدعاء ، قال القرطبى : « ويجوز أن يكونوا تضرعوا تضرع من لم يخلص ، أو تضرعوا حين لابسهم العذاب ، والتضرع على هذه الوجوه غير نافع »(٢١) .

ثم ان الله تعالى أمر بالدعاء فى كل وقت ، حيث قال تعالى : « **وقال ربكم ادعونى أستجب لكم** »(٢٢) ، وقال : « **وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان** »(٢٣) ، ولكن العاقل يجب أن يعلم ان مفتاح قبول الدعاء هو الاستجابة لشرع الله ، والعمل بما أمر والترك لما عنه نهى ، حتى يقع الدعاء موقع القبول ، ولذلك قال تعالى بعد قوله : (**فإنى أجيب دعوة الداع إذا دعان**) ، (**فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون**) . ، ولأن الانسان اذا ذكر ربه فى الرخاء ذكره فى الشدة والبأساء ، قال تعالى : « **فاذكرونى أذكركم** »(٢٤) ، قال بعضهم : فاذكرونى بالطاعة أذكركم بالرحمة ، فاذكرونى بلا غفلة أذكركم بلا مهلة ، فاذكرونى بالندم أذكركم بالكرم ، فاذكرونى بالاخلاص أذكركم بالخلاص ، فاذكرونى بالتذلل أذكركم بالتفضل ، فاذكرونى

---

(٢٠) سورة الانعام : آية ٤٣ .
(٢١) تفسير القرطبى : ٤٢٥/١٠ .
(٢٢) سورة غافر : آية ٥٦ .
(٢٣) سورة البقرة آية :١٨٦ .
(٢٤) سورة البقرة آية : ١٥٢ .

بتصفية السر أذكركم بتوفية البر ، فاذكرونى حال حياتكم أذكركم بعـد وفـاتكم ٠

وهكذا يكون حال المؤمن فى الرخاء والسراء ، والصحة والشباب والغنى والمـال والجـاه والبنين ، فاذا انتقـل الى حـال مضـادة لذلك كان الله معه هنالك ٠

٤ ـ تدلنا قصـة أصحاب الكهف على وقوع الكرامات لأولياء الله تعالى ، والوقائع فى ذلك أكثر من أن تحصى ، وأشهر من أن تنسى ، ولقد حدثنا بذلك كتاب الله ، وأخبرتنا به سنة نبيه ﷺ ٠

فمن القـرآن ما يأتى :

قوله تعـالى : « **كلمـا دخـل عليهـا زكـريا المحـراب وجـد عندها رزقـا ، قال يا مـريم أنى لك هـذا ؟ قالت هو من عنـد الله ، إن الله يرزق من يشـاء بغير حسـاب** »(٢٥) ٠

وقولة تعـالى : « **وهـزى إليـك بجـزع النخـلة تسـاقط عليـك رطبـا جنيـا** »(٢٦) ٠

ومن الأحاديث : حديث الغلام الذى كان يأتى الراهب والساحر ، فأراد أن يعـرف من افضـل الراهب أم السـاحر ، فبينما هو يسـير فى الطريق اذ اتى على دابة عظيمة قد حبست النـاس ، فقال اليوم اعلم الساحر افضـل أم الراهب أفضـل ؟ فأخذ حجـرا فقال : اللهم ان كان أمـر الراهب أحب اليك من أمـر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضى النـاس ، فرماها فقتلها ، ومضى النـاس ، وفى هـذا الحديث صعد أعـوان الملك به مـرة ذروة جبل فقال الغـلام اللهم اكفينهم بما شئت فاضطرب بهم الجبـل فسقطوا وجـاء يمشى الى

---

(٢٥) سـورة آل عمـران آية : ٣٧ ٠

(٢٦) سـورة مـريم آية : ٢٥ ٠

الملك ، ثم فعل به أعوان آخرون مثل ذلك فى بحر من البحور ؛ حيث توسطوا به البحر فانكفأت بهم السفينة وغرقوا . . . الحديث(٢٧) .

ومنها حديث جريج الذى أرادت امرأة بغى أن تفضحه فى بنى اسرائيل بنسبة مولود لها من زنا ، فصلى جريج ركعتين ثم قال للمولود من أبوك ؟ فقال : فلان الراعى ، فأقبلوا على جريج يقبلونه ويتمسحون به ، وقالوا نبنى لك صومعتك التى هدمناها من ذهب(٢٨) .

ومن هذه الأحاديث أيضا حديث أصحاب الغار الذين أطبقت عليهم الصخرة ، فدعا كل منهم ربه بأرجى عمل عمله ابتغاء مرضاة الله ، فانفرجت عنهم الصخرة التى سدت باب الغار وخرجوا(٢٩) ، الى غير ذلك من الأحاديث والآثار التى تدل على اكرام الله لأوليائه، الذين يخلصون له الدين والأعمال ، ويذكرونه فى وقت السراء ، فيذكرهم فى وقت الضراء ، ويكون بمدده واكرامه أقرب اليهم من حبل الوريد .

* * *

(٢٧) أخرجه مسلم فى صحيحه فى كتاب الزهد ، باب قصة الأخدود : ٤/٢٢٩٩ .

(٢٨) أخرجه البخارى فى صحيحه فى كتاب الانبياء ، باب (واذكر فى الكتاب مريم) ، ومسلم فى كتاب البر ، باب تقديم بر الوالدين على التطوع بالصلاة .

(٢٩) أخرجه البخارى فى كتاب الأنبياء ، باب حديث الغار ، وأبو داود فى سننه ، فى كتاب البيوع ، باب الرجل يتجر فى مال الرجل بغير اذنه .

« المشهـد الثـانى »

(ولاء لله وجنده ، وبراء من الطاغوت وحزبه)

قال تعـالى : « نحن نقص عليـك نبـأهم بالحـق ، إنهم فتيـة آمنـوا بربهم وزدناهم هـدى (١٣) وربطنـا على قـلوبهم إذ قـاموا فقـالوا ربنـا رب السموات والأرض ، لن ندعـوا من دونه إلهـا لقـد قلنـا إذاً شططا (١٤) هـؤلاء قومنـا اتخـذوا من دونه آلهـة ، لـولا يأتون عليهم بسلطان بين ، فمن أظلم ممن افتـرى على الله كذبا (١٥) وإذ اعتزلتموهم وما يعبـدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشـر لـكم ربكم من رحمتـه ويهيىء لكم من أمـركم مرفقـا (١٦) ... » .

معـانى المفـردات وأسرار التراكيب

بعد أن لخص الله تعـالى قصـة هؤلاء الفتيـة فى الآيات السابقة شرع سبحانه فى تفصيلها على الوجـه الذى لا يشوبه كذب ، ولا يخالطه باطل ، فقال : (نحن نقص عليك نبـأهم بالحق ... الخ) ، ولذلك بدأ الله تعـالى تفصيل هذه القصـة بالتعبير عن نفسـه بضمير العظمـة (نحن) .

وهذه الجمـلة تشعر بأن قصـة هؤلاء الفتية كنات معـلومة عند البعض ، ولكنها لم تكن تقص موافقـة لمـا حدث ، ولذلك يقول الآلوسى : « ولعـل فى التقييد (بالحق) اشـارة الى أن فى عهده ﷺ من يقص نبـأهم ، لكن لا بالحق ، وفى الكشف بعد نقل شعر أميـة بن أبى الصلت السـابق ما نصـه : « وهـذا يدل على أن قصـة أصحاب الكهف كانت من عـلم العـرب ، وإن لم يكونوا عالميها على وجهها »(١) » .

---

(١) تفسير الآلوسى : ١٥/ ٢١٦ .

والقصـة مشتقة من القص وهو فى اللغـة تتبـع الاثر للوصـول الى المـراد ، فيكون فى اختيار هـذا اللفظ (نقص) وفى توجيه الخطاب للرسـول ﷺ ، بالاضـافة الى تصـدير الكلام بضمير العظمة (نحن) والاتيـان بكلمة (بالحق) فى كل ذلك عدة توكيدات على تصديق محمد ﷺ فى دعـواه النبـوة ، ورد مفحم على من أراد اختباره بمثـل هذا القصص ، حيث جـاءت القصـة بعـد ذلك على أدق ما يكون وأصـدق مما يحـكون .

والنبـأ : الخبر ، وأكثر ما يستعمل فى الأخبار العظيمة ، والأمور الخطيرة ، قال تعـالى : « **قال هو نبـأ عظيم** »(٢) ، وقال : « **عـم يتسـاءلون ؟ عن النبـأ العظيم** »(٣) ، وأصـل هذا اللفظ : الارتفاع ، يقال نبـأ نبئـا ونبـوءا : أى ارتفع ، وجمعه أنبـاء .

والحق : نقيض الباطل ، وجمعه حقوق ، وحقـاق بكسر الحاء ، يقال حق الأمـر ، أى وجب وثبت وتحقق عنده الأمر : أى صح .

وقوله (بالحق) صفة لمصـدر محذوف ، أى نقص قصصا ملتبسـا بالحق ، أو صفة لـ (نبـأهم) على رأى من يرى حـذف الموصـول بعد صلته ، أى نبـأهم الملتبس بالحق ، أو حال من ضمير (نقص) ، أى نقصـه ملتبسين به ، أو حال من (نبـأهم) أى نقص نبـأهم ملتبسـا بالحق ، وواضح أن البـاء فى قوله تعـالى (بالحق) للملابسة .

ثم بدأ الله تعـالى فى ذكـر بعض صفاتهم وأحوالهم ، فقال : (**إنهم فتيـة آمنـوا بربهم وزدناهم هـدى**) ، وهذه الجمـلة استئنافية ، جاءت جوابا عن سؤال مقـدر ، كأن سـائلا سـأل ، ما تفصيل نبـأ هـؤلاء الفتيـة ؟ ، فقيل له : انهم فتيـة آمنـوا ... الخ .

---

(٢) سـورة ص آية : ٦٧ .
(٣) سـورة النبـأ آية : ١، ٢ .

وافتتحت هذه الجملة بحرف التاكيد (انهم) - كما يقول الطاهر ابن عاشور : « لمجرد الاهتمام لا لرد الانكار »(٤) .

وقوله (فتية) ، أى كانوا جماعة من الشبان ، فى مقتبل أعمارهم ، وهذا يدل على أن الشباب لقربهم من الفطرة أقبل للحق من المشايخ ، الذين كلت عقولهم ، وأصبح بينهم وبين هذه الفطرة السوية أشواط بعيدة ، تأثروا فيها بما ينعكس على سلامة التفكير ، وصحة الاعتقاد ، ولذلك أتبع هذا الوصف بوصف آخر (آمنوا بربهم) ، وهذه هى النتيجة الطبيعية لمن يستعمل نعم الله عليه فى التفكير السليم والتصور والسلوك المستقيمين .

والايمان فى اللغة معناه التصديق ، قال اخوة يوسف لأبيهم : « **وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين** »(٥) ، والتصديق يكون بالقلب ، فالايمان هو التصديق القلبى ، ويشهد لذلك حديث جبريل المشهور : «الايمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وبالقدر خيره وشره »(٦) ، أما الاسلام فهو الانقياد الظاهرى لما أتى به النبى ﷺ ، ولذلك لما سئل عن الاسلام فى نفس هذا الحديث ذكر أعمال الجوارح فقال : أن تشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت ان استطعت اليه سبيلا ، وبهذا الانقياد الظاهرى يحقن الدم .

فان كان مع ذلك الاظهار اعتقاد وتصديق بالقلب ، فذلك الذى يقال للموصوف به مؤمن مسلم .

وقد قال العلماء عن هاتين الكلمتين - أعنى كلمتى : الايمان

---

(٤) التحرير والتنوير : ٢٧١/١٥ .
(٥) سورة يوسف اية : ١٧ .
(٦) أخرجه مسلم وغيره ، أنظر صحيح مسلم ، كتاب الايمان ، باب الايمان والاسلام والاحسان : ٣٧/١ .

والاسلام ـ انهما اذا اجتمعتا افترقتا ، واذا افترقتا اجتمعتا ، **بمعنى :** أن الايمان لو جاء بمفرده فى جملة ما أريد به ما يشمل التصديق القلبى ، والانقياد الظاهرى ، نحو قوله تعالى : « **قد أفلح المؤمنون** »(٧) بدليل وصفهم بعد ذلك بصفات هى من صميم انقيادهم الظاهرى ، وكذلك الاسلام لو جاء بمفرده فى جملة ما أريد به ما يشمل الانقياد الظاهرى ، والتصديق القلبى ، مثل قوله تعالى « **فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون** »(٨) ، أما اذا اجتمعتا معا فى عبارة ما فانه حينئذ يراد القلبى فقط ، وبالاسلام الانقياد الظاهرى فقط ، نحو قوله تعالى : « **إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات** »(٩) ٠

وعلى هذا فالايمان من هؤلاء الفتية يراد به ما يشمل التصديق القلبى والانقياد الظاهر ى، والمراد بربهم الههم وسيدهم ، الناظر فيما يصلح شئونهم فى الدين والدنيا ٠

وفى التعبير بقوله (بربهم) دون التعبير بالههم ، أو بآمنوا بنا ما يؤذن أن رب كل نعمة ، ومصدر كل فضل فى الوجود ، لابد وأن يقابل بالشكر والعرفان والعمل بشرعه ، لأنه الذى يتولى تربية خلقه جسدا وروحا ٠

قال أبو السعود : « أوثر الالتفات ـ أى التعبير بقوله (بربهم) دون قوله بنا ـ للاشعار بعلية وصف الربوبية لايمانهم ، ولمراعاة ما صدر عنهم من المقالة ، حسبما سيحكى عنهم »(١٠) ٠

ثم وصفهم الله تعالى بصفة أخرى ألا وهى زيادة الهدى فقال : **(وزدناهم هدى)** ٠

---

(٧) سورة المؤمنون آية : ١ ٠
(٨) سورة البقرة آية : ١٣٢ ٠
(٩) سورة الأحزاب آية : ٣٥ ٠
(١٠) تفسير أبى السعود : ٢٤٣/٣ ٠

والزيادة فى اللغة : النمو ، وكذلك الزوادة ، وهى خلاف النقصان ؛ والهدى ضد الضلال ، وهو الرشاد ، ومن أسمائه تعالى (الهادى)، قال ابن الأثير : « هو الذى بصر عباده وعرفهم طريق معرفته ، حتى أقروا بربوبيته ، وهدى كل مخلوق الى ما لابد له منه فى بقائه ودوام وجوده »(١١) .

ومعنى قوله تعالى : (**وزدناهم هدى**) ، أى ثبتناهم على دينهم ، ووفقناهم لصالح الأعمال ، وأخذنا بأيديهم الى الدرجات العلا ، من الايمان الذى به تندك الجبال ، ولا يحرك قيد شعرة منه ظلم الطغاة ، أو سوء العذاب ومنكر الفعال .

وفى قوله تعالى : (وزدناهم) التفات من الغيبة (آمنوا بربهم) الى ما كان عليه السياق قبل ذلك من التكلم ، وفائدة هذا الالتفات تعظيم أمر الزيادة ، حيث أسندت الى الضمير (نا) والذى يفيد من التعظيم ما يفيد ، فاذا أضيف الى ذلك التعظيم المستفاد من تنكير (هدى) علمنا مدى فضل الله عليهم فى زيادة هذا الهدى وفى مقداره وعلو شأنه .

ثم ذكر الله سبحانه وتعالى بعضا من زيادة هذا الهدى ، فقال :

(**وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض ..**) الخ

والربط : الشد ، يقال ربط الشىء يربطه ويربطه ربطا بكسر الباء وضمها فهو مربوط وربيط ، اذا شده ، والقلب : الفؤاد ، والجمع أقلب وقلوب ، وقد يعبر به عن العقل ، يقولون أين ذهب قلبك ؟ أى اين ذهب عقلك .

قال بعضهم : سمى القلب قلبا لتقلبه ، قال القرطبى : « والقلب

---

(١١) لسان العرب : (زيد) .

فى الأصـل مصـدر قلبت الشىء أقلبه قلبـا ، اذا رددته على بداءته ، وقلبت الاناء : رددته على وجهـه ، ثم نقـل هذا اللفظ فسمى به هـذا العضـو الذى هو أشرف الحيوان ، لسرعة الخواطر اليه ولترددها عليه ، كمـا قيـل :

مـا سـمى القلـب الا من تقلبـه

فاحذر على القلب من قلب وتحويل »(١٢)

ولمـا كان ربط الشىء يفيد شده وتقـويته فان معنى قوله تعـالى : (**وربطنـا على قـلوبهم**) يكون : قوينا قلوبهم على الجهر بالاسـلام ، وتحدى أهـل الظلم والطغيان ، وصبرناها على مفـارقة الأهل والوطن والنعيم ، وثبتناها على ذلك .

وانما خصت القلوب بالربط لأنها محـل الفزع والانهيار ، ومنـه قوله تعالى : « **وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام** »(١٣) .

ولمـا كان الخوف وشدة الفـزع يوقع بالانسـان ما يشبه الانحلال حسن التعبير بالربط عن قـوة التصميم ، وشدة النفوس على ما تلقـاه من مصاعب وتهاويل ، ومنـه قولهم : فلان رابط الجاش ، اذا كان ثابتا فى الحرب ، لا ينهار عند الفـزع والقتـال .

وفى التعبير بضمير التعظيم فى (ربطنا) اشـارة الى عظم هـذه المنـة عليهم ، بحيث لا يتطرق الخوف الى قلوبهم البتة .

وقـوله : (اذ) فى (اذ قاموا) منصوب بربطنا ، فهو ظرف له .

أما القيـام فانه يستعمل لغـة فى عدة معان ، فهو نقيض الجلوس ، وهو العـزم ، ومنه قوله تعـالى : « **وانه لمـا قام عبد الله يدعـوه** »(١٤)

---

(١٢) تفسير القرطبى : ١٨٧/١ .
(١٣) سـورة الأنفال آية : ١١ .
(١٤) سـورة الجـن آية : ١٩ .

أى لما عزم ، وهو الملازمة ، ومنه قوله تعالى : « إلا ما دمت عليه قائما »(١٥) ، ولهذا فانهم اختلفوا فى المراد بالقيام هنا على عدة اقوال . فمنهم من قال : ان القيام هنا هو العزم ، كما يقال قام فلان الى أمر كذا ، اذا عزم عليه بنهاية الجد ، فيكون المراد بقيام هؤلاء الفتية عزمهم المؤكد على مفارقة كل دين ما عدا دين الاسلام ، والتبرء من كل حزب ما خلا حزب الواحد الديان ، وان كلفهم ذلك مفارقة الأهل والأوطان ، أو ازهاق الأرواح وفقدان الأبدان .

ومن المفسرين من قال : ان المراد بقيامهم هذا هو وقوفهم أمام الملك الطاغية الكافر ، واظهارهم دين الاسلام أمامه ، ومنهم من قال ان المراد هو : خروجهم واجتماعهم وراء مدينتهم على غير ميعاد ، مع عدم معرفة كل منهم عقيدة الآخر .

وارى ان الرأى الأول الذى ينص على أن المراد بالقيام هو العزم المؤكد على الولاء لله وجنده ، والتبرأ من الطاغوت وحزبه هو أرجح هذه الأقوال ، اذ بهذا العزم يستطيعون أن يقفوا بين يدى الطاغية الجبار ، غير خائفين على شىء ، ولا من شىء ، ويستطيعون أيضا أن يستصحبوا معهم ايمانهم هذا ، خارج مدينتهم ، وفى كل مكان وطئته اقدامهم وغشيتهم فيه رحمة ربهم

ثم يوضح الله تعالى ما عزموا عليه ، حيث أعلنوا ولاءهم الكامل لربهم ، وبراءهم التام من كل معبود سواه فقال : (فقالوا ربنا رب السموات والأرض ، لن ندعوا من دونه إلها) ، والسموات جمع سماء ، وتطلق على كل ما ارتفع وعلا ، مأخوذة من السمو بمعنى الارتفاع والعلو ، والأرض معروفة ، وكل ما سفل فهو أرض ، وقولهم : (ربنا

---

(١٥) سورة آل عمران آية : ٧٥ .

رب السموات والأرض) أى رب كل شىء ، لأن كل مخلوق اما أن يكون سماويا ، واما ان يكون أرضيا ، وهذا تعبير حسن لطيف منهم ، فانهم يعرفون أنهم هم وكل من وما عداهم مربوب لله تعالى ، ولذلك فهم له عابدون ومخلصون ، فهم جزء من هذا الكون المخلوق ، والكون كله مربوب له تعالى ، فلماذا يشذون ؟ وعن طاعته يعرضون ؟ ان هذا الا انتكاس بالعقول ، وعمى فى البصائر ، ونزول بكرامة الانسان الى أسفل سافلين .

وهم بقولهم هذا يعرضون بآلهة غيرهم ، حيث لا تملك لنفسها ولا لغيرها نفعا ولا ضرا . فلماذا العكوف على عبادتها ، وترك عبادة الغالب الذى لا يغلب ، والذى عنده خزائن كل خير ، ومنابع كل فضل .

وبعد أن أظهروا ولاءهم لرب السموات والأرض اردفوا ذلك باعلان براءتهم من كل معبود سواه ، فقالوا : (لن ندعوا من دونه إلها) .

والدعاء فى الأصل النداء (١٦) ، ويطلق على العبادة ، تأمل قوله تعالى : (وقال ربكم ادعونى أستجب لكم) ، ثم قال : (إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين) (١٧) ، وانما سميت العبادة دعاء لما فيها من نداء الانسان لمولاه ومناجاته اياه .

وقوله (من دونه) متعلق بمحذوف ، وقع حالا من النكرة بعده ، ولو أخر لكان صفة ، أى لن ندعوا الها كائنا من دونه تعالى .

ولم يقولوا ندعوا من دونه ربا ، كما عبروا قبل ذلك حينما قالوا ربنا رب السموات والأرض وعدلوا عن نفى ربوبية ما سواه تعالى الى نفى ألوهية هذا الغير :

---

(١٦) لسان العرب (دعا) .
(١٧) سورة غافر آية : ٦٠ .

١ ـ للاعــلام بأن سبب العبــادة وصف الألوهية ، فلأن لله الأمــر والنهي فله يكون السمع والطــاعة ٠

٢ ـ وللرد على هــؤلاء المشركين ، الذى كانــوا يعبــدون الأصــنام ، ويسمونها آلهــة ٠

٣ ـ وأيضــا فان فى الجملة الأولى اشــارة واضحة الى توحيد الربوبية ، كما أن فى الجملة الثانيــة اشــارة صريحة الى توحيد الربوبية ، والألوهية غير الربوبية ، فهم قد جمعوا بين التوحيدين ، أما عبدة الأصــنام فانهم يقــرون بتوحيد الربوبية ، ولا يعترفون بتوحيد الألوهية ، فكانوا اذا سئلوا عمن خلقهم وخلــق السموات والأرض والشمس والقمــر يقولون : الله ، واذا طلب اليهم أن يدعــوا كل هذه الأصنام التى يعبدون ، ويفــردوا الله تعــالى بالعبادة تعجبوا ، وقالوا : « أجعل الآلهة إلهــا واحدا إن هذا لشىء عجاب »(١٨) ٠

وعبر هؤلاء الفتية عن عدم اتخــاذهم آلهــة من دون الله أبد الآبدين بالاتيــان بــ (لن) حيث تفيد النفى المؤبد على قــول ، فيستغرق كل زمان ، وبالاتيــان بلفظ (إلهــا) نكرة ، والنــكرة اذا أتت بعد النفى فانها تفيد الاستغــراق والعموم أيضــا ٠

وابتدأ الفتيــة بتوحيد الربوبية ، ثم ثنوا بتوحيد الألوهية ، لأن توحيد الربوبية أول درجات التوحيد ، ألا ترى أنه هو الذى خاطب الله عنه الأرواح فى عــالم الذر ، قائلا : « ألست بربكم ؟ قــالوا بلى »(١٩) ، وأيضــا فان الله تعــالى يستحق العبادة ، سمعا وطاعة ، بنــاء على أنه رب السموات والأرض، فهو الذى يملكهما ويربى من وما فيهما ، ويتولاهم برعايته ، ويمن عليهم بفضــله وكــرمه ٠

---

(١٨) ســورة ص آية : ٥ ٠
(١٩) ســورة الأعــراف آية : ١٧٢ ٠

ثم أكد هؤلاء الفتيـة براءتهم من كل معبود سوى الله عز وجـل بقـولهم :

(**لقد قلنـا إذاً شططا**) : والشطط ـ كما يعـرفه صاحب لسـان العـرب ـ مجـاوزة القدر ، فى بيع ، أو طلب ، أو احتكام ، أو غيـر ذلك من كل شىء ، يقـال شـط عليـه فى حـكمه شططـا ، جـار فى قضيته(٢٠) . ، وأصـل هـذا من قـولهم شطت الدار ، اذا بعـدت ، فالشطط البعد عن الحق .

و (شططا) صفة لموصوف محذوف ، على أنه وصف بالمصـدر ، للمبالغـة ، ثم لم يذكـر الموصوف ، مبالغـة على مبالغـة . ، أى قلنـا هو عين الشطط .

وجوز أبو البقاء كون (شططا) مفعولا به لقلنـا .

ويجـوز أن يكون التقدير قولا ذا شطط .

ولمـا كانت العبادة تشمل أنواعا قولية ، حيث لا تخلو من الاعتراف بالوهية الله تعـالى ، والتضرع اليـه ، عبروا بالقول ، فقالوا : لقد قلنا ، فلا تنافى مع ما ذكـرنا من أن المـراد بالدعـاء فى قولهم (لن ندعـوا) العبـادة ، لانهـا أعم من أن تكون فعليـة فقط ، بل تشمـل الافعـال والاقـوال .

واللام فى (لقد) واقعـة فى جواب قسم مقدر ، و (إذاً) حرف جـواب وجـزاء ، يدل على شرط مقدر ، والتقدير : لو دعـونا من دون الله الها والله لقد قلنـا قـولا بعيدا عن الحق ، بالغـا قمة الظلم والجور .

وبعد أن ذكـر الله موقف هؤلاء الفتيـة وتصميمهم على المضى قدما فى طريق التوحيد ، والثبات عليه أبد الابدين ، اخذوا فى الانكار على قومهم ، حيث قالوا : (**هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهـة**) .

---

(٢٠) لسـان العـرب (شطط) .

و (هـؤلاء) مبتـدأ ، و (قومنـا) عطف بيـان له ، وجمـلة (اتخـذوا) خبر المبتدأ ، وهو خبر يراد منه الانكار على قومهم ، وليس مجـرد الاخبار بانهم اتخذوا آلهـة من دون الله ، لان هـذا الاتخاذ معلوم بين المتخاطبين ، ولان هذا الانكار واضح غاية الوضوح بعد هذه العبارة .

وفى الاشـارة الى قومهم ، وباسم الاشـارة القريب : تحقير لهم ، وحط من شـانهم وقدرهم .

والقـوم : جمع لا واحد له من لفظه ، وقد اختلف العلمـاء فى على من يطلق ؟ أيطلق على الرجال والنساء جميعـا ؟ أم يطلق على الرجال خاصـة ، فذهب البعض الى انه يطلق على الرجال والنسـاء جميعـا ، وذهب البعض الآخـرالى انه يطلق على الرجـال خاصـة دون النساء ، سموا بذلك لأنهم قوامون على النسـاء ، بالامـور التى ليس للنساء أن يقمن بها ، وربما يدخل النسـاء أحيانا فى معنى القـوم ولكن على سبيل التبـع ، لان قوم كل نبى رجال ونسـاء .

واستدل أصـحاب هـذا الرأى القـائل بأن لفظ القـوم يطلق على الرجال فقط بادلة من القـرآن والسنة وشعر العـرب .

فأما القـرآن فبقوله تعـالى : « لا يسـخر قـوم من قـوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ، ولا نسـاء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن »(٢١) ، اى لا يسخر رجال من رجال ، ولا نسـاء من نسـاء ، فلو كانت النسـاء من القوم لم يقـل : (ولا نسـاء من نسـاء) .

وأما السنة : فبقوله ﷺ : « إن نسـانى الشيطان من صلاتى فليسبح القـوم وليصفق النسـاء »(٢٢) .

---

(٢١) سـورة الحجرات آية :١١ .

(٢٢) أخـرجه أحمد فى مسنده : ٥٤١/٢ ، وأبو داود فى سننه ، فى كتاب النكاح ، باب (٤٩) .

وأما الشعر ، فبمثل قول زهير :

وما أدرى وسـوف أخـال أدرى

اقـوم آل حصـن أم نسـاء ؟

قال ابن الأثير : « القـوم فى الأصـل مصـدر قام ، ثم غلب على الرجال دون النسـاء ، ولذلك قابلهن به »(٢٣) ٠

ومعنى قولهم : (**اتخـذوا من دونه آلهـة**) أى نحتوها وعملوها ليعبدوها ، وتفسـير الاتخاذ بهذا المعنى لا يحتاج الا الى مفعول واحد ، وهو (آلهـة) ، ويجوز أن يفسر الاتخـاذ بالتصـيير ، فيحتـاج الى مفعولين ، أحدهما (آلهـة) ، والثـانى محذوف ، وتقديره الأصنام ، أى اتخذوا الأصنام من دون الله آلهـة ٠

ثم عجـزوا قومهم عن الاتيـان بحجة واضحة ، وبرهان قـوى على صحة عبادتهم لهذه الأصنام التى اتخذوها آلهـة من دونه تعـالى فقالوا : (**لولا يأتون عليهم بسلطان بين**) ، و (لولا) أداة تحضيض، والسلطان : الحجة والبرهان ، والتحضيض هنا غير مراد بمعنـاه الصرف ، ولكن المـراد منه التعجيز ، لأنهم يعلمون استحالة الاتيـان بهذا البرهان القوى على صحة ما أنكروه على قومهم ٠

وفى قوله : (عليهم) حذف مضاف ، أى على الوهية هذه الأصنام ، أو على صحة اتخاذهم لها آلهـة ٠

وشبيه بهذا الأسـلوب قوله تعـالى : « **قـل هـل عندكم من عـلم فتخـرجوه لنـا ، إن تتبعـون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون** »(٢٤) ، وقـوله تعـالى : « قـل أرأيتم ما تدعـون من دون الله ، أرونى مـاذا خلقـوا من الأرض أم لهم شـرك فى السموات ، ائتونى بكتـاب من قبل هـذا أو أثارة من عـلم إن كنتم صـادقين »(٢٥) ٠

---

(٢٣) انظر لسـان العرب (قـوم) ٠

(٢٤) سـورة الأنعـام : ١٤٨ ٠

(٢٥) سـورة الأحقـاف آية : ٤ ٠

ثم ذيل الله الآية الكريمة بوصف الفتية قـومهم بالكذب ، وأنهم قد بلغـوا القمـة فى الظـلم ، بحيث لا يوجد أظـلم منهم ، فقال على لسـانهم (**فمن أظلم ممن افتـرى على الله كذبا**) ٠

والظلم : وضـع الشىء فى غير موضعه ، وفى المثـل : من استرعى الذئب فقد ظلم ، وأصـل الظلم الجـور ، ومجاوزة الحد ، تقول العرب : الزم هـذا الصواب ولا تظلم عنه ، أى لا تجـر (بفتح التاء وضم الجيم) عنـه ٠

والافتراء : الاختـلاق ، والكذب : نقيض الصـدق ، يقـال : كذب يكذب كذبا بفتح ثم كسر ، وكذبا بكسر ثم سكون ، و كذابا وكذابا بكسـر الكاف وتخفيف الذال وتشديدها ٠

و (أظلم) أفعـل تفضيل ، خبر عن (من) فى (فمن أظلم) ، ولا يراد بالاستفهام هنا حقيقتـه ، وانما هو بمعنى النفى ، لأن المعنى لا أحـد أظـلم منـه ٠٠

وقد يقول قائل : ان هـذا التركيب قد تكرر فى القـرآن فى أكثر من شىء ، كقـوله تعـالى : (**ومن اظـلم ممن منـع مسـاجد الله أن يذكـر فيهـا اسمه**)(*) ، وكقوله تعـالى : « **فمن اظـلم ممن كـذب بآيات الله وصـدف عنهـا** »(**) الى غير ذلك من مثـل هـذا التركيب فى القـرآن ، فهل هناك تناقض ؟

أجاب العلمـاء عن ذلك بعدة أجـوبة ، ووجـه الى بعضها بعض الاعتراضات ، ولعـل أوجهها بالقبول ، لخلوه عن الاعتراضات : أن هذا الأسـلوب جاء على سبيل المبـالغة ، فى التهديد والزجـر ، مع قطـع النظـر عن نفى المسـاواة ، أو الزيادة فى نفس الأمـر ، وعـرف الناس فى كلامهم يؤيد ذلك ٠

(*) سـورة البقـرة آية : ١١٤ ٠
(**) سـورة الأنعـام آية : ١٥٧ ٠

وقد مال الامام الآلوسى لهـذا الرأى ، ونص على أننا لو أخـذنا به « لزال الاشـكال ، وارتفع القيـل والقال »(٣٦) .

وبعد أن أعلن جند الله ولاءهم لله وحـده ، أردفـوا ذلك باعـلان برائهم العملى من كل معبود سـواه ، حيث تعـاهدوا جميعا على اعتزال الباطل وأهـله ، فقالوا : (**وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فـأووا إلى الكهـف**) .

والاعتزال : التنحى ، يقال : اعتزل الشىء وتعزله ، أى تنحى عنه ، واجتنبـه ، والاعتـزال قد يكون بالاعتقـاد ، وقد يكون بالجسد ، وقد حدث منهم كل من الاثنين .

وأصـل العبادة فى اللغـة : الطـاعة والخضـوع ، ومنه : طريق معبد ، اذا كان مذللا ، يمكن السـير عليه بسهولة ويسر ، دون مشقة .

ولفظ (الله) : علم على الذات العليـة ، وهو اسم تفرد الله به ، فهو اسـم له خاص ، قال تعـالى : « **هـل تعـلم له سـميا** »(*) ، أى هل تعـرف أحدا يسمى الله ؟

و (ما) فى قولهم : (**وما يعبدون إلا الله**) مصدرية ، أو موصولة ، فى محـل نصب معطوفة على الضمير المنصوب فى (اعتزلتموهم) ، والمعنى : وإذ اعتزلتموهم واعتزلتم عبـادتهم الا عبـادة الله تعـالى ، أو اذ اعتزلتموهم واعتزلتم الذين يعبدون الا الله .

وعلى كل من التقديرين فى (ما) يجـوز فى الاستثناء أن يكون متصـلا ، ويجوز أن يكون منقطعا ، أما كونه متصـلا فعلى أسـاس أن القوم معترفون بوجود الله ، ولكنهم كانوا يشركون معه غيره فى العبـادة

---

(٣٦) تفسير الآلوسى : ٣٦٣/١ ، عند تفسيره لقوله تعالى : (**ومنهم أظلم ممن منـع مساجد الله**) من سـورة البقـرة .

(*) سـورة مـريم آية : ٦٥ .

كما كان حال مشركى مكة ، وأما كونه منقطعا فعلى أســاس أن القــوم محضوا عبادتهم كلها للأوثان ، ولم يعبدوا الله مطلقا .

وذهب البعض الى جواز معنى ثالث فى (ما) بالاضــافة الى كونها مصدرية أو موصولة ، حيث قالوا : يجــوز أن تكون (ما) نافية ، وتكون جمــلة (**وما يعبــدون إلا الله**) جملة اعتراضية بين (إذ) وجوابها ؛ وهى من كلام الله تعــالى لا من كلام الفتيــة ، بها يخبر الله تعــالى عن توحيــد هــؤلاء الفتيــة .

ومعنى قولهم : (**فاووا إلى الكهف**) أى اجعلوه مكانا لاقامتكم ، وماوى تاوون اليــه ، بعيدا عن الباطل وأهله .

قال الآلوسى : « والى كون (فاووا) جواب (إذ) ذهب الفــراء (كما تقول اذا فعلت كذا فافعل كذا) ، وقيــل انه دليــل الجواب ، أى واذ اعتزلتموهم اعتزالا اعتقــاديا فاعتزلوهم اعتزالا جسمانيا ، أو اذا أردتم الاعتزال الجسمانى فافعلوا ذلك ، واعترض على كلا القولين بأن (إذ) بدون (ما) لا تكون للشرط .

وفى همــع الهوامع : أن القول بأنها تكون له قول ضعيف لبعض النحاة ، أو تســامح ، لأنها بمعنــاه ، فهى هنــا تعليلية أو ظــرفية ، وتعلقها قيل بأووا محذوفا دل عليه المذكور ، لمكان الفــاء ، أو بالمذكور ، والظــرف يتوسع فيــه ما لا يتوسع فى غيــره »(٢٧) .

ثم أعلن الفتيــة هدفهم من جعــل الكهف مأوى لهم بقولهم : (**ينشر لكم ربكم من رحمتــه ويهيىء لكم من أمــركم مرفقــا**) .

فقولهم : (ينشر) جواب الأمــر (فاووا) ولهذا جــزم ، والنشر فى اللغــة : البسط ، وهو خلاف الطى ، يقال : نشــر المتــاع وغيــره ،

---

(٢٧) تفسير الآلوسى : ٢٢٠/١٥ .

أى بسطه ، وقولهم (من أمــركم) أى الذى هم عليــه من مخـالفة الأهل فى الدين ، ومفــارقتهم لهم ، واعتزالهم فى هذا الكهف ، والمرفــق : ما يستعان به فى الانتفــاع ٠

قال الجوهرى فيما ينقـله عنه صاحب لسان العرب : « والمــرفق والمرفــق أى بكسر الميم وفتح الفــاء ، أو العكس : موصــل الذراع فى العضد ، وكذلك المرفق والمرفق من الأمــر ، وهو ما ارتفقت به(٢٨) ٠

وقــرأ نافع وابن عامر ـ وعاصم فى رواية ـ (مرفقــا) بفتح الميم وكســر الفــاء ، والباقون بكسر الميم وفتح الفــاء ، قال الفــراء : همــا لغتــان ، واشتقاقهما من الارتفاق ٠

وعلى هــذا يكون معنى قــولهم : (**ينشــر ربكم من رحمتــه**) : يبسطها عليكم بسطا عظيما ويوسعها عليكم ، بحيث تعيشون فى كنفها ، فلا تفــارقكم لحظــة ما ٠

وفى تعبيرهم بلفظ النشــر ، وتعرضهم لصفة الربوبية اشــارة الى ثقتهم التــامة فى مالك أمــرهم ، وولى تربيتهم الروحية ، والبدنية ، والا فما كانوا يأوون الى مثــل هــذا الكهف الموحش المخيف ، فهم قــد تيقنوا أن الذى من عليهم بالاخراج من الظلمات الى النور ، لن يضيعهم أبدا

و (من) فى قوله (من أمــركم) لابتداء الغــاية ، فيكون معنى قولهم : (**ويهيىء لكم من أمركم مرفقا**) ، أى يصلح لكم حالكم ، ويسهل عليكم ما تخافون ، ويتفضــل عليكم بالرفق واللطف واليسر ٠

وقال ابن الأنبارى : أن (من) للبدل ، والمعنى عنده كما نقــله أبو حيان والجمل فى تفسيريهما ، ويهيىء لكم بدلا من أمركم الصعب ، مرفقــال ، قال الشــاعر :

---

(٢٨) لســان العــرب (رفق) ٠

فليت لنـا من مـاء زمـزم شـربة
مبـردة باتـت عـلى الطهيـان(٢٩)

أى بدلا من مـاء زمـزم(٣٠) .

وفى تقديم (لكم) فى قولهم (**ينشـر لكم ربكم من رحمتـه**) ، وفى قولهم : (**ويهيىء لكم من أمـركم مرفقـا**) إعلام بأن هذا المؤخر فى كل من الجملتين من مصـالحهم الخاصة بهم ، وأيضـا فان فى تقديم (لكم) تشـويقا الى ورود هـذا المؤخر .

وبذلك : ينتهى هـذا المشهد من قصـة أصحاب الكهف ، والذى قص الله علينـا فيـه ولاءهم التـام لله وحزبه ، وبراءهم الكامل من الطاغوت وجنــده .

(المعنى العـام لآيات المشهد الثـانى)

من الآية (١٣) الى الآية (١٦)

بعد أن أجمل الله تعـالى ـ فى الآيات السـابقة ـ الحديث عن قصة هؤلاء الفتيـة ، شرع فى هـذه الآيات يحدثنا عنها بالتفصيل ، وبالقدر الذى تؤخذ منه العبرة ، وتكون فيـه وبه الموعظـة ، دون استرسال فى ذكـر امـور لا صـلة لها بالهدف من وقوعها .

يبدأ الله تفاصيل هـذه القصـة منبها خلقه أنه تعـالى حينما يقصها فانمـا يقصها كما وقعت ، دون ادنى تزيد فيهـا ، أو اختـلاق أشـياء لم تقـع ، كما يفعـل القصاصون ، أصحاب الأغراض السيئة ، وأرباب الأهداف الدنيئة ، أنه القصص الحق ، لأنه من عند الحق عز وجل .

---

(٢٩) الطهيان : بفتح الطاء والهاء : خشبة يبرد عليها المـاء ، (لسان العرب : طها) .

(٣٠) البحر المحيط : ١٠٦/٦ ، ولسان العرب أيضا (طها) ، وتفسير الجمـل : ١١/٣ .

تبدأ قصـة هؤلاء الفتيـة بذكـر بعض صفاتهم (**إنهم فتيـة آمنـوا بربهم**) ، أى جمـاعة من الشبان ، قريبين من الفطرة الناصعة ، حديثى عهد بهذه الدنيـا وباطلها ، فهم أطوع للحق ، وأسلس قيـادة لربهم ، من الشيوخ الذين طال عليهم الأبد ، فقست قلوبهم ، وفسدت فطرتهم .

ولأنهم فتية ، فيهم الفطرة السليمة ، ولهم الذكاء المتقد ، فقد أتوا بالنتيجـة الطبيعية لدى كل انسـان سوى التفكير ، لقد آمنـوا بربهم ، الذى خلقهم من عدم ، وأنعم عليهم كما أنعم على كل البشـر بنعم ظاهرة وباطنـة ، بنعم لا تعد ولا تحصى ، أفلا يستحق هـذا الرب أن يعبد ، وأفلا يستحق صاحب كل هـذه النعم أن يشكر ؟ ولمـاذا لا يشـكر وفى الشكر زيادة للشـاكر ؟ ولمـاذا لا يعبد وفى العبادة تكريم وعزة للعابد ؟ وفى طاعته السيادة والريادة لمن أطـاع .

ولمـاذا يعصى وهو العـزيز الذى لا يغلب والقاهر الذى لا يقهر ؟ عـرف الفتيـة هذه الحقيقة ، فاقبلوا عليها ، واعتنقوا دين الله باخلاص ، وباعوا له الأجسـاد والارواح ، فما كان من الله الا أن زادهم هـدى على هداهم ، وألقى فى قلوبهم ايمانا على ايمانهم ، بحيث تتحرك الجبـال ولا يتـحركون عنه ، وتزول الجبال ، ولا يفـارقونه لحظة من اللحظات ، انها النعمـة العظمى من الله ، أن ينعم على عبـاده بهذا الايمان الذى به تندك الجبـال ، وتتفتت الصخور وتحطم كل القوى .

لم يكتف الله تعالى على هؤلاء الفتيـة بامدادهم بمثل هذا الايمان ، ولكنه ربط على قلوبهم عندما وجد منهم العـزم المخلص على مفارقة الكفر وأهـله ، شد على قلوبهم كما يشد على الشىء المحفوظ ، بحيث لا يتطرق اليهم خوف من أحد ، أو يوسوس لهم الشيطان بالعودة الى دين الآباء والاحبـاب ، لقد قاموا قومتهم لله ، وأعلنـوا لمن يكن الـولاء ، وممن يكون البـراء .

لقد أظهروا صراحة أن الولاء لا يكون الا لمن خلق وربى ، لا يكون الا لمن أكرم ورعى ، لا يكون الا لمن ملك هذا الكون كله ، بسماواته وأرضه ، بسهوله وجباله ، ببحوره وأنهاره ، بشموسه وأقماره ، بنجومه وأفلاكه ، ان الكون كله لله يسبح ، وله يسجد ويخضع ، فكيف يليق أن يشذ انسان عن هذا النظام ، وكيف يعرض عن طاعة ربه ثم يعيش بعد ذلك فى سلام ؟

كما أعلنوها بكل وضوح ... انهم قد تبرأوا من كل ما يعبد من دون الله ، فلا سمع ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، ان هذا الذى يقبل على طاعة غير طاعة ربه ، ومنهج غير منهج الهه يكون قد أنزل نفسه من أعلى عليين الى أسفل سافلين ، فيضل ضلالا بعيدا ، ولذلك قالوا : (**لقد قلنا إذا شططا**) ... أى لو عبدوا شيئا من دون الله تعالى فانهم يكونون قد بعدوا عن جادة الطريق ، وضلوا سواء السبيل ، وابتعدوا عن نور الله وهدايته ، الى ظلمات الكفر وضلالاته .

وبعد أن أعلن الفتية عن ايمانهم بالله واعتزازهم به تحدثوا عن قومهم وكفرهم بربهم حيث قالوا : (**هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة**)

انهم يشيرون اليهم باسم الاشارة القريب تحقيرا لشأنهم ، وحطا من قدرهم ، انهم هم الذين أهانوا أنفسهم ، ونزلوا بآدميتهم من أحسن تقويم الى أسفل سافلين ، لانهم انبتوا وانفصلوا عن مصدر النور الالهى ، واتخذوا أصناما نحتوها وعبدوها من دون الله ، ونسبوا الألوهية اليها ، ويا ليت هناك دليل أو شبه دليل على صحة معتقدهم هذا ، انهم يتحدون قومهم أن يأتوا بحجة واضحة تقنع العقل ، وتجد لدى القلب السليم قبولا ، (**لولا يأتون عليهم بسلطان بين**) ، تماما كما قال الله تعالى : « **قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا** »(٣١) ، انهم لن يستطيعوا أبد الآبدين ، لان الأدلة كلها ناطقة بوحدانية الله تعالى

وفى كل شىء له آية   تدل على أنه الواحد

(٣١) سورة الأنعام آية : ١٤٨ .

وما دام الأمر كذلك فلماذا يخلعون على هذه الأصنام صفة الألوهية ؟ ولماذا لا يعترفون بها لمن يستحقها سبحانه ، ان هذا لظلم بين ، أن تصف شيئا بما لا يستحق أن يوصف به ، وأن تسلب من شيء صفة هو جدير بها ، انه لهو الظلم الحقيقى ، لأنه وضع للشيء فى غير موضعه ، فما بالك اذا كان هذا فى جانب الله ؟ انه - حينئذ - لا ظلم أبين من هذا الظلم ، ولا اختلاق فوق هذا الاختلاق ، ولا كذب أوضح وأقبح من هذا الكذب ، **(فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا)** .

وبعد أن أعلن الفتية عن هويتهم وولائهم لله ، وبراءتهم من الكفر وأهله ، واعتزال الطاغوت وجنده ، أعلنوا أيضا أنه لابد من الاعتزال الجسمانى ، كما حدث ذلك الاعتزال القلبى ، فتواصوا آمرين بعضهم بعضا أن يلجأوا الى كهف من الكهوف فى أحد الجبال ، نعم انه كهف ضيق ، وخشن ، ولكنهم كانوا يثقون فى الله تعالى ، وفى أن هذا الكهف أوسع من الدنيا كلها ، لأنه يضم بين جوانحه ايمانا قويا بالله ، استقر فى قلوب هذه الفتية المؤمنة ، وحيث يوجد هذا الايمان تتنزل رحمات الله الخاصة ، المكنونة عنده فى عالم الإسرار ، ولا تتنزل الا على الأولياء الخلص ، والأتقياء الكمل ، فليست دار الكفر محلا لتنزل هذا النوع من الرحمة ، وليس وسط الكفر أهلا لتلقى هذا الصنف الخاص من العناية ، انهم ذهبوا الى مكان ضيق حقا ، ولكنه سيكون لهم منارة لتلقى الرحمات المتتابعة ، التى ستنشر لهم نشرا ، وتبسط لهم بسطا ، ويهيأ لهم من الأمور الميسرة من عند بارئهم ما يزيل عنهم الخوف على ايمانهم ، والخوف على حسن خاتمتهم ، **(فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيىء لكم من أمركم مرفقا)** ... وحينما ظنوا فى الله هذا الظن الحسن ، كان الله عند ظنهم ، فشملتهم رحمته وهيأ لهم من أمرهم مرفقا .

أما عن كيف كان ذلك ، فذلك ما ستشاهده فى المشهد التالى ان شاء الله تعالى ، بعد الحديث عن العبر التى تؤخذ من آيات هذا المشهد .

(العبر المستفادة)

تستوقفنا آيات هذا المشهد أمام عدة أمور ، نشير الى بعضها فى هذا المقام :

أولا : بدأ الله تفصيل هذه القصة بقوله تعالى : (**نحن نقص عليك نبأهم الحق**) ، وهذا يدل على أن القاص لابد وأن يلتزم الصدق فيما يقص ،وأن يكون هدفه نبيلا ، كما قال تعالى فى سورة يوسف : (**لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب**) ، وفى هذا تحذير لأصحاب الأقلام الذين يسخرون ما يكتبون لاشاعة الفسق والفجور بين شباب الأمة ، وضياع الأوقات فيما لا يفيد ، بل فيما يضر بمصلحة الأمة نفسها ، وهذا هو واقع المسلمين يحدث باثر هذا القصص الخليع ، فى تدمير الأسر ، ونزع الأمن من البلاد ، وشيوع الزنا والفساد ، واختلاط الانساب ، ان الواجب على هؤلاء الكتاب نشر الفضيلة بين أفراد المجتمع ، ومحاربة الرذيلة ، والوصول بالمجتمع الى مكانة الريادة كما كانت أمة الاسلام ، حينما عاشت بالاسلام وللاسلام .

ثانيا : يشير الى قوله تعالى : (**إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى**) ، الى ضرورة الاعتناء بالشباب ، فهم عصب الانتاج ، فى الحاضر ، وزعماء الأمة فى المستقبل ، واذ علمنا أن الشباب لا يزال حديث عهد بفطرة الله التى فطر الناس عليها ، وأنهم أطوع لقبول الحق ، وأسلس انقيادا لقادة الخير ، سهل على أولى الأمر الأخذ بأيديهم الى ما فيه سعادة الأمة كلها ، اننا نرى فى كثير من الأقطار الاسلامية اقحام الشباب فى مجالات تبعده عن دينه ، ومن شأنها أن

تؤثر فى ولائه لله والمسلمين ، بل فى مصلحة بلده ، لأنه يعيش مجهول الهوية ، لا يفرق بين الاسلام وغير الاسلام ، لا يدرى ماذا يطلبه منه اسلامه ، وعن أى شىء ينهاه ، وبدلا من أن يربيه أولو الأمر على الرجولة والخشونة ، والغيرة على الأرض والعرض وسائر الحرمات ، أذا بهم يربونه على الخلاعة والميوعة وحب الغناء والرقص والموسيقى ، بحجة سماحة الاسلام ، وبادعاء أن هذا ثقافة وفن ولهو برىء ، واذا كان لدى الشباب بعض الطاقة التى سلمت من المخدرات والمسكرات فليصرفها فى الانهماك المستمر الذى لاينقطع فى مجال ما يسمى بالرياضة ، نعم ان الرياضة فى ذاتها شىء طيب ، ولكن أن تسخر لصرف الناس عن دين الله فهذا هو الباطل بعينه ، اننا لو استعرضنا مجالى الرياضة والفن بالصورة الحالية ، وتاثيرهما السىء على الشباب ومصلحة البلاد لطال بنا المقام ، ولاحتاج ذلك الى مؤلفات خاصة ، ولكن يكفى هنا أن نقدم النصح الخالص لأولى الأمر فى تلك الأقطار الاسلامية ، التى غيبت فريضة الجهاد ، وتركت أراضى المسلمين وأعراضهم لأعداء الله يستبيحونها وينتهكونها أن يعودوا الى ربهم وأن يهتموا بشباب أمتهم ، فهم أمانة فى أعناقهم ، واذا كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأرضاه قد اقسم بان الله سيسأله لو أن بغلة عثرت فى العراق لم لم تمهد لها الطريق يا ابن الخطاب ، فان هذه البغلة لن يكون أمرها أشد خطرا من أمر ملايين الشباب المسلم ، الذى لم يتعثر فقط فى مسألة من مسائل دينه ، بل أصبح لا يعرف من الدين شيئا بالكلية ، الا النذر القليل من الشباب ، وهذا النذر القليل لم تترك له الحرية الكاملة فى اعتناق دينه ونشره بين عامة الناس .

ثالثا : يشير قوله تعالى (آمنوا بربهم وزدناهم هدى) الى أمرين :

الأمر الاول : أن الانسان اذا وضع قدمه على الطريق الصحيح

فسوف يجد المعونة الكاملة من الله عز وجل للوصول الى الهدف الأسمى ، والمكانة المرجوة ، كما قال تعالى فى الحديث القدسى : « **وإن تقرب إلى بشبر تقربت إليه ذراعا ، وإن تقرب إلى ذراعا تقربت اليه باعا ، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة** »(٣٢) ، وكما قال فى حديث قدسى آخر : « **يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدونى أهدكم** »(٣٣) ، أى اطلبوا منى الهداية أوفقكم اليها ، وأعينكم عليها .

الأمر الثانى : أن الايمان قابل للزيادة ، بدليل أن الله تعالى زاد الفتية هدى على هداهم ، وهو شامل لكل أنواع الهدى ، من الايمان والأعمال الصالحة ، وبدليل ما جاء فى آيات أخرى ، مثل قوله تعالى : « **وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا** »(٣٤) ، وقوله تعالى : « **الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا** »(٣٥) وقوله تعالى : « **وإذا ما انزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا ؟ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون** »(٣٦) ، وقوله تعالى : « **هو الذى انزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم** »(٣٧) .

وهذا هو مذهب جمهور المسلمين ، وهو - فى نظرى - المذهب الحق ، أن الايمان يزيد وينقص ، بل ان العقل ليقضى بصحة هذا المذهب ، والا لكان ايمان آحاد الأمة - بل المنغمسين فى الفجور والفسق والعصيان - مساويا لايمان الملائكة والأنبياء ، ولا يقول بهذا انسان

---

(٣٢) أخرجه البخارى فى كتاب التوحيد ، باب (ويحذركم الله نفسه) ، ومسلم فى كتاب التوبة ، باب الحض على التوبة ، وغيرهما .

(٣٣) أخرجه مسلم فى كتاب البر ، باب تحريم الظلم ، وابن ماجة فى كتاب الزهد ، باب ذكر التوبة ، وغيرهما .

(٣٤) الأنفال آية : ٢ .

(٣٥) آل عمران آية : ١٧٣ .

(٣٦) التوبة آية : ١٢٤ .

(٣٧) الفتح آية : ٤ .

سـوى التفكير ، بل ان الانسـان منا ليشعر فى بعض الأحيان ـ نتيجـة لظهور كثير من الأدلة الايمانية أمـامه ـ أن قلبـه قد امتـلأ يقينـا أكثر من ذى قبـل ، وهـذا اليقين نفسـه مراتب ، فهو : أولا : علم اليقين ، ثم ثانيا : حق اليقين ، ثم ثالثـا : عين اليقين ، ولنـا فى قصـة ابراهيم الخليـل والطير ما يؤيد ذلك .

وذهب البعض كالامام أبى حنيفة الى أن الايمان لايزيد ولاينقص ، لأن الايمان يطلـق على التصديق البـالغ حد الجـزم ، وأنه متى قبـل النقصـان ، انتفى الايمان من صاحبه ، وأصبح موصوفا بالكفـر ، وأجاب أصـحاب هـذا الراى على رأى الجمهـور وادلتهم بأن المـراد من زيادة الايمان الثبـات والاستمرار .

ولكننا نميل الى ما ذهب اليه الجمهور لمـا قدمنا من أدلة تسـاند رأيهم ، ولمـا قلنا ان هـذا اليقـين البـالغ حد الجـزم هو فى نفسـه يتفاوت ، من مرتبـة علم اليقـين ، الى مرتبـة حق اليقين ، الى مرتبة عين اليقـين ، فالايمـان يزيد وينقص فى هـذه المـراتب وليس خارجا عن دائرتهـا .

رابعـا : تشير آيات هذا المشهد الى أن الذى جمع هؤلاء الفتية هو الايمان بالواحد الأحد ، وهـذا يعنى أهمية اختيـار الصحبة التى يرافقها الانسـان فى اى عمـل من الاعمال فى هـذه الحيـاة ، وأن يكون هـذا الاختيار قائما على الايمان بالله ، وعلى المحبة فيـه ، وليس على هدف دنيـوى زائل ، أو متـاع من متـاع الدنيا زائف ، والا لانقلبت الصحبة بعد ذلك الى عداوة ، وانقلب الأخلاء الى أعداء ، يتحاربون ويتقاتلون .

قال ﷺ : « الارواح جنود مجنـدة ، فما تعـارف منهـا ائتلف ، وما تناكر منهـا اختلف » (٣٨) .

---

(٣٨) اخرجه البخارى فى كتاب الانبياء ، باب الارواح جنود مجندة ، ومسلم فى كتاب البر ، باب الأرواح جنود مجندة .

وذلك لأن صحبة الأشرار لا تجـر الا الخـزى والندامة ، والاحـلال فى دار البوار ، أما صحبة الأخيار ففيها البركات من الله تعـالى تعم ، وعليها الرحمات منه تتنزل ، وبسببها تكون النجـاة من النـار ، والفوز بجنـة عرضها السموات والأرض ·

قال القرطبى معلقا على صحبة كلب أهل الكهف لهم :

« اذا كان بعض الكلاب قد نال هـذه الدرجة العليـا بصحبتـه ، ومخالطته الصلحاء والأولياء ، حتى أخبر الله تعـالى بذلك فى كتابه جل وعـلا ، فما ظنـك بالمؤمنين الموحدين ، المخالطين ، المحبين للأوليـاء والصـالحين ؟ ، بل فى هـذا تسلية وأنس للمؤمنين المقصرين عن درجات الكمال ، المحبين للنبى ﷺ ، وآله خير آل » ، وعن أنس بن مالك قال : « بينما أنا ورسول الله ﷺ خارجان من المسجد فلقينـا رجل عند سـدة المسجد(٣٩) ، فقال يا رسول الله : متى السـاعة ؟ قال رسول الله ﷺ : ما أعددت لهـا ؟ قال : فكان الرجـل استكان ، ثم قال : يا رسول الله : ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام ولا صـدقة ، ولكنى أحب الله ورسوله ، قال : فأنت مع من أحببت » وفى رواية قال أنس بن مالك : فما فرحنا بعد الاسـلام فرحا أشد من قول النبى ﷺ : « فأنت مع من أحببت » ، قال أنس : فأنا أحب الله ورسوله وأبا بكر وعمـر ، فأرجو أن أكون معهم ، وان لم أعمـل بأعمـالهم(٤٠) ·

خامسـا : يشـير قوله تعالى (**وربطنـا على قلوبهم**) الى أهمية القلب فى الانسـان ، وأنه اذا صلح صلح الجسـد كله ، واذا فسد فسـد الجسد كله ، كما جاء فى الحديث ، فهو بالنسبة للجسد كالامام بالنسبة

---

(٣٩) أى : ما حـوله ·

(٤٠) الحديث أخرجه البخارى فى كتاب فضـائل الصحابة ، باب مناقب عمـر بن الخطاب ·

لقـومه ، وكالرجل بالنسبة لبيته ، وكما قال القائل :

إذا كان رب البيت بالدف ضــاربا

فشـيمة أهـل البيت كلهم الـرقص

وهــذا لا يعنى ان القلب لا يتأثر بعمــل الجوارح ، كلا ٠٠ كلا ٠٠ ، بل ان القلب ـ بحكم قيــادته للجوارح ـ يؤثر فيهــا ، ورغم هذه القيادة الا أنه يتأثر بها ، قال ﷺ : « ان المؤمن اذا أذنب ، كانت نكتة ســوداء فى قلبه ، فان تاب ونزع واستغفــر ، صــقل قلبــه ، فان زاد زادت ، **ما كانوا يكســبون** »(٤١) ٠

سادســا : يشـير قوله تعالى على لســان الفتيــة : « **هــؤلاء قومنــا قومنا اتخــذوا من دونه آلهــة لولا يأتون عليهم بسلطان مبــين**) ، الى فســاد التقليد ، حيث اتخــذ قــوم الفتيــة هــذه الالهــة تقليــدا للآباء والملوك ، ولم يستندوا فى ذلك الى برهان واضح ، ودليــل صريح ٠

ان التقليد للآباء والاجداد ، والرؤساء والزعماء ما هو الا مظهــر من مظاهر انتكاس العقــل البشرى ، ذلك أن المقلد يلغى عقــله ليجعل الآخــرين يفكــرون له ، ويغلق عينيــه ليجعلهم يبصرون له ، ويصم أذنيه ليجعلهم يســمعون له ، ويربط قــدميه ليجعلهم يســيرون به الى حيث يريدون ، ويكبل يديه فى انتظار اشــارة منهم الى البطش بمن يريدون ، وبمعــنى أدق : انه يتنــازل عن أخص خصــائص الانســانية ، الا وهى الحرية الشخصية فى التفكير والاعتقاد والتوجيه ، والتقليد يعنى عجــز المقلد وضعفه ، والله تعــالى لا يريد من أحد أن يكون ضعيفا ، لأن الضعف يعنى الذل ، والله يريد للنــاس أن يكونوا ســادة أعزة ، لا عبيد أذلة ٠

---

(٤١) أخرجه أحمد فى مسنده : ٢٩٧/٢ ، وابن ماجة فى سننه ، فى كتاب الزهد ، باب ذكــر الذنوب ، والترمذى فى سننه فى كتاب التفسير ، فى سورة المطففين ، الآية ١٤ ٠

لقد نعى القــرآن فى كثير من آياته على النــاس هــذا التقليــد ، بل ان التقليد فى اعتنــاق العقيدة الاســلامية ذاتها مذموم ، لكثرة الأدلة التى تفوق الاحصــاء على أحقية هــذا الدين على غيره ، لذلك كان من أهم شروط صحــة الايمان أن يكون قائما على أســاس من اليقــين الذى لا ارتياب فيــه ، والفكر الحــر ، الذى لا تقليد فيــه ، أو اكــراه عليه ، والا فصاحب هــذا الايمان على شفا جــرف هار ، قال صاحب الجوهرة :

فــكل مــن قــلد فى التوحيــد

ايمــانه لــم يخــل مــن ترديد

ان المقلد بتقليده هذا لا يحترم عقله ، ولا يحترم ذاته وآدميته .

ســابعا : يشــير قوله تعالى على لســان الفتية : **(وإذا اعتزلتموهم وما يعبــدون إلا الله فاووا إلى الكهف ينشــر لكم ربكم من رحمتــه ويهيئ لــكم من أمــركم مرفقــا)** . الى ما يفعــله الايمان اذا استقر فى قلب انســان ، انه يهــون عليه كل شئ فى هــذه الحيــاة ، من أجــل بقــاء هــذا الايمان فى قلبه ، ليهديه السبيل ، وينــير له الطــريق ، وليبــدد من أمامه وحوله غبش الظلم والظلمات ، والاوهام والجهالات .

ان الانســان لا يشعر بالأمن والأمــان الا اذا كان من اهــل الايمان . قال تعــالى : **« الذين آمنــوا ولم يلبســوا إيمــانهم بظــلم أولئــك لهم الأمــن وهم مهتــدون »** (٤٢) .

فى سنة ١٩٧٥ م أنعم الله على بالمركز الأول على مستوى الجمهورية فى الثانوية الأزهــرية ، ودعيت وقتها مع بقيــة الأوائل من قبــل زوجة رئيس بلد اســلامى لتكريمنا ، ويومها هالنــا هــذا الحشــد الهــائل من الحراسة حول وداخــل بيت هــذا الرئيس ، حتى أن الداخل للتكــريم ربما يندم على دخوله هذا القصــر ، لمــا يشعر به من رعب ، يســود جو

---

(٤٢) الأنعــام : ٨٢ .

المكان كله ، وبعد هذه الزيارة بمدة قصيرة شاهدت هـذا الرئيس على شـاشة التليفزيون يتحدث ويقول : ان المسدس الخاص بى لا يفـارقنى حتى فى دورة الميـاه ، ساعتها قلت كيف يجـرؤ مخلوق على الوقوف لحظة واحدة أمام باب هـذا القصر ، وليس على التسلل الى دورة مياه هـذا الرئيس ؟ ، ولكنى حينما عدت بذهنى الى قوله تعـالى : **« الذين آمنـوا ولم يلبسـوا إيمـانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون »(٤٢)** زال عنى هـذا العجب !! ، لأن الايمان متى خالطت بشاشته القـلوب ، وسرى فى الأعضـاء كما تسـير الدماء ، عاش الانسان آمنـا ، غير خائف على عمـره أو رزقه ، بل انه يخوض المخـاوف بهذا الايمـان ، ولهـذا الايمان ، طمعا فى أن يبسط الله له وعليـه رحمتـه ، وييسر له أمـره ، حتى لو أداه ذلك الى هجـر الدنيـا كلها بسعتها ، واللجـوء الى كهف ضيق خشن موحش ، لأنه فى هـذا الكهف سيشعر بأنه أوسع من الكون كله وأفضـل ، ما دامت تتغشـاه رحمـات الله ، وتتنزل عليـه بركاته ، وما دام الله ميسـرا له أمـره ، رابطـا له على قلبـه .

* * *

المشهــد الثـالث

(الفتيــة داخـل الكهف)

قال تعـالى : « وتــرى الشمس إذا طلعت تــزاور عن كهفهم ذات اليمــين وإذا غــربت تقــرضهم ذات الشــمال وهم فى فجــوة منــه ، ذلك من آيات الله ، من يهد الله فهو المهتــد ، ومن يضــلل فلن تجــد له وليــا مرشــدا (١٧) وتحسبهم أيقــاظا وهم رقود ، ونقلبهم ذات اليمين وذات الشــمال ، وكلبهم باســط ذراعيــه بالوصيد ، لو اطلعت عليهم لــوليت منهم فــرارا ولملئت منهم رعبــا (١٨) وكذلك بعثناهم ليتســاءلوا بينهم ، قال قــائل منهم كم لبثتم قــالوا لبثنــا يومــا أو بعض يوم ، قــالوا ربكم اعــلم بما لبثتم ، فابعثــوا احــدكم بورقــكم هــذه إلى المدينــة ، فلينظر أيهــا أزكى طعــاما فليــاتكم برزق منــه وليتلطف ، ولا يشــعرن بكم احــدا (١٩) إنهم إن يظهــروا عليــكم يرجمــوكم أو يعيــدوكم فى ملتهم ولن تفلحــوا إذاً أبدا (٢٠) ... » .

معــانى المفــردات وأسرار التراكيب

مناسبة الآيات لمــا قبلهــا :

بعد أن قص الله علينــا ما حدث لهؤلاء الفتيــة من ولاء لله وبراء من البــاطل ، وتعاهدهم على اعتزال قــومهم جسديا ، كما اعتزلوهم قلبيا ، وأجمعوا أمــرهم على أن يكون مأواهم كهفــا من الكهوف فى أحد الجبال الموحشــة ، شرع فى هــذه الآيات يبين لنــا أن الفتيــة قد نفذوا ما عليــه عــزموا وأجمعوا ، فلجأوا الى هــذا الكهف لينشر عليهم ربهم من رحمته ويهيىء لهم من أمــرهم مرفقــا ، كما طلبوا ذلك ، فما كان من يد القدرة الالهية الا أن تولتهم بالعناية ، وحدث لهم من آيات الله ما حدث ، فقال تعــالى : (وترى الشمس ...) الخ الآيات ، والكلام جاء على ســبيل الايجاز ، فهناك عدة جمل محذوفة ، دل عليها السياق ، والتقدير فاووا الى الكهف فانامهم الله ، وتكرم عليهم بأشياء كثيرة .

والخطاب فى قوله تعـالى : (وترى الشمس ... الخ) لكل من يصلح له الخطاب ، وليس المـراد الاخبار بوقوع الرؤية ، ولكن المـراد الاخبار بان هـذا الكهف لو رآه المخاطب لرآه على هـذه الحـالة التى ذكـرها الله تعالى ، وقـوله (إذا) ظـرف لترى ، أو لتزاور ، وكـذا (إذا) فى (إذا غربت) ، معمول للأول أو للثـانى ، وهو تقرضهم ، والظاهر تمحضه للظرفية ، ويجوز أن تكون شرطية (١) .

وقوله تعـالى (تزاور) فعـل مضـارع مشتق من الزور بفتح الزاى والواو ، وهو الميـل ، يقال عنق أزور اذا كان مائلا ، ويقـال تزاور عن الشىء ، بمعنى عدل عنـه وانحـرف ، ومنه شهادة الزور ، لمـا فيهـا من الميل عن الحق الى الباطل ، وفلان زار فـلانا ، لأنه يميل اليه .

ومنه قوله عنترة :

فـازور من وقـع القنـا بلبـانه
وشـكا إلى بعبـرة وتحمحـم(٢)

وقد قـرىء هـذا اللفظ بثلاث قـراءات متواترة عن رسول الله ﷺ ، فقد قـرأ عاصم وحمـزة والكسائى : (تزاور) ، بتخفيف الزاى ، وبألف بعـدها ، وقـرأ ابن عامر (تزور) ، بسكون الزاى ، وتشديد الراء ، مثـل تحمر ، وقـرأ نافع وابن كثير وأبو عمـرو بتشديد الزاى ، وبألف بعـدها ، والكل بمعنى واحد .

واصـل (تزاور) تتزاور ، فحذفت احدى التـاءين تخفيفا .

والتعبير بهذا الفعـل المضـارع يفيد حدوث ذلك الفعـل من الشمس كل يوم ، وتكـراره .

وقـوله (عن كهفهم) أى الكهف الذى أووا اليه ، فالاضـافة لأدنى ملابسـة .

---

(١) تفسير الجمل : ١١/٣ .
(٢) يصف فرسه بانه مال من وقوع الرماح بصدره ، وشكا اليه بالعبرة ، والعبرة : البكاء ، والحمحمة صوت الصهيل يشبه الحنين .

وقـوله (ذات اليمين) أى جهـة اليمين ، قال الرازى : « واصـله أن (ذات) صفة أقيمت مقـام الموصوف ، والتقدير كأنه قيـل : تزاور عن كهفهم جهـة ذات اليمـين »(٣) ، وحقيقة (ذات اليمين) أى الجهة المسـماة باليمـين .

والتعـريف فى لفظتى (اليمين ، والشمال) هنا عوض عن المضاف اليـه ، أى يمين الداخل الى الكهف ، وشماله .

وقـوله تعـالى (تقرضهم) مشتق من القـرض ، وهو القطـع ، ويستعمل فى معنى العدول عن الشئ ، وتركه ، وتجـاوزه ، قال ابن منظـور : قرض فى سـيره يقرض قرضـا عدل يمنة ويسرة ، ومنه قوله تعـالى : (**وإذا غـربت تقـرضهم ذات الشمال**) ، قـال أبو عبيـدة : أى تخلفهم شمالا وتجاوزهم، وتقطعهم وتتركهم عن شمالها، ويقال قرض المكان اذا عدل عنه ، قال ذو الرمـة :

إلى ظعـن يقـرضن اقـواز مشـرف

شـمالا ، وعن أيمـانهم الفـوارس

والظعن جمع ظعينة ، وهى المـرأة فى الهودج ، ومشرف والفوارس موضعان ، يقول : نظـرت الى ظعن يجزن بين هذين الموضعين .

وعلى هـذا يكون معنى قـوله تعالى : (**وإذا غـربت تقـرضهم ذات الشـمال**) أن الشمس فى وقت غـروبها تتركهم ذاهبة الى جهة الشمال ، أى شمال الداخل الى الكهف .

وعلى هـذا فان الشمس طول النهار لا يصـل اليهم شئ من حرها ، صباحا أو مسـاء ، وذلك من رحمـة الله عليهم ، حتى لا تفسـد أجسادهم أو تبـلى ثيـابهم .

---

(٣) الفخر الرازى : ٩٩/٢١ .

وقوله تعـالى : (**وهم فى فجـوة منـه**) جملة حالية ، والفجوة : المتسع بين الشيئين ، فهم فى مكان متسع داخل الكهف .

والفجوة فى المـكان فتح فيـه ، ومنه انفجى القـوم عن فـلان : انفرجوا عنه وانكشفوا ، وجمع فجوة : فجوات ، وفجاء ، بكسر الفـاء الأخـيرة .

فهؤلاء الفتيـة أنعم الله عليهم برحمتـه ، بحيث حجب عنهم أشعة الشمس طوال النهار ، فلا تصيبهم فى شروقها ، ولا فى غروبها ، مع أن المكان واسـع لا تحجب الشمس من دخـوله ، بل ان هـذا الاتساع كان رحمة لهم ، فنالهم منـه برد النسيم وروح الهـواء .

وللمفسرين عليهم رحمة الله فى بيان السبب الذى من أجله لم تدخل الشمس هذا الكهف قـولان :

١ ـ **القـول الأول** : ان هـذا الكهف خلقه الله تعالى على هيئـة بحيث لا تصـل الشمس اليـه أبدا لأن بابه كان جهـة الشـمال ، فلذلك لا تصـله الشمس اذا طلعت أو غربت .

٢ ـ **القول الثـانى** : أن الكهف كان مهيأ لأن تدخله الشمس وقتى الشروق والغروب، ولكن الله تعالى بقدرته القادرة حجب أشعتها من الدخول فيه ، وذلك كرامة لهـؤلاء الفتيـة الذين فـروا بدينهم الى ربهم وسالوه أن ينشر عليهم من رحمته فى هذا الكهف الموحش .

وانا أميـل الى الرأى الثـانى ، لأن القصـة من خوارق العادات ، ومن غير المألوفات والا فما كان هناك فائدة من ذكر هذا لو أن الشمس لم تدخل الكهف لمجرد كون بابه ناحية الشمال ، وأيضا فان الله تعالى اعتبر عدم دخـول الشمس على الفتيـة آية من آيات الله العظيمة ، فقال : بعد ذلك مباشرة (**ذلك من آيات الله**) ، فاخذنا بالرأى الثـانى يتناسب مع

كون ذلك آية من آيات الله ، أكثر من أخذنا بالرأى الأول الذى يفيد أن مجرد عثور الفتية على كهف لا تدخله الشمس آية من آيات الله .

ويرجح الشوكانى ما اخترناه بقوله : « فان صرف الشمس عنهم مع توجه الفجوة الى مكان تصل اليه عادة أنسب بمعنى كونها آية ، ويؤيدها أيضا اطلاق الفجوة وعدم تقييدها بكونها الى جهة كذا »(٤) .

واسم الاشارة فى قوله تعالى : (**ذلك من آيات الله**) : للتعظيم ، وهو يعود عند بعض المفسرين الى هداية الفتية للتوحيد ، ومخالفتهم قومهم ، وآباءهم ، وعدم الاكتراث بهم وبملكهم مع حداثتهم وايوائهم الى كهف شأنه هذا .

وهذا المعنى ـ كما هو واضح ـ مبنى على الرأى الأول الذى ينص على عدم دخول الشمس فى الكهف لأسباب طبيعية ، وهى كون الكهف بهذه الصفة التى لا تتمكن الشمس بسببها من الدخول فيه ، وبهذا الرأى أعجب الامام الآلوسى واليه مال ، حيث قال عنه رحمه الله : « ولا يخلو عن حسن ، واليه أميل »(٥) .

وبعضهم قال ان اسم الاشارة يعود على عدم دخول الشمس فى الكهف لا بسبب طبيعى ، بل بسبب غير طبيعى ، وهو حجب الله أشعتها .
كما قال تعالى : (**وهم فى فجوة منه**) ، وهذا القول ـ كما هو واضح ـ مبنى على الرأى الثانى الذى ينص على أن الشمس لم تدخل الكهف لا بسبب طبيعى ، بل بسبب غير طبيعى ، وهو حجب الله أشعتها .

ولذلك فانى أميل الى كون اسم الاشارة هذا يعود على عدم دخول الشمس هذا الكهف ، كما ملت الى الرأى الثانى ، فهذا ترتيب طبيعى .

والمراد بآيات الله هنا : أدلة قدرته تعالى ، على تسخير هذا الكون

---

(٤) فتح القدير : ٣/٢٧٥ .
(٥) تفسير الآلوسى : ١٥/٢٢٣ .

كما يريد ، وأدلة عنــايته بأحبــابه وأوليائه ، الذين اتخذوه وحده وليــا لهم ، فتولى أمرهم وأصلح شأنهم ، وحفظهم بقدرته ، وغشيهم برحمته ، فما أعظمها من آيات ، وما أكـرمه من اله قــادر ، رحيم .

ثم ختم الله تعــالى هذه الآية بقوله : (**من يهــد الله فهو المهتــد ، ومن يضــلل فلن تجــد له وليــا مرشــدا**) .

والمــراد بالهداية هنــا : تعـريف النــاس أسباب السعادة وطــرق الخير والفــلاح ، ومن أسمائه تعالى (الهــادى) ، أى الذى بصر خلقه بطريق معــرفته ، حتى اقــروا بربوبيته والوهيته ، وعــرف كل مخلوق أسباب العــز والفــوز ، فى الدنيــا والآخــرة .. ، ومنه قوله تعــالى : « **وهــدوا إلى الطيب من القــول وهــدوا إلى صراط الحميــد** »(٦) .

فالمهتدى على هــذا : هو من وفقه الله تعــالى للفــوز بالسعادة فى الدنيــا ، والنجاة فى الآخــرة .

أما الاضــلال فهو ضــد الهــداية والارشــاد ، قال لبيــد الشــاعر فى جــاهليته :

من هــداه سـبل الخــير اهتــدى
ناعــم البــال ، ومن شــاء أضــل

قال أبو منصــور : « والأصــل فى كلام العرب وجه آخــر ، يقــال : أضللت الشىء اذا غيبته ـ وأضللت الميت دفنته »(٧) ، أما الولى المرشد : فهو الذى يتــولى للحيران تبيين وجــه الرشــاد والحق ، حتى يظفــر بمطلوبه من الخــير والسعادة .

ونفى وجــود هــذا الولى المرشد لهذا الضــال بأداة النفى (لن)

---

(٦) الحــج آية : ٢٤ .
(٧) لسان العرب (ضلل) .

التى تفيد التأبيد عند البعض يدل على استحالة وجود ذلك الولى المرشد ، مهما فعل الوعاظ ، ومهما اجتهد المصلحون ·

وهذه العبارة وأمثالها - أعنى عبارة من يهد الله ··· الخ - يفسرها أهل السنة بقولهم : يخلق الله الهداية فيمن يشاء هدايته لاستعداد صاحبها لتقبل ذلك ، ويخلق الضلال فيمن يشاء اضلاله لوجود الأسباب المؤدية اليه فيه ، وتوافرها فى قلبه ، واستيلائها على جوارحه ، حتى فسدت فطرته ، وساءت طويته ، واستحب العمى على الهدى ، وآثر الدنيا على الآخرة ·

أما المعتزلة فيقولون : ان المراد بالهداية التوفيق واللطف ، والمراد بالاضلال التخلية ومنع الألطاف ·

أما المراد بتذيل الآية الكريمة بهذا التذييل فهو :

١ - الثناء على فتية أهل الكهف ، وذلك أنهم لما أجمعوا أمرهم على اعتزال قومهم جسديا ، كما اعتزلوهم عقديا ، رجوا من الله تعالى أن ينشر لهم من رحمته ، وأن يسهل لهم أمرهم ، فكان الله عند ظنهم ، فأجاب لهم ما طلبوا ، ونجاهم مما منه هربوا وأثنى عليهم باخباره أن قد حق لهم ما أملوا ·

٢ - وللتنبيه أيضا على أن الله تعالى فى كونه الكثير من هذه الآيات الدالة على قدرته تعالى ، وعلى عنايته بأوليائه وأحبابه ، ولكن لا ينتفع بها الا من أراد الله له الهداية ووفقه للعبرة والاتعاظ ، والسير على منهجه تعالى ، وفى هذا أيضا ثناء على هؤلاء الفتية ، لأنهم من جملة من هداهم الله ، واعتبروا بما فى كونه من آيات بينات وسنن كونية ، لا تتخلف ولا تتبدل ·

يتبقى لنا فى هذه الآية نقطة أخيرة ، تتعلق برسم كلمة (فهو المهتد) ·

فاننا نراها فى بعض الأحيان كما هنا محذوفة الياء ، وعن سبب ذلك يقول الطاهر بن عاشور وهو يفسر أواخر سورة الاسراء :

« وحذفت ياء (المهتدى) فى رسم المصحف لأنهم وقفوا عليها بدون ياء على لغة من يقف على الاسم المنقوص ، غير المنون بحذف الياء ، وهى لغة فصيحة غير جارية على القياس ، ولكنها أوثرت من جهة التخفيف ، لثقل صيغة اسم الفاعل ، مع ثقل حرف العلة فى آخر الكلمة ، ورسمت بدون ياء لأن شأن أواخر الكلم أن ترسم بمراعاة حال الوقف ، وأما فى حال النطق فى الوصل : فقرأها نافع وأبو عمرو باثبات الياء فى الوصل ، وهو الوجه ، ولذلك كتبوا الياء فى مصاحفهم باللون الأحمر ، وجعلوها أدق من بقية الحروف المرسومة فى المصحف ، تفرقة بينها وبين ما رسمه الصحابة كتاب المصحف .

والباقون حذفوا الياء فى النطق فى الوصل ، اجراء للوصل مجرى الوقف ، وذلك وان كان نادرا فى غير الشعر الا أن الفصحاء يجرون الفواصل مجرى القوافى ، واعتبروا الفاصلة كل جملة تم بها الكلام ، كما دل عليه تمثيل سيبويه فى كتابه : (الفاصلة) ، بقوله تعالى : « **والليل إذا يسر** »(٨) ، وقوله تعالى : « **قال ذلك ما كنا نبغ** »(٩) .

وعن حذف هذه الياء فى (فهو المهتد) قال الجمل فى تفسيره : انها كتبت بدون ياء : «لأنها من ياءات الزوائد ، وهى لا تثبت فى الرسم ، أما فى النطق فعند الوقف تحذف عند الجميع ، وعند الوصل بعض السبعة يحذفها ، وبعضهم يثبتها »(١٠) .

ثم تستطرد آيات القصة لتحكى لنا ما جرى لهؤلاء انفتية داخل الكهف من رحمة الله بهم وزيادة كرمه لهم فتقول : (**وتحسبهم ايقاظا**

---

(٨) الفجر آية : ٤ .
(٩) الكهف آية : ٦٤ .
(١٠) تفسير الجمل : ١٢/٣ .

وهم رقود ، ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال ، وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد) .

والخطاب فى قوله تعالى : (وتحسبهم) لكل من يصلح له الخطاب ، كما فى قوله تعالى (وترى الشمس) والحسبان : الظن ، و (أيقاظا) جمع يقظ ، واليقظة نقيض النوم ، والصفة للذكر يقظان ، وللأنثى : يقظى : قال ابن برى ، جمع يقظ أيقاظ ، وجمع يقظان يقاظ ، بكسر الياء ، وجمع يقظى صفة المرأة يقاظى ، ويقال يقظ فلان ييقظ يقظا ويقظة بفتح القاف فى المصدرين .

وقوله : (وهم رقود) أى نائمون ، قال الرازى : « وهو مصدر مسمى به الفاعل ، كما يقال قوم ركوع ، وقعود ، وسجود ، يوصف الجمع بالمصدر ، ومن قال انه جمع راقد فقد أبعد ، لأنه لم يجمع فاعل على فعول »(١١) ، وقال الآلوسى : هو جمع راقد ، ورد على الفخر الرازى بقوله : ان القول بأن فاعلا لا يجمع على فعول مردود ، لان النحاة نصوا على جمعه كذلك(١٢) ، والرقود والرقاد بضم الراء فيهما النوم .

ومعنى قوله : **(وتحسبهم أيقاظا وهم رقود)** أى تظن أيها المخاطب لو قدر لك أن تراهم وقت أن كانوا نائمين فى تلك المدة تظن أنهم أيقاظ والحقيقة أننا أنمناهم انامة عميقة طويلة بلغت مئات السنين .

واختلف المفسرون فى السبب الذى من أجله يحسبهم المخاطب ايقاظا ..

١ - فقيل : ان أعينهم كانت مفتوحة ، على هيئة الناظر اليقظان ، ورد بعضهم ، هذا القول ، بحجة أنه لم يرد فى ذلك حديث صحيح .

---

(١١) تفسير الفخر الرازى : ٢١/١٠٠ .
(١٢) تفسير الآلوسى : ١٥/٢٢٤ .

٢ ـ وقيل : انما يحسبهم المخاطب أيقاظا لكثرة ما يرى من تقلبهم ، ورده بعضهم كأبى السعود ، وقال : « ولا يلائمه قوله تعالى : (ونقلبهم) »(١٣) .

٣ ـ وقال ابن عطية ـ كما ينقله أبو حيان فى تفسيره ـ : يحتمل أن يحسب الرائى ذلك لشدة الحفظ الذى كان عليهم ، وقلة التغيير ، وذلك أن الغالب على النوام أن يكون لهم استرخاء ، وهيآت تقتضى النوم ، فيحسبه الرائى يقظان ، وان كان مسدود العينين ، ولو صح فتح أعينهم بسند يقطع العذر كان أبين فى أن يحسب عليهم التيقظ(١٤) .

ولعلى أجد نفسى تميل الى الرأى الأول ، والذى يرجع هذا الحسبان الى انفتاح أعينهم ، وان لم يكن هناك حديث صحيح فى ذلك ، الا أن الحكم على يقظة الانسان غالبا ما تكون بكون عينيه مفتوحتين ، فكما حفظ الله أبدانهم فى هذه المدة فانه قد حفظ أعينهم وهى مفتوحة كذلك ، فالقصة كلها أمر خارق للعادة من بدايتها الى نهايتها .

ثم من الله عليهم بنعمة أخرى من نعمه ، بأن جعل يقلب أجسادهم تارة الى اليمين ، وتارة الى الشمال ، فقال **(ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال)** ، أى ونحرك أجسادهم أثناء نومهم هذا الى الجهة التى تكون على أيمانهم تارة ، والى الجهة التى تكون على شمائلهم تارة أخرى ، فقوله تعالى : (ذات) منصوبة على الظرف ، لأن المعنى نقلبهم فى ناحية اليمين أو على ناحية اليمين .

وانما قلبهم الله تعالى هذا التقليب رحمة بهم ، وحفظا لأجسادهم من أن تأكلها الأرض وتبلى بمرور الأيام والسنين .

---

(١٣) ارشاد العقل السليم لأبى السعود : ٣/٢٤٣ .
(١٤) تفسير البحر المحيط لأبى حيان : ٦/١٠٨ .

والفخـر الرازى لم يعجبه هذا السبب وقال عنه : « هـذا عجيب ، لأنه تعـالى لمـا قدر على أن يمسـك حياتهم مدة ثلاثمائة سنة وأكثـر فلم لا يقدر على حفظ أجسادهم أيضا من غير تقليب »(١٥) ٠

وبمثل رد الفخر الرازى رد أبو حيان فى البحـر المحيط :

وأقول : وهذا الرد من علمـائنا عليهم رحمـة الله تعـالى، يمكن يمكن الجواب عليـه بأن هـذا التقليب سنة من سنن الله تعـالى الكونية فى حفظ الأجساد ، وسبب من أسباب عدم فسادهم ، والا فالله تعـالى قادر على كل شىء ، ولكنه جعل لكل شىء سببا ٠

قال الجمل فى تفسـيره : « ولقائل أن يقول : لا ريب فى قـدرة الله تعـالى ، ولكن جعـل لكل شىء سببا فى أغلب الأحوال »(١٦) ، وقال الألوسى : « اقتضت حكمته تعـالى أن يكون حفظ أبدانهم بما جرت به العـادة ، وان لم يعـلم وجـه تلك الحـكمة ، ويجـرى نحـو هـذا فيما قيـل فى التزاور وأخيه »(١٧) ٠

وفى اسنـاد التقليب الى الله تعـالى وبنون العظمـة فى الفعـل (ونقلبهـم) عظـيم اعتنـاء الله بهم ، وحفظـه لهم ، فى كل شـأن من شـئونهم ٠

والتعبير بالفعـل المضـارع يدل على تجدد هـذا التقليب وتكراره فى هذه المدة ، وأيضـا فيه استحضـار لصورتهم فى ذهن السـامع ، حتى لكأنه يشاهدهم الآن أمام عينيه وهم يتقلبون ٠

وقد تكلم المفسرون فى عدد مـرات هـذا التقليب ، فمن قائل : انهم كانوا يقلبون فى كل عام تقليبتين ، ومن قائل انهم كانوا يمكثون

---

(١٥) تفسير الفخر الرازى : ٢١/١٠٠ ٠
(١٦) الفتوحات الالهية : ٣/١٢ ٠
(١٧) تفسير الألوسى : ١٥/٢٢٤ :

على أيمانهم تسـع سنين ، ثم يقلبون على شمائلهم فيمكثون نياما تسـع سنين ، وهكذا ، ومن قائل كانت لهم تقليبة واحدة فى يوم عاشوراء ، ومن قائل ان التقليب كان فى التسـع سنين الأخيرة فقط ، ومن قـائل ان هذا كان فى الثلاثمائة سنة ، دون التسع الأخيرة .

أقـول : كل هـذه الأقوال لا دليـل على صحتها ولم يثبت فيهـا نص واحد صحيح ، فلا نشغل أنفسنا بها، لعدم وجود طائل فى معرفتها، والا لنص عليهـا الشـرع الحنيف ، ولـكن الذى نستشـفه من الفعــل (ونقلبهم) كثرة هـذا التقليب ، لمـا يدل عليه المضـارع من التجدد والتكرار والاستمرار ، مع ما فى الفعـل (نقلب) من التثقيـل ، الذى يدل على الكثرة .

ثم بين الله تعـالى حال كلبهم الذى صحبهم فقال : (**وكلبهم باسط ذراعيـه بالوصـيد**) .

الكلب فى اللغـة يطلق على كل سبع عقـور ، كالأسد ونحـوه ، ولكنه قد غلب على هـذا النوع النابح ، الذى يألفـه الناس ، ويتخذونه للحراسـة والصيد ونحو ذلك ، والجمع أكلب ، وجمع الجمع أكالب ، والكثـير كلاب ، والأنثى كلبة ، وجمعهـا كلبات ، وربما وصف به ، فيقـال : امـرأة كلبـة (١٨) .

وللجـلال السيوطى عليه رحمة الله رسـالة خاصة عن الأسماء التى تطلق على الكلب فقط !!

والبسـط نقيض القبض ، يقـال : بسط الشىء أى نشره ، وبسط الذراعين من صفات الكلب ، ولذلك نهى رسول الله ﷺ عن بسطهما فى السجود ، فقال فى الحديث الذى رواه الشيخان وغيرهما : « اعتدلوا فى

---

(١٨) لسـان العـرب : (كلب) .

السجود ، ولا يبسط أحدكم ذراعيه كالكلب ، واذا بزق فلا يبزقن بين يديه ، ولاعن يمينه ، فانما يناجي ربه »(١٩) •

والذراع : ما بين طرف المرفق الى طرف الاصبع الوسطى ، قال الليث : والذراع والساعد واحد •

والوصيد : فناء البيت ، وقيل العتبة ، وقيل الباب ، كما عنى الشاعر بقوله :

بأرض فضاء لا يسد وصيدها
على ومعروفى بها غير منكر

يقال أوصد الباب وآصده : أغلقه ، فهو موصد •

وقوله تعالى : « إنها عليهم مؤصدة »(٢٠) ، أى مغلقة ، لا يستطيعون منها خروجا ، وباسط اسم فاعل ، وانما نصب (ذراعيه) وان كان اسم الفاعل لا يعمل اذا كان فى معنى المضى ، لأن المراد هنا حكاية حال ماضية ، وان كان البعض كالكسائى وهشام وغيرهما يجوزون عمله اذا كان فى معنى المضى ، فليس المنع اجماعا •

ومعلوم أن الكهف لا باب له و لا عتبة ، وانما المراد أن الكلب من الكهف بموضع العتبة من البيت ، وعلى هذا فيكون معنى قوله تعالى : (وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد) أن الكلب قد ألقى ذراعيه على الأرض مبسوطتين منشورتين ، غير مقبوضتين بهذا الوصيد ، على اختلافهم فى تحديده كما ذكرنا •

---

(١٩) أخرجه البخارى فى صحيحه ، فى كتاب مواقيت الصلاة ، باب المصلى يناجى ربه عز وجل ، فتح البارى : ١٩/٢ ، وأخرجه مسلم فى صحيحه فى كتاب الصلاة ، باب الاعتدال فى السجود : ٣٥٥/١ •

(٢٠) الهمزة : ٨ •

والوصيد يقال له أيضا أصيد ، لغتان ، وجمعه وصائد ، ووصد بضم الواو والصاد في الأخير .

والكلب وان كان لغة يطلق علي كل سبع عقور الا أنه اذا أطلق غلب ـ كما قلنا ـ على هذا النوع المعروف بالنباح ، وعلى ذلك فان المراد هنا هو ذلك النوع المخصوص ، أما من قال ان المراد به الأسد ، أو رجل طباخ لهم تبعهم فى الاعتزال ، أو أحدهم كان يجلس عند الباب طليعة لهم ، فهو صرف للفظ عن ظاهره ولما يتبادر الى الذهن من أول وهلة دونما يكون هناك داع لذلك ، أو خبر صحيح يؤكده .

ويبدو ان هذا الكلب قد أنامه الله كما أنام هؤلاء الفتية ، والله أعلم .

وقد ذكر بعض المفسرين كلاما عن لون هذا الكلب ، وعن اسمه ، وعن دخوله الجنة يوم القيامة ، ولا يصح فى ذلك شىء مطلقا ، وكل ذلك من باب اضاعة الوقت فيما لا فائدة فيه ، ومن الاسرائيليات المنقولة عن أهل الكتاب .

ثم ختم الله هذه الآية بقوله عن الفتية (**لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا**) .

والخطاب فى (**لو اطلعت عليهم** . . . الخ) لكل من يصلح له الخطاب ، وليس المراد بالاطلاع الاطلاع فى أى وقت ليشمل كل زمان الى يوم القيامة ، ولكن المراد الاطلاع فى وقت لبثهم فى هذا الكهف هذه المدة (**ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا**) .

والاطلاع : الاشراف عليهم ، والنظر اليهم ، والمعنى :

لو نظـرت اليهم أيهـا السـامع فى وقت نومهم فى هذه السنين المـاضية لوليت منهم فـراراً ، ولملئت منهم رعبـا .

والتولى يستعمل فى اللغـة بمعنى الاعراض ، وبمعنى الاتباع ، فمن الأول قوله تعالى : « **وإن تتـولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا امثـالكم** »(٢١) ، اى ان تعرضوا عن الاسـلام .

ومن الثـانى قوله تعـالى : « **ومن يتـولهم منكم فإنه منهم** »(٢٢) اى من يتبعهم وينصـرهم .

والمـراد فى الآية - كما هو واضـح - الاعـراض ، من قـولهم : ولى وتولى ، بمعنى أدبر وأعـرض ونأى .

والفـرار : الهـرب ، يقا فـر يفـر فـرارا اى هـرب ، والفـر : مصـدر مثـل الفرّار ، ويوصف به ، قال الجوهرى : رجل فـر ، وكذلك الاثنـان والجمـع والمؤنث(٢٣) .

والملء : « كون المظـروف حـالا فى جميع فراغ الظرف ، بحيث لا تبقى فى الظـرف سعة لزيادة شىء من المظروف .

فمثلت الصفـة النفسـية بالمظـــروف ، ومثـل قلـب الانســان بالظـرف »(٢٤) .

وقـرأ نافع وابن كثير بتشديد اللام فى (ولملئت) على المبالغـة فى الملء ، وقـرأ أبو جعفـر بتشديد اللام ، وابدال يـاء من الهمزة ، وقـرأ الباقون بتخفيف اللام .

---

(٢١) سـورة محمـد آية : ٣٨ .
(٢٢) المـائدة : آية ٥١ .
(٢٣) لسـان العرب (فـرر) .
(٢٤) التحرير والتنوير : ٢٨٢/١٥ .

قال الأخفش : الخفيفة أجود فى كلام العرب ، يقال ملأتنى رعبا ، ولا يكاد يعرفون ملأتنى ، ويدل على هذا أكثر استعمالهم (٢٥) .

والرعب : بتسكين العين وضمها - الفزع والخوف ، تقول رعبه يرعبه فهو مرعوب ورعيب ، أى أفزعه ، ولا تقل أرعبه ، وهذا الفعل رعب بفتح الأول وكسر الثانى متعد وغير متعد ، يقال رعب زيد اذا خاف ، ورعب زيد خالدا اذا أفزعه .

وقرأ ابن عامر والكسائى (رعبا) بضم العين فى جميع القرآن ، والباقون بالاسكان .

وفى سبب هذا الرعب اختلف العلماء .

فبعضهم ذهب الى أن ذلك بسبب الهيبة التى القاها الله عليهم ، بحيث لا يتمكن انسان من الوقوف أمامهم متماسكا ، بل بمجرد رؤيتهم يمتلىء قلبه رعبا ، ويولى الأدبار .

روى عن معاوية بسند صحيح - كما حكم الحافظ ابن حجر فى تعليقه على أحاديث وآثار الكشاف للزمخشرى - أنه - أى معاوية - غزا الروم ، فمر بالكهف ، فقال لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا اليهم ، فقال له ابن عباس رضى الله عنه : ليس لك ذلك ، قد منع الله تعالى منه من هو خير منك ، فقال : (**لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا**) ، فقال معاوية : لا أنتهى حتى أعلم علمهم ، فبعث ناسا وقال لهم : اذهبوا فانظروا ، ففعلوا ، فلما دخلوا الكهف بعث الله عليهم ريحا فاخرجتهم (٢٦) .

وبعض المفسرين ذهب الى أن سبب الرعب هذا هو تغير هيئتهم ، حيث طالت أظفارهم وشعورهم ، وعظمت أجرامهم .

---

(٢٥) تفسير الفخر الرازى : ١٠١/٢١ .
(٢٦) الكشاف : ٧٠٩/٢ .

وآيات القصة ترد هذا القول ، لأنهم لو كانوا بهذه الصفة التى ذكرها أصحاب هذا الرأى ، لما قالوا حينما استيقظوا لبثنا يوما أو بعض يوم ، ولو رأوا أحوالا غير أحوالهم لأنكروها ، وأيضا فان الآيات قد نصت على أنهم بحالة حسنة ، بحيث لو رآهم راء لما فرق بينهم وبين الايقاظ ، ولأن رسولهم الذى ذهب لاحضار طعام من المدينة لم ينكر نفسه والا لكانت عليه أهم ، وانما أنكر أحوال تلك المدينة ، خاصة بعد أن أوصوه بقولهم : **(ولا يشعرن بكم أحدا)** ٠

وما ذكره أصحاب هذا الرأى من أقوال لتأييده فلا تخلو من تعسف وتكلف ، ومن اعتراض عليها ٠

وبعض المفسرين يقول : ان سبب الرعب ، هو وحشة مكانهم ٠

والآيات أيضا ترد عليهم ، فقد وصف الله كهفهم بأن فيه مكانا متسعا ، حيث قال **(وهم فى فجوة منه)** ومكان هذا شأنه ، تتخلله الرياح ، ويدخله الضياء كيف يكون موحشا ؟ لا سيما وأنهم فى حالتهم الطبيعية ، لم تتغير هيأتهم ، بل يحسبهم الرائى أيقاظا وليسوا رقودا ٠

وقوله (فرارا) مفعول مطلق ٠

١ - اما لفعل محذوف تقديره فررت ، أى لوليت منهم وفررت فرارا ٠

٢ - واما للفعل (وليت) ، لأنه بمعنى فررت ٠

أو هو مفعول لأجله ، أى لوليت من أجل أن تفر ٠

وقال الآلوسى : يجوز أن يكون منصوبا على الحالية ، بجعل المصدر بمعنى الفاعل ، أى فارا ٠

أما قوله (رعبا) فهو مفعول ثان للفعل (ملئت) ٠

وأخر الرعب عن التولية :

١ - للاشـارة الى أنه بمجـرد الاطلاع عليهم يحدث الأمـران ، على سبيل الاستقلال ولا يشترط ترتيب أحد الشيئين على الآخر ، ولو قدم الرعب لفهم أن الفرار مترتب على الرعب ، فلا يعطى التهويل الذى يكون فى استقلال كل من الأمـرين عن الآخـر .

٢ - وأيضـا فان فى تأخير الرعب اشـارة الى أن الرعب لا يزول بمجرد الفـرار كما هو واقع النـاس ، ولكنه رعب عظيم ، لم يألف الناس مثـل مثله ، حيث يستولى على كيان من جـرأ على ذلك ، ويفعل فى قلبه وجوارحه الأفاعيل والتهاويل .

واختلف العلماء فى أصحاب الكهف : هل هم موجودون اليوم على تلك الحالة التى حدثنا الله بها أو لا ؟ فمنهم من قال : انهم ما زالوا على تلك الحالة ، ومنهم من قال : انهم بمجـرد الاعثـار عليهم أماتهم الله تعـالى ، وعوملوا معـاملة الأمـوات من التفسخ والتحلل وغير ذلك ، مما يحدث لأى انسـان يموت .

قال الآلوسى : « والذى يميل القلب اليه عدم وجودهم اليوم ، وأنهم ان كانوا موجودين فليسوا على تلك الحـالة ، التى أشـار الله اليهـا ، وأن الخطاب الذى فى الآية لغير معين ، وأن المراد منها الاخبار عن أنهم بتلك الحالة فى ذلك الوقت .

وأنه عليـه الصلاة والسلام على القول بعموم الخطاب ، ليس من الأفـراد المعنية به ، لأنه ﷺ اطلع على ما هو أعظم منهم ، من ملكوت السموات والأرض .

ومن جعله ﷺ معينـا قال : المـراد : لو اطلعت عليهم لوليت منهم فـرار ، ولملئت منهم رعبـا ، بحكم جـرى العادة ، والطبيعة البشرية .

وعدم ترتب الجـزاء على اطلاعه ﷺ على ما هو أعظم منهم أمـر خارق للعـادة ومنوط بقوة ملكية ، بل بما هو فوقها .

أو المـراد : لو اطلعت عليهم بنفسـك ، من غير أن نطلعك عليهم لوليت ... الخ ، واطلاعه ﷺ على ما اطلع عليه كان باطلاع الله عـز وجل اياه ، وفرق بين الاطلاعين »(٢٧) .

وبعد أن أنامهم الله تعـالى هذه المدة الطويلة اذا بحكمته تعـالى تقضى بايقاظهم حتى يكون ما أراد الله ، فيوقظهم الله تعـالى ، ويدور بينهم هـذا الحوار ، الذى تسجله هاتان الآيتـان الكريمتان : (**وكذلك بعثنـاهم ليتسـاءلوا بينهم ، قـال قائل منهم كم لبثتم ؟ قـالوا لبثنـا يومـا أو بعض يوم . قالوا ربكم أعـلم بما لبثتم فابعثوا أحـدكم بورقكم هـذه إلى المدينـة ، فلينظـر أيها أزكى طعـاما ...**) الآيتان .

والكاف فى (وكذلك) للتشبيه ، واسم الاشـارة يعود على الانامة الثقيـلة ، المفهـومة من قبـل ، من قوله تعـالى : (**فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عـددا**) ، ومن قوله تعـالى : (**وتحسبهم أيقـاظا وهم رقـود**) ، والانامة الثقيـلة هـذه هى المشبه به أما المشبه فهو الايقاظ ، المـراد من قوله تعـالى (بعثنـاهم) ، ووجه الشبه فى هذا الأسلوب كون كل من الانامة والايقـاظ آية عظيمة دالة على كمال قدرة الله عـز وجل ، التى بهرت العقول ، وحيرت أولى الألباب .

والمعنى : وكما أنمناهم تلك الانامة الثقيـلة وظلوا أحياء مع عدم أكلهم وشربهم ، فكذلك أيقاظهم من تلك النومة التى تشبه الموت ليتساءلوا بينهم عن مدة لبثهم ، فيحصـل لهم الاعتبـار ، والاستدلال على عظمة الله تعـالى وقدرته ، فيشكروا الله على هذه النعم الجليلة .

وفى التعبـير بضمـير العظمـة فى (بعثنـا) من تفخيم هـذا الفعـل ، وتفخيم قدرته تعـالى ما هو ظاهر ، لا يخفى .

---

(٢٧) تفسير الآلوسى : ١٥/٢٢٨ .

وعبر الله تعـالى عن الايقـاظ بالبعث : لأن الهدف من هـذه القصة اثبات البعث بعد الموت ، فكان فى ذكـر لفظ (بعثنـاهم) تنبيـه قوى على أن فى هـذا الايقاظ دليـلا على امكان البعث بعد الموت ووقوعه ، بلا أدنى ريب ، وكما يقولون : النوم أخو الموت ٠

ثم بين الله تعـالى الحكمة من هـذا الايقاظ فقال : (**ليتسـاءلوا بينهم كم لبثـتم**) ٠

واللام فى (ليتسـاءلوا) : ـ كما قال ابن عطيـة وغيـره ـ لام الصيرورة والعاقبة ، كقوله تعـالى : « **ليكون لهم عدوا وحزنا** »(٢٨) ، لأن بعثهم لم يكن فقط لمجـرد تسـاؤلهم(٢٩) ٠

قال الشوكانى : « الاقتصـار على علة التسـاؤل لا ينفى غيرها ، وانما أفـرده لاستتباعه لسـائر الآثار »(٣٠) ٠

وجوز الفخـر الرازى أن تكون الـلام لام التعليل ، حيث قال : « فان قيل هل يجوز أن يكون الغرض من بعثهم أن يتساءلوا ويتنازعوا ؟ قلنـا : لا يبعد ذلك لأنهم اذا تسـاءلوا انكشف لهم من قدرة الله تعـالى أمور عجيبة ، وأحوال غريبة ، وذلك الانكشاف أمر مطلوب لذاته »(٣١)

ثم حكى الله تسـاؤلهم هذا فقال : (**قال قائل منهم كم لبثتم ؟**) ، وتعيين هـذا القـائل بأنه كبيرهم ، أو صاحب نفقتهم من الاسرائيليات التى لا يوثق بصحتها ، ولا فائدة من معرفتها ٠

ويبدو أن السـائل قد داخله شعور بطول مدة النوم ، ولذلك سـأل هـذا السـؤال ٠

---

(٢٨) القصص آية : ٨ ٠
(٢٩) البحر المحيط : ١٠٩/٦ ٠
(٣٠) الفتح القدير : ٢٧٥/٣ ٠
(٣١) **مفاتيح الغيب : ١٠٢/٢١** ٠

(وكم) للسؤال عن العدد ، وهى فى محل نصب مفعول به لـ (لبثتم) ، وقدم المفعول به على الفاعل : لأنه استفهام ، والاستفهام له حق الصدارة ٠

ومعنى السؤال : كم يوما اقمتم نائمين ، فكان الجواب : (**لبثنا يوما أو بعض يوم**) ٠

وربما حدث شك لهم فى هذه المدة فقالوا يوما أو بعض يوم ، فتكون (أو) للشك ٠

وقال أبو حيان : ان (أو) للتفصيل ، يعنى أن بعضهم قال : لبثنا يوما ، وبعضهم قال : أو بعض يوم ، ولم يرتض الآلوسى هذا الرأى وقال عنه : « انه مما لا يكاد يذهب اليه الذهن » ٠

وقال بعض العلماء : ان (أو) للاضراب عن التقدير السابق ، لأنهم دخلوا الكهف صباحا ، وحينما بعثهم الله بعثهم آخر النهار ، فلذلك قالوا لبثنا يوما ، فلما رأوا الشمس لم تغرب بعد قالوا : أو بعض يوم ٠

ولعلنى أميل الى الرأى الذى يقول انها للشك ، حيث لم يجزم الفتية بقولهم فى ذلك وفوضوا أمرهم الى ربهم ، كما أن القول بدخولهم صباحا وايقاظهم فى آخر النهار قول بلا دليل ٠

والفتية فى جوابهم هذا قد أجابوا بما غلب على ظنهم ، فلا يعتبر ذلك منهم كذبا ، وفيه دليل على أن من اجتهد أو قال بما غلب على ظنه لا يعد كاذبا ، وان كان قوله أو نتيجة اجتهاده خطأ ٠

وبعد أن لم يصل الفتية الى أمر قاطع فى مدة لبثهم نائمين ، فوضوا أمرهم الى الله تعالى حيث قالوا : (**ربكم أعلم بما لبثتم**) ، فكأنهم الهموا من الله تعالى أن هذه المدة قد تطاولت ، ولا يعلم مقدارها الا علام الغيوب ، وهكذا يكون الأدب فى مثل هذا الحال ٠

وبعد أن حدث هـذا التنـازع فى المدة ، وبعد أن فوضوا أمـرهم لربهم ، وأحسوا بما يحس به الجـائع أمـروا أنفسهم بارسال أحـدهم الى المدينة ليأتيهم بطعـام ، فهذا هو الأهم الذى يجب أن يشتغلوا به ، حيث قالوا : (**فابعثـوا أحـدكم بورقكم هـذه إلى المدينـة فلينظر أيهـا أزكى طعـاما فليـأتكم برزق منـه**) .

ولفظ (أحد) ـ كما قال ابن منظور ـ اسم بنى لنفى ما يذكـر معـه من العدد ، تقول : ما جاءنى أحـد ، وتقو ل : لا أحد فى الدار ، ولا تقـول : فيهـا أحد ، وقولهم ما فى الدار أحد ، يستوى فيه الواحد والجمـع ، والمؤنث ، والمذكـر ، قـال تعـالى : « **لسـتن كأحـد من النسـاء** »(٣٢) ، وقال : « **فما منـكم من أحـد عنه حاجزين** »(٣٣) ، وجمع أحد : آحـاد ، وأحدان بضم الهمزة ، والأحد بمعنى الواحد ، وهو أول العـدد ، تقول : أحد ، واثنـان(٣٤) .

والـورق : الدراهم الفضية المضروبة ، وقال أبو عبيـدة : الورق الفضـة ، سواء كانت مضروبة كالدراهم ، أم لا .

قال عرفجة بن أسعد : « أصيب انفى يوم الكلاب ـ بضم الكاف ـ فى الجاهلية ، فاتخذت أنفا من ورق ، فأنتن على ، فأمرنى رسول الله ﷺ أن أتخذ أنفـا من ذهـب »(٣٥) .

وفى وصف الورق بقـول المتحدث (هـذه) ما يشعر بأنها كانت معه وأنها معدة لينـا ولها بعض أصحابه .

---

(٣٢) الأحـزاب آية : ٣٢ .
(٣٣) الحـاقة آية : ٤٧ .
(٣٤) لسان العرب : (أحد) .
(٣٥) أخرجه الترمذى فى سننه ، فى كتاب اللباس ، باب : ما جاء فى شد الأسنان بالذهب : ٢١١/٤ ، وقال حديث حسن غريب .

و (ال) فى (المدينـة) للعهـد ، حيث أرادوا مـدينتهم التى خرجوا منها ، بدليـل خوفهم من انكشـاف أمرهم ، وتوصية مبعوثهم بالتلطف وأخذ الحـذر ، حتى لا يقف النـاس على مكانهم ، ويكشـفوا سـرهم ، فيقع لهم ما يسوؤهم ٠

وتحـديد الشخص المبعـوث وتسميته كذلك من الاسرائيليات التى يضرب بها عـرض الحائط ٠٠٠

ثم أمـر هؤلاء الفتية أحدهم باحضـار أزكى طعـام فى هذه البلدة حيث قالوا : (**فلينظـر أيهـا أزكى طعـاما**) ٠

وفى الكلام حذف ، والتقدير فلينظـر اى أهلها ، أو أى ماكلهـا أزكى طعـاما ، والمـراد بقولهم (**أزكى طعـاما**) ما يشمل الحـل ، والجودة ، والبركة ، فهذه صفات وشروط كانت مشروطة فيما يطعمون ٠

والمعنى : أن هـذا المبعوث اذا وصـل الى المدينة فلا يعجـل فى شراء أى طعام ، بل عليـه أن يتفقد الأطعمة ولا يختار الا ما كان حلالا ، جيـدا ، كثير البركة ٠

وهـذه الجملة - أيها أزكى طعـاما - فى محل نصب ، مفعول به للفعـل قبلها ، (فلينظـر) أما اعـرابها تفصيليا فكالآتى :

(أى) استفهام مبتدأ ، و (أزكى) خبره ، و (طعاما) تمييز ٠

وعلى مذهب سيبويه : يجـوز أن يكون (أى) اسـما موصـولا مفعـولا لينظـر ، أما (أزكى) فيكون حينئذ خبر المبتدأ محذوف ٠

وقولهم : (**فليأتكم برزق منـه**) الضمير يعـود على الـ (أزكى طعـاما) ، ومن لابتـداء الغـاية ، أو التبعيض ٠ ٠ ، وقـال بعضهم : الضمير يعـود على الورق ، فتكون (من) للبدل ٠

والرزق : كل ما ينتفـع به ، والمـراد به هنا القـوت ، والجمـع ارزاق ، وهو يستعمل فى اللغـة لعدة معـان ، كلها ترجـع الى معنى العطـاء ٠

ثم أمـروا مبعـوثهم اذا ذهب للشـراء بالترفق والتخفى ، حتى لا يحس بهم أحـد فقالوا : (**وليتلطف ولا يشعرن بكم أحدا**) ٠

والتلطف : الترفـق ، ومن أسـمائه تعـالى (اللطيف) ، قـال ابن الاثير فى تفسـيره : اللطيف : هو الذى اجتمع له الرفق فى الفعل ، والعـلم بدقائق المصـالح ، وايصـالها الى من قدرها له من خلقه ٠

يقـال : لطف به وله ، اذا رفق به ، فاما لطف ـ بالضم ـ فمعناه : صغـر ودق (٣٧) ٠

فمعنى قولهم (وليتلطف) أى وليترفق فى كل حـركاته وسكناته ، ومعـاملاته مع أهل المدينـة ٠

ومعنى قوله : (**ولا يشعرن بكم أحـدا**) أى لا يفعـل فعلا ، من شانه يجعل أهل المدينة يشعرون بوجودكم ، ويعلمون بمكانكم وأحوالكم، ماخـوذ من قولهم : شعر به ، وشعر بفتح العـين وضمها ، وليت شعرى اى ليت علمى حاضر ، فحذف الخبر ، وهو كثير فى كلامهم ٠

ثم علل هؤلاء الفتيـة تشددهم فى هـذه الوصية بقولهم : (**إنهم إن يظهـروا عليكم يرجمـوكم أو يعيدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا إذا أبدا**) ٠

والضمير فى (انهم) يعـود على ما دل عليـه السياق ، من كفار هـذه المدينة ، وجـوز بعضهم عوده على (أحـدا) لانه يفيد العموم ، فيجـوز ان يجمع الضمير العائد اليـه ، كما فى قوله تعالى : « **فما منكم من احـد عنـه حـاجزين** » (سـورة القلم) ٠

والظهـور : بدو الشىء الخفى ، يقال أظهـرنى الله على ما سرق منى أى أطلعنى عليـه ، وعلى ذلك يكون معنى قولهم (**إنهم إن يظهروا عليـكم**) ، أى ان يطلعوا ويعثروا عليكم ٠

---

(٣٧) لسـان العـرب : (لطف) ٠

وقيل المراد من الظهور : الغلو والغلبة من قولهم : ظهرت على فلان ، بمعنى علوته وغلبته ، ومنه قوله تعالى : « **ليظهره على الدين كله** »(٣٨) ، أى ليجعل دين الاسلام أعلى من كل دين ، وغالبا لكل دين ، وقوله تعالى : « **فاصبحوا ظاهرين** »(٣٩) ، أى : عالين غالبين .

وعلى ذلك فالمراد من قولهم : (**إن يظهروا عليكم**) أى ان يتمكنوا منكم ويغلبوكم يرجموكم .

والرجم : القتل ، وانما قيل للقتل رجم ، لأنهم كانوا اذا قتلوا رجلا رموه بالحجارة حتى يقتلوه ، ثم قيل لكل قتل رجم .

يقول أبو حيان : « والظاهر الرجم بالحجارة ، وكان الملك عازما على قتلهم لو ظفر بهم ، والرجم كان عادة فيما سلف ، لمن خالف من الناس ، اذ هى أشفى ، ولهم فيها مشاركة »(٤٠) ، والرجم أخبث انواع القتل .

ومما يؤيد كلام أبى حيان ، ما ورد فى قصص بعض الأنبياء فى القرآن ، من تهديد قومهم لهم بقتلهم رجما ، كما فى قصة نوح ، وابراهيم ، وشعيب ، وموسى عليهم السلام ، فعن نوح : « **قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين** »(٤١) ، وأبو الخليل يقول له : « **لئن لم تنته لأرجمنك** »(٤٢) ، وقوم شعيب يقولون له : « **ولولا رهطك لأرجمناك** »(٤٣) ، وموسى يتعوذ بالله من رجم

---

(٣٨) الفتح : ٢٨ ، والصف : ٩ .
(٣٩) **سورة الصف : ١٤ .**
(٤٠) البحر المحيط : ٦/١١١ .
(٤١) سورة الشعراء : آية ١١٦ .
(٤٢) **سورة مريم : آية ٤٦ .**
(٤٣) **سورة هود : آية ٩١ .**

قومه ، فيخاطبهم : « وإنى عـذت بربى وربكم أن ترجمـون »(٤٤) ·

وقوله : (**أو يعيـدوكم فى ملتهم**) أى يدخلوكم فيها مكرهين ، والعـود بمعنى الصـيرورة ، ولا يلزم من العود الى الشىء التلبس به قبل ، قال تعـالى فى سـورة ابراهيم : (**وقال الذين كفـروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضـنا أو لتعودون فى ملتنـا**) ، ومعلوم أن الأنبيـاء معصومون من الكفر قبل الرسالة وبعدها ، وانما المراد بعودتهم صيرورتهم

قال الزمخشرى : « وهو كثـير فى كلام العـرب ، كثرة فاشية ، لا تكاد تسمعهم يستعملون صـار ، ولكن عـاد ، ما عدت أراه ، عـاد لا يكلمنى ، ما عـاد لفـلان مـال »(٤٥) ·

وقال بعض العلمـاء : انهم كانوا أولا على دين قومهم ، كما كان كثير من الصحابة ، وعلى ذلك فالمـراد من العود حينئذ الرجوع الى دين قومهم مـرة أخرى ، وأصل المعنى اللغوى للعود ، هو الرجوع الى الشىء بعد مفـارقته ، والمـلة فى اللغـة : الشريعة والدين ·

والتعبير بكلمة (فى) دون كلمة (الى) فى قولهم : (**أو يعيدوكم فى ملتهم**) اشـارة الى أن الكفـار لا يرضون من المؤمنين الا الاستقرار فى دين الجاهلية ، والتمكن منـه أيما تمكن ، لا أن يتظاهروا بالعود ، أو يعـودوا الى بعض ملتهم دون البعض الآخـر ،وهذا الاستقرار أشـد ما يكون كـراهة لهؤلاء الفتيـة ·

وقدم احتمال الرجم على احتمال العـود فى ملة الكفار ، لأن الفتية ثابتون مستقرون على دينهم أشد ما يكون الثبـات والاستقرار ، وذلك مؤدى فى النهاية ــ ان ظهـر عليهم قومهم ــ الى الرجم ·

---

(٤٤) سـورة الدخـان : آية ٢٠ ·
(٤٥) الكشاف : ٢/٥٤٤ ، تفسير سورة ابراهيم ·

وانما تكلم من تكلم بضمير الخطاب فى : (**إن يظهـروا عليـكم يرجمـوكم أو يعيـدوكم فى ملتهم ولن تفلحـوا إذاً أبدا**) ، ولم يتحدث بضمير المتكلم ان يظهـروا علينـا يرجمـونا أو يعيدونا فى ملتهم ولن نفلح : مبالغـة فى حمل هـذا المبعوث على التخفى قدر الطاقة ، وفى حمـل باقى الفتيـة على الاهتمام بالتوصية .

وقولهم : (**ولن تفلحـوا إذاً أبداً**) مبالغـة أيضـا فى التشديد فى تحذير مبعوثهم ، والفـلاح : الفـوز والنجاة والبقاء فى النعيم والخير ، وفـلاح الدهـر بقاؤه ، قال الشـاعر :

ولكن ليس للدنيـا فـلاح

أى بقـاء ، قال الأزهـرى : وانما قيـل لأهل الجنـة مفلحون : لفـوزهم ببقاء الأبد (٤٦) ..

والأبد : الدائم .

وقولهم (إذاً) يدل ـ كما قال الزجاج (٤٧) ـ على الشرط ، أى ولن تفلحوا ان رجعتم الى ملتهم أبداً .

وربما يسـأل سـائل فيقول : كيف علقوا عدم الفـلاح على هـذا الكفـر بالاكـراه ، مع أنهم فى بواطنهم مؤمنون ؟

والجواب على ذلك : أن المـكره على الكفـر قد يستدرجه الشيطان على الاستمرار عليه باستحسانه ، لمـا يراه قد يجلب له بعض المنـافع الدنيوية ، والمصـالح الشخصية ، فيصـير فى النهاية كافرا حقيقـة فى الظاهر والباطن ، فلا يفلح فى الدنيا ولا فى الآخـرة .

وبعض العلمـاء كما جاء فى تفسير الجمل قال : أن العفو عن كفر

---

(٤٦) لسـان العـرب : (فلح) .
(٤٧) تفسير الفخر الرازى : ٢١/١٠٣ .

الاكـراه خاص بأمة الرسول ﷺ ، أما غير أمتـه فكانت مؤاخذة ، بدليل قـول سحرة فرعون لمـا آمنـوا : « **إنا آمنـا بربنـا ليغفـر لنـا خطـايا وما أكـرهتنا عليـه من السحـر** »(٤٨) .

وبعــد

فبهذه المجموعة من الآيات ينتهى هـذا المشهد من قصـة أصحاب الكهف ، والذى يصـور لنا هؤلاء الفتيـة ، وهم نائمون ، هـذه السنين الطويلة ، كما يصـور لنا ما حدث بينهم بعد أن أيقظهم الله تعـالى من نومهم ، حيث أجمعوا أمـرهم على ارسـال واحد منهم ، الى المدينـة ليشـترى لهم طعـاما يأكلونه ، بعد أن ظـلوا طـوال هـذه السـنوات لا يأكلون ولا يشـربون ....

فياترى ماذا حدث لهذا الرسول بعد أن دخـل المدينة ، وماذا ترتب على ذلك ؟

ذلك ما تجيب عنـه مجموعة الآيات الخاصة بالمشهد التـالى ... ولكن بعد بيان المعنى العـام لهذه الآيات التى معنـا ، وبيان ما فيهـا من عبـر .

فالى ذلك ، سـائلين المولى عـز وجل التوفيق :

المعـنى العـــام

لآيات المشهد الثالث من الآية ١٧ ـ الى الآية ٢٠

بعد أن حكى الله تعالى فى المشهد السابق اجماع الفتية على اعتزال قومهم جسديا ، كما اعتزلوهم قلبيـا ، شرع فى آيات هـذا المشهد يبين لنـا أن الفتيـة قد نفـذوا ما عليـه أجمعوا ، حيث أووا الى كهف فى

---

(٤٨) انظر : تفسير الجمل : ١٥/٣ ، والآية ٧٣ من سورة طـه .

أحد الجبال ، ولأنهم دعوا الله مخلصين له الدين ، ولأنهم رجوا من بارئهم أن ينشر لهم فى هذا الكهف من رحمته الخاصة ، وأن يهيىء لهم من أمرهم مرفقا ، فان يد العناية الالهية قد امتدت اليهم ، وان عين العناية الربانية قد لاحظتهم ، فاذا بالله يبعث عليهم نوما عميقا ، حتى يهدأ روعهم ، ويستريحوا من أذى قومهم ، وظلم ملكهم ، الى أن يأذن الله بافاقتهم مرة أخرى ليعلم الناس أن وعد الله حق ، وأن الساعة لا ريب فيها .

وتبدأ آيات هذا المشهد بتصوير الفتية ، وهم نائمون فى كهفهم ، وبابراز آية من آيات الله ، وعلامة من علامات قدرته ، حيث تصور لنا كيف حجب الله عن الفتية أشعة الشمس مئات السنين وهم نائمون .

(وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين ، وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم فى فجوة منه) ، انها لمعجزة اليمين ، وتفعل نفس الفعل وقت غروبها ، حيث تتركهم منجهه ناحية الشمال ، وبذلك لا تمسهم طول النهار ، حتى لا تبلى ثيابهم أو تفسد أجسادهم ، انه لاعجاز في كل شىء ، فى الانامة الثقيلة ، وفى حجب الشمس عنهم ، بل وفى التعبير اللفظى فى حركة الشمس ذاتها ، حتى لكأنك تحس المشهد حاضرا أمامك !!

يقول السيد قطب رحمه الله تعالى فى كتابه التصوير الفنى فى القرآن ، وهو يعقب على جزء من هذا المشهد :

« أنقول : احياء المشهد ؟ ان المسرح الحديث بكل ما فيه من طرق الاضاءة ليعجز عن تصوير هذه الحركة المتماوجة ، حركة الشمس ، وهى (تزاور) عن الكهف عند مطلعها فلا تضيئه ، واللفظة ذاتها تصور مدلولها ، وتجاوزهم عند مغيبها فلا تقع عليهم :

ولقد تستطيع السينما بجهد أن تصور هـذه الحركة العجيبة التى تصورها الألفـاظ في سهولة غريبة »(٤٩) .

ثم يعقب الله تعـالى على انامتهم هـذه ، وعن حجب أشعة الشمس عنهم بان ذلك من آيات الله ، التى من استهدى بها هداه ، ومن أعـرض عنها ، واستحب العمى على الهدى أضـله وأغواه ، ولن يجد من دونه تعـالى وليـا مرشدا ، يتولى أمـره ويهديه الى ما فيـه عزته وسعادته فى الدنيـا ، وفلاحه ونجاحه فى الآخـرة .

ثم تستطرد آيات هـذا المشهد فى الحديث عن الفتية وهم نائمون ، فتصـور لنا هـذه المعجزة الالهيـة وذلك الكرم الربانى ، فبعد أن حجب الله عنهم أشعة الشمس كان يقلب أجسـادهم طوال سنوات نومهم ، تماما كما يتقلب الانسـان فى نومـه بارادته ، اراحـة لجسـده ، واستمتاعا بنومه ، حتى ليخيـل للرائى اذا رآهم أنهم مستيقظون ، فى حين أنهم نائمون لا يشعرون بشىء مما هو موجود فى هـذا الكون ، كما سخر الله كلبهم قـريبا من باب كهفهم ، أو على بابه ، مادا ذراعيه على الأرض حتى كانه يحـرسهم ، ليمـلا بالرعب قلب من يقتـرب من باب هـذا الكهف ، بل ان الله تعـالى ـ حفظا لهم ، وصيانة لأجسـادهم أن تمس بسـوء ، الى أن يوقظهم ، ويحقق الهدف من فعـله هـذا الفعل معهم ـ ألقى عليهم من المهابة ما يجعـل من يطلع عليهم يولى الأدبار ، فى غاية السرعة والفـرار ، لمـا ملأ قلبه من رعب وخوف وفزع .

ولمـا أراد الله تعـالى اظهار الحكمة من هـذه القصـة أيقظ هؤلاء الفتيـة من انامتهم الثقيـلة بعد مئـات السنين ، وكانت هذه الافاقة آية

---

(٤٩) التصوير الفنى فى القـرآن : ١٥٧ .

من آياته تعــالى ، كما كانت الانامة أيضــا آية من آياته ، لذلك قال الله تعــالى : (**وكذلك بعثنــاهم**) ، أى كما أنمنــاهم هــذه السنين الطويلة بقدرتنا ، لا يأكلون ولا يشــربون ، بعثناهم من هــذه الانامة بقــدرتنا أيضــا .

ثم تسجل لنــا الآيات ما دار من حوار بين الفتيــة فى هذا الكهف ، فكان أول شىء تكلموا عنــه هو مدة لبثهم ، فكأنهم شعروا بتلك المــدة الطويلة فى النوم فتســاءلوا ، كم لبثتم ، فقال بعضهم : لبثنــا يومــا أو بعض يوم ، ولمــا لم يهتدوا الى تحــديد يقينى فوضوا الأمــر فى ذلك الى الله كما هى عادتهم من يوم ان اختــاروا دينه ، واتبعــوا شريعته ، ثم شرعوا فى الحديث عن أهم شىء يحتاج اليه الانســان بعد نومه فــترة طويلة ، انه الحــاجة الى الطعــام ، اقترحوا أن يرسلوا أحــدهم الى المدينة لاحضــار أطيب الطعــام وأحله ، كما هو شــأن طعام المسلمين ، وأوصــوا مبعوثهم هــذا بالترفق فى المشى والمعــاملة ، والتحــدث مع النــاس ، حتى لا ينكشف سرهم ، ويفشى خبرهم ، ويطلع عليهم أحد : لأنه ان حدث ذلك فسوف يكون الثمن غاليــا ، أغلى ثمن فى الدنيــا ، اما اخــراج الروح من الجســد ، واما اخراج الاســلام من القلب (**إنهم إن يظهــروا عليــكم يرجمــوكم أو يعيــدوكم فى ملتهم**) ، ولــا كان عندهم اخــراج الروح من الجسد أهــون من اخراج الاســلام من القلب علقوا على اخــراج الاسـلام من القلب بقــولهم : (**ولن تفلحــوا إذاً أبدا**) ... ، ولذلك فقد شددوا فى الوصية على مبعوثهم أشد ما يكون ، حتى يدوم لهم ايمانهم الذى من أجله تركوا الأحباب والأخلاء ، وهجروا لذيذ الطعام ، ونعيم العيش ، حتى اذا ما انتهت آجالهم انتهت بالحسنى ، ويكونون على الدين وبالدين عاشوا ، وعليه ومن أجله ماتوا ، فاذا ما أتوا أمام الواحد الديان أتوه بقلب سليم ، وبوجوه مسفرة ضاحكة مستبشرة .

فياترى ماذا فعل رسولهم حينما ذهب الى المدينة ، هل احتك باحد ، أو شعر به الناس أو رجع الى الكهف من غير أن يحس بشأنه انسان ؟ ذلك ما تجيب عليه الآية الخاصة بالمشهد الرابع ، والذى سيأتي بعد بيان العبر المستفادة من هذا المشهد الثالث ان شاء الله تعالى .

العبـــر المستفـــادة
من المشهـد الثـالث
من الآية (١٧) الى الآية (٢٠)

تستوقفنا آيات هـذا المشهد أمام عـدة أمـور يجب على المسلم أن يقف أمامها مليـا ، من هـذه الأمـور :

أولا : أن الله تعـالى لا يتخلى عن عبـاده المتقين فى وقت الشدة ، ما داموا قد طبقوا شرعه ، وأخلصوا له الدين ، فهؤلاء الفتية ، قد هجروا الأحباب والأوطان ، وتركوا ناعم اللبـاس ، وهنىء الطعـام ، من أجل هـذا الايمان الذى زرعوه فى قلوبهم ، وأووا الى هـذا الكهف داعـين ربهم أن ينشـر عليهم من رحمتـه ، وان ييسر لهم أمـرهم ، فما كان من الله الا أن استجاب دعاءهم ، وارسـل عليهم نوما ثقيـلا آمنـة منـه ، مئات السنين ، وحجب عنهم أشعة الشمس ، وقلبهم يمينـا وشـمالا ، وألقى عليهم مهـابة شديدة ، بحيث لو اطلع عليهم أحد لولى فـرارا ، وجعـل كلبهم باسـطا ذراعيه قـريبا من باب الكهف أو على البـاب ، كأنه يحـرسهم .

وفى هـذا درس واضح ، وعبرة ظاهرة لكل ذى لب أن من كان مع الله كان الله معـه ، وأن من يتق الله يجعـل له مخرجا ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ، وفى ذلك رد على الأقطـار الاسـلامية التى تعطـل شرع الله مخـافة أعداء الله تعـالى .

ثانيا : يقودنا قوله تعالى (**وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد**) الى بيان حكم الاسلام فى اقتناء الكلب ، خاصة وقد رأينا فى بلاد المسلمين اليوم الكثير ممن يتشبهون بالكفار باقتناء الكلاب فى البيوت والسيارات والطرق والأندية والمحلات .

والحقيقة أن الشرع قد نهى عن اقتناء الكلاب ، لترويعها المسلمين ، وتشويشها عليهم بنباحها ، ولمنعها الملائكة من دخول البيوت ، ولما يترتب عليها من نجاسة الأشياء التى تخالطها بلعابها أو ببولها ، أو بذاتها هى ، كما هو مذهب الشافعى ، وجاءت الأحاديث فى أول الأمر تامر بقتلها ، خاصة الكلب الأسود ، وتنص على أن من اقتنى هذه الكلاب نقص من أجره كل يوم قيراطان ، ولم يستثن من هذا النهى الا كلب الصيد ، أو كلب الحراسة .

قال ﷺ : « من اقتنى كلبا الا كلبا ضاريا لصيد ، أو كلب ماشية فانه ينقص من أجره كل يوم قيراطان »(٥٠) .

وعن جابر بن عبد الله قال : امرنا رسول الله ﷺ بقتل الكلاب : حتى أن المراة تقدم من البادية يكلبها فنقتله ، ثم نهى النبي ﷺ عن قتلها ، وقال : عليكم بالأسود البهيم ذى النقطتين فانه شيطان »(٥١) .

ثالثا : فى اصطحاب الفتية معهم نقود من فضة دليل على أن التوكل على الله لا يعنى عدم الأخذ بالأسباب ..

---

(٥٠) أخرجه البخارى فى كتاب الذبائح والصيد ، باب من اقتنى كلبا ، ومسلم فى كتاب المساقاة ، باب الأمر بقتل الكلاب ، والنسائى فى كتاب الصيد ، باب الرخصة فى امساك الكلب للصيد ، والكلب الضارى هو المعلم .

(٥١) أخرجه مسلم فى نفس الموضع السابق ، وأبو داود فى كتاب الصيد ، باب اتخاذ الكلب للصيد وغيره .

فيجب أن يكون مفهوما لدى كل مسلم أن الله تعالى وان كان قد تكفل برزق كل مخلوق الا أنه قد أجرى سنته فى هذا الكون على سنن معينة ، وقوانين محددة ، فجعل الأكل سببا فى حصول الشبع ، والشرب سببا فى حصول الرى ، والنار سببا فى الاحراق ، وهكذا ، وأن الله تعالى أمر الانسان بالأخذ بالأسباب بما يكفل له عزته وكرامته ، ويحفظ له هيبته ومكانته ، ولكن ليعلم المسلم أن ارتباط الأسباب بالمسببات انما هو بيد الله وحده ، ألم تر كيف فعل ربك بنار ابراهيم ؟ انها لم تفعل شيئا ، بل كانت بردا وسلاما ، وعلى ذلك يكون اعتقاد المؤمن حتى يتميز عن اعتقاد غيره ، فان جاءت النتائج وفقا لما فعلنا من أسباب فذلك خير ، والا فان لله حكمة فى ذلك ، وهى أيضا خير للمؤمن ، المهم أن نأخذ بالأسباب ولا نتكل على أن الله قد قدر الأرزاق ، وانتهى من كتابة كل شىء ، والدليل على ذلك فعل الرسول ﷺ وصحابته الكرام حيث كانوا يعملون للدنيا والآخرة ، مع ايمانهم اليقينى بأن الله قدر لهم أرزاقهم ومع ثقتهم بوعد الله فى دخول الرسول ﷺ الجنة ، هو ومن بشرهم بذلك .

رابعا : يشير قوله تعالى : (**إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم**) : الى أن طبيعة الكفار واحدة فى مختلف العصور والأمكنة .

قديما قال نوح : « **وإنى عذت بربى وربكم أن ترجمون** »(٥٢) ، وقوم لوط قالوا : « **أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون** »(٥٣) ، وقوم شعيب قالوا : « **لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا ، أو لتعودن فى ملتنا** »(٥٤) ، وعن خاتم

(٥٢) سورة الدخان : آية ٢٠ .
(٥٣) سورة النمل : آية ٥٦ .
(٥٤) سورة الأعراف : آية ٨٨ .

المرسلين يقول الله تعالى : « **وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها** »(٥٥) ، وعن كل الرسل جميعا يقول تعالى : « **وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا** »(٥٦) .

وهذا يوضح ما يكنه أى نظام جاهلى فى أى مكان وفى أى زمان للاسلام وأهله ، « ان الجاهلية لا ترضى من الاسلام أن يكون له كيان مستقل ، ولا تطيق أن يكون له وجود خارج عن وجودها ، وهى لا تسالم الاسلام حتى لو سالمها ، فالاسلام لابد أن يبدو فى صورة تجمع حركى مستقل ، بقيادة مستقلة ، وولاء مستقل ، وهذا ما لا تطيقه الجاهلية ، لذلك لا يطلب الذين كفروا من رسلهم مجرد أن يكفوا عن دعوتهم ولكن يطلبون منهم أن يعودوا فى ملتهم ، وأن يندمجوا فى تجمعهم الجاهلى وأن يذوبوا فى مجتمعهم ، فلا يبقى لهم كيان مستقل »(٥٧) .

وهذا واضح من التعبير بـ (فى) فى قول أصحاب الكهف : (**أو يعيدوكم فى ملتهم**) دون أن يقولوا الى ملتهم ، لانهم يعلمون أن قومهم لا يرضون منهم الا الاستقرار فى دينهم بالكلية ، لا أن يتظاهروا بالدخول فيه ، أو بالعودة الى بعضه فقط .

★ ★ ★

---

(٥٥) سورة الاسراء : آية ٧٦ .
(٥٦) سورة ابراهيم : آية ١٣ .
(٥٧) أنظر فى ظلال القرآن للسيد قطب رحمه الله : ٢٠٩٢/٤ .

المشهـد الـرابع

الاعثـار عليهم وحقيـة يوم القيـامة

قال تعـالى :

« وكذلك أعـثرنا عليهم ليعلمـوا أن وعـد الله حق وأن السـاعة لا ريب فيهـا إذ يتنـازعون بينهم أمـرهم ، فقالوا ابنـوا عليهم بنيـانا ربهـم أعـلم بهم ، قـال الذين غلبـوا على أمــرهم لنتخـذن عليهم مسجـدا (٢١) .. » .

معـانى المفـردات وأسرار التراكيب

هـذه الآية من تلك القصـة هى موطن العبرة والعظـة منها ، حتى يكون أمر الفتية من انامتهم هذه المدة الطويلة ثم افاقتهم منها دليلا على البعث بعد الموت ، وبرهانا على أن يوم القيـامة لا يشـك فى وقـوعه الا مجنون فقد عقـله ، أو أعمى طمس على قلبـه ، وفسدت فطـرته ، **« فإنها لا تعمى الأبصـار ولكن تعمى القـلوب التى فى الصدور »**(١) .

والكاف فى (كذلك) للتشبيه ، واسم الاشـارة يعود على ما سبق ، من الانامة الثقيـلة ، وبعثهم ، والانامة الثقيلة وبعثهم هو المشبه به ، أما المشبه فهو اعثـار الله النـاس عليهم .

ووجـه الشبه كون كل من الانامة الثقيـلة وبعثهم ، واعثـار الله الناس عليهم آية من آياته تعـالى ، الدالة على عظيم قدرته الباهرة وحكمته الظـاهرة .

أى : وكما أنمناهم هـذه السنوات الطوال ثم أيقظناهم منها أعثرنا النـاس عليهم ليعلمـوا أن وعد الله حق وأن السـاعة لا ريب فيها ، لأن ما حدث لهم شبيه بحال من يموت ثم يبعث .

---

(١) سـورة الحـج : آية ٤٦ .

رابعـا : يشـير قوله تعـالى : (إنهم إن أظهـروا عليكم يرجموكم

وقبل هــذا الـ كلام عدة جمل محذوفة ، على سبيل الايجــاز كما هو عــادة الأسلوب القــرآنى ، والتقدير : فبعثوا أحــدهم ، وتلطف ، ونظــر أيها أزكى طعــاما ، فعــرف النــاس أمــره ، فأطلع الله أهــل المدينــة عليهم •

« وأصــل العثور - كما قال الراغب - السقوط للوجه ، يقال عثر عثــورا وعثــارا اذا سقط لوجهه ، وعلى ذلك قولهم فى المثل : الجــواد لا يكاد يعثر ، وقولهم من سلك الجدد أمن العثــار ، ثم تجــوز به فى الاطــلاع على أمــر من غير طلبه •

وقال الامام المطرزى : « لمــا كان كل عاثر ينظر الى موضع عثرته ، ورد العثــور بمعنى الاطــلاع والعرفان ، فهو فى ذلك مجــاز مشهــور بعــلاقة السببية ، وان أوهم ذكــر اللغــويين له أنه حقيقــة فى ذلك ، وجعله الغورى حقيقة فى الاطلاع على أمــر كان خفيا »(٢) •

ومفعول (أعثرنا) محذوف ، لأنه قصــد به العموم ، والتقدير : أعــثرنا النــاس عليهم •

ولم يذكــر الله تعــالى هنا كيفية الاعثــار عليهم ، لعدم فائدة من ذكــرها ، حيث لا تمت الى العبرة من القصــة من قريب أو بعيد •

وقد أطال بعض المفسرين فى كتبهم فى ذكــر هــذه الكيفية ، حيث قال بعضهم ان مبعوث الفتيــة لمــا ذهب لاحضــار الطعام من المدينــة ، عرفه النــاس بطول شعره وأظفاره ، وبوجود آثار عجيبــة فى بشــرته ، تدل على أنه قد طالت مدته طولا خارجا عن العادة •

وقد رددنا على مثــل هــذا الكلام فى المشهد السابق ، وقلنا انهم لم يتغير فيهم شىء ، بل هم فى يوم افاقتهم كيوم دخولهم الكهف •

---

(٢) تفسير الألوسى : ١٥/٢٣٢ •

وبعض المفسرين يذكر أن مبعوث الفتية الى المدينة حينما ذهب ليشترى الطعام وأعطى النقود للبائع أنكرها ، وعرف أنها نقود زمن ولي من مدة طويلة ، فأخذه الى الملك حيث عرف أمره ، وأخذه معه الى الكهف ، حيث دخل المبعوث الى هذا الكهف وبمجرد دخوله أماته الله هو وأصحابه ، فحدث هذا التنازع .

وقد تكون هذه الكيفية صحيحة ، وقد تكون غير صحيحة ، حيث لم ترد من طريق معصوم ، ولكن المهم فى ذلك أن الله أعثر الناس على هؤلاء الفتية لتحقيق الغرض من الاعثار ، ألا وهو علم الناس بأن البعث حق ، وأن الساعة حق ، أما كيفية اطلاع الناس عليهم ، فذلك ليس من عرض القصة ، فلذلك أعرض الله عن ذكرها صفحا .

ثم بين الله تعالى الحكمة من هذه القصة كلها بقوله : (**ليعلموا ان وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها**) .

والضمير فى (ليعلموا) عائد على مفعول (أعثرنا) .

والعلم نقيض الجهل ، ورجل عالم وعليم ، وجمع عالم علماء ، ويقال علام أيضا .

والوعد يستعمل فى الخير والشر ، قال الأزهرى : كلام العرب وعدت الرجل خيرا ، ووعدته شرا ، وأوعدته خيرا ، وأوعدته شرا . فاذا لم يذكروا الخير قالوا وعدته ، ولم يدخلوا ألفا ، واذا لم يذكروا الشر قالوا أوعدته ، ولم يسقطوا الألف ، واذا أدخلوا الباء لم يكن الا فى الشر ، كقولك : أوعدته بالضرب ، وقال الأزهرى أيضا : الوعد والعدة فى الخير والشر .

والوعد فى الآية اما أن يراد به المصدر ، كما هو الظاهر ، واما أن يراد به اسم المفعول أى الموعود ، أى وعد الله بالبعث ، أو موعود الله

وهو البعث ، فيكون خاصا ، وقال بعضهم انه عام ، وعطف الساعة عليه من عطف الخاص على العام .

والساعة فى الأصل تطلق بمعنيين : **أحدهما** أن تكون عبارة عن جزء قليل من النهار أو الليل ، تقول : زرت قبر فلان ساعة من النهار ، أى وقتا قليلا منه ، **والثانى** : أن تكون عبارة عن جزء من أربعة وعشرين جزءا ، هى مجموع اليوم والليلة ..

ثم استعير لفظ (الساعة) وجعل اسما ليوم القيامة ، وجمع ساعة : ساعات ، وساع ، ويقال ساعة سوءاء : أى شديدة ، كما يقال ليلة ليلاء .

وسميت القيامة ساعة لقلة الوقت الذى تقوم فيه ، فما بعث الناس جميعا الا كنفس واحدة ، وصدق الله العظيم اذ يقول : « **ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة** »(٣) .

والريب : قلق النفس واضطرابها .

وهو ـ كما قال ابن الاثير ـ الشك مع التهمة(٤) .

قال سليمان الجمل فى تفسيره : « وليس قول من قال الريب الشك مطلقا بجيد ، بل هو أخص من الشك »(٥) .

فالله تعالى أعثر الناس على هؤلاء الفتية ، الذين ناموا مئات السنين ، لا يأكلون ولا يشربون ، كأنهم أموات ، ثم بعثهم من هذا النوم ، حتى يعلم الناس علم اليقين أن من فعل هذا قادر على أن يحقق ما وعد به من البعث بعد الموت ، فالأمران متشابهان وكما يقولون :

---

(٣) سورة لقمان : آية ٢٨ .
(٤) لسان العرب : (ريب) .
(٥) الفتوحات الالهية ٢/١٢ .

النوم أخو المـوت ، لا سيما وان طال النوم حتى بلغ مئـات السنين ، وحتى يعلم النـاس أن يوم القيـامة آت لا ريب فيهـا ، حتى يجـازى الناس على أعمالهم ، لا يرتاب فى ذلك انسـان سليم الفطرة ، سـوى التفكـير ...

وقوله تعـالى : **(إذ يتنـازعون بينهم أمـرهم)** .

أصـل التنازع : التجاذب ، يقال : انتزع الشىء بمعنى اقتلعـه . ويعبر به عن التخاصم ، لمـا فى الخصومة من مجـاذبة الحجج ، فيما يختلف عليـه الخصمان ، والضمـير فى قـوله (بينهم) يعـود على أهـل المدينـة .

أما فى قوله تعـالى (أمـرهم) ، فقد انقسم المفسرون الى فريقين فى ذلـك :

١ - فريق يقول : انه يعـود على أهل المدينـة ، حيث كانوا يتنازعون ويختصمون فى أمـر البعث بعد المـوت ، فبعضهم كان ينكـره ، وبعضهم كان يؤمن به ويقـره ، فكانت هـذه الواقعة دليلا حيـا صـادقا على صدق ما يعتقده .

٢ - أما الفـريق الآخـر من المفسرين فيقول : ان الضمير فى (أمرهم) يعود على الفتيـة ، أى أن أهل المدينة تنازعوا فى أمر الفتية .

وهـذا الفريق من المفسرين - رغم اتفاق أصحابه على عود الضمير الى الفتيـة - الا أنهم اختلفوا فى هـذا الأمـر الخاص بالفتيـة ، والذى تنـازع فيه أهـل المدينة .

(أ) فالبعض قـال : ان التنـازع كان فى قدر لبث أهـل الكهف فى كهفهم نائمين .

(ب) والبعض قال : ان التنازع كان فى عدد أصحاب الكهف وفى أسمائهم .

(حـ) والبعض قال : ان التنازع كان فى كيفية تدبير أمـر الفتيـة بعد وفاتهم ، وكيف يعظمون قدرهم ، ويرعون حرمتهم ٠

(د) والبعض قال : ان التنـازع كان فى خفاء حالهم بعد الاعثار عليهم ، هل ناموا كما ناموا أول مـرة ، أو ماتوا ، وانقضت أعمارهم ، كما تنقضى آجال النـاس ٠

وعلى هـذا تكون (اذ) معمـولا لفعـل محذوف تقديره : اذكر ، أو ظـرفا لقوله تعـالى : (**قال الذين غلبـوا على أمـرهم**) ، ويكون قوله تعـالى : (فقـالوا) معطوفا على (يتنازعون) ٠

ثم ذكـر الله تعـالى ما حدث من أهل المدينـة حينما وقفوا على باب الكهف ورأوا أن الفتيـة قد ماتوا ، فقال : (**فقـالوا ابنـوا عليهم بنيـانا ، ربهم أعـلم بهم ، قـال الذين غلبـوا على أمـرهم لنتخـذن عليهم مسـجدا**) ٠

والفـاء فى قـوله تعـالى (فقـالوا) فاء الفصيحة ، والفعـل (قالوا) معطوف على الفعـل (يتنازعون) ، وايثـار صيغة المـاضى للدلالة ـ كما قال أبو السعود (٦) ـ على أن هـذا القـول ليس مما يستمر ويتجـدد كالتنـازع ٠

وقوله تعـالى : (**ربهم أعـلم بهم**) ، يجـوز أن يكون من كلام المتنازعين ، حيث فوضوا أمـرهم الى الله تعـالى حينما لم يهتدوا الى حقيقة ما تنازعوا فيـه ، وقد يكون من كلام الله عز وجل ، ردا لقـول المتنازعين فى أمـرهم فى أى وقت من الأوقات ٠

أما الفريق الآخر وهم الذين غلبوا على أمـرهم فعزموا على اتخاذ مسجد عليهم ٠ أى بنـاء موضـع للعبـادة على كهف هؤلاء الفتية ٠

---

(٦) في تفسيره : ٣/٢٤٧ ٠

والغلبة فى اللغة بمعنى القهر ، غلبه يغلبه غلبا ، وغلبا ، بفتح الغين وسكون اللام أو فتحها ، وهى أفصح ، وغلبة ، ومغلبة ، ومغلبا ، وغلبى بضم الأول والثانى ، وغلبى بالكسر فيهما ، وغلبة بالضم فيهما ، وغلبة بالفتح فى الأول والضم فى الثانى : أى قهره ٠

والمراد بالذين غلبوا على أمرهم الذين كانت لهم الكلمة النافذة ، والسلطان المسلط ، وذلك ينحصر فى ملكهم ورؤساء البلد ، وهذا يدل - كما قال الزجاج - أنه لما ظهر أمر الفتية غلب المؤمنون بالبعث ، لأن المساجد انما تكون للمؤمنين به (٧) ٠

وهكذا ينتهى الأمر بهؤلاء الفتية الى اعثار الله الناس عليهم بعد هذه المئات من السنين ، حتى يوقن الناس بالبعث بعد الموت ، وبأن يوم القيامة لا ارتياب فى وقوعه ، ثم يميت الله هؤلاء الفتية فيقوم أولو السلطان والغلبة بناء مسجد على كهفهم ٠٠٠

وحول قضية بناء المساجد على القبور لنا كلام ان شاء الله ، بعد المعنى الاجمالى لآية الاعثار عليهم ٠

المعنى العام للمشهد الرابع
الآية (٢١)

وبعد أن أرسل الفتية أحدهم الى المدينة ليشترى لهم أزكى طعام وأوصوه بالتلطف فى المعاملة مع الناس ، حتى لا ينكشف سرهم ، ويطلع قومهم عليهم فيكون مآلهم اما القتل رجما ، واما العودة الى دين الكفر والاصنام ، ذهب هذا المبعوث الى المدينة ، ولكى تتم ارادة الله كان لابد من أن يطلع الناس على أمر هؤلاء الفتية ، فانكشف سرهم ، بطريقة لم يرد فى القرآن أو فى السنة ما يوضحها ، لأن هذا ليس من غرض القصة ، وانما غرض القصة أن يقف الناس على حقيقة

---

(٧) تفسير الألوسى : ٢٣٦/١٥ ٠

تنازع الناس فيها قديما وحديثا ، وهى فى الواقع لدى القلوب السليمة والعقول السوية ، لاتحتاج الى مناقشة ، لأنها تتعلق بقدرة الله تعالى ، وحيث كان الأمر كذلك فلم الاستبعاد ؟ ولم الانكار ؟

هذه القضية قضية البعث بعد الموت ، فأراد الله تعالى أن يرى الناس مثلا حيا لقدرته تعالى على الاحياء بعد الاماتة ، فكانت قصة الفتية الذين أنامهم الله مئات السنين وأصبحت قصتهم حديث الناس ، فأعثرهم الله عليهم ليوقنوا أن يوم القيامة لا ريب فيه ، وأن الذى بعث الفتية بعد هذه المئات من السنين لقادر أن يبعث الخلق أجمعين .

ولما وقف الناس على باب الكهف اذا بالله تعالى يميت الفتية ، لأن آجالهم قد حلت ، والعبرة من أمرهم قد ظهرت ، فاختلف الناس فى أمر تكريمهم وتقديرهم ، فاقترح البعض أن يبنوا عليهم حائطا ، حتى لا يمتد اليهم عبث العابثين ، أو يؤذيهم شىء من سباع الارض ، وينال منهم ، ولكن الذين كان بيدهم الأمر والنهى لم يكتفوا بذلك ، فقالوا ان هذا لا يكفى - فى نظرهم - فى تقدير وتكريم هؤلاء الفتية ، فامروا ببناء مسجد عليهم ، يقصده الناس ، فيتذكرون الفتية وأمرهم حتى لا يكونوا نسيا منسيا .

العبر المستفادة
من المشهد الرابع
الآية (٢١)

كما قلنا سابقا : ان هذه الآية تمثل العبرة المرجوة من قصة هؤلاء الفتية ، حتى يعلم الناس أن وعد الله ببعث الناس بعد الموت حق ، وأن الساعة لا يشك فيها عاقل ، أو يمارى فيها أحد .

ولنا أمام هذه الآية الكريمة وقفتان ، الأولى حول البعث ، والثانية حول بناء المساجد على قبور الصالحين .

أولا : البعث بعد المـوت

قضية الايمـان بالبعث من أخطر القضـايا التى واجهت رسل الله وهم يدعـون أقوامهم الى دين الله تعـالى ، ومن ثم نجدها قرينة لقضية الايمان بالله تعـالى ، وبلغت خطورتها وأهميتها الى الحد الذى جعـل القـرآن الكريم قلما تخلو منه سـورة تتحدث عنها ، بل وجدنا الكثيـر من السـور لا تتحدث الا عن هـذه القضية فقط ، ولقد وجدنا القـرآن كله مكيه ومدنيه يتحدث عن هـذه القضية ، مما يدل على أن الحديث عنهـا ليس خاصـا بالرد على من ينـكر البعث بعد الموت ، وانما هى قضية تؤثر على سـلوك الانسـان كله فى حياته ، انها ضرورة ايمانية ، كما أنها ضـرورة سلوكية .

واذا كان القـرآن الكريم قد استدل على امكان البعث بعد الموت بايقاظ الفتيـة بعد ان ناموا مدة زادت على الثلاثمائة سنة ، فان ذلك لأن النوم أخو الموت ، وقد أطلق الله عليـه لفظ الوفاة .

قال تعـالى : « **وهو الذى يتوفـاكم بالليـل ويعـلم ما جـرحتم بالنهـار ثم يبعثـكم فيه ليقضى اجـل مسمى ثم إليـه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتـم تعمـلون** »(٨) ، ومن اذكار الرسـول ﷺ عند الاستيقـاظ « الحمـد لله الذى أحيـانا بعد ما أماتنا وأليه النشـور »(٩) .

ان فى وقوع البعث تكريما للانسـان ، وعدلا بين بنى البشر .

أما كونه تكريما للانسـان ، فان هـذه الدنيـا لو كانت كما يقول

---

(٨) سـورة الأنعـام : آية ٦٠

(٩) أخرجه البخارى فى كتاب الدعوات ، باب ما يقول اذا نام ، ومسلم فى كتاب الذكر ، باب ما يقول عند النوم .

المنكرون ما هى الا أرحام تدفع وأرض تبلع ، لكانت عبثـا ، وكان كل جهد فيها ضـائعا ، وكان الانتحـار أفضـل من الاستمرار فيها .

ولقد أصـاب الشيخ محمد الغـزالى حينما وصف هؤلاء المنـكرين للبعث بقوله : « انهم يظنون أنهم مربوطون بأعبـاء الحيـاة كما تربط الحمير بعربات القمامة ، تظـل تدور بها حتى يغلبها الاعيـاء ، وتدركها الشيخـوخة فتمـوت حتف أنفهـا ، أو يطلـق عليهـا الرصـاص ثم لا شىء »(١٠) .

أما كون البعث عدلا لبنى البشـر : فان واقعنا يشهد بوقوع ظلم من بعض البشر لبعضهم ، وكثيرا ما تعلو الرذيلة على الفضيلة ، وينتصـر الشر على الخير ، ودعاة الباطل على أهـل الحق ، أفيكون من العدل أن تنتهى هـذه الحياة بدون أن تكون هنـاك آخـرة ، فيها يقف الكل أمام الواحـد الديان ، وينـال الصـالحون جـزاء ما عملوا من خير ، وما قدموا من صـالح ، ويجد المفسدون الطغاة جـزاء فسادهم وافسادهم وطغيـانهم ؟

ولقد سلك القـرآن الكريم فى استدلاله على امكان البعث ووقوعه عدة مسالك ، ونوع الأدلة حتى لا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل :

لقد استدل بخلق الانسـان فقال : « **يا أيهـا النـاس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقنـاكم من تراب ثم من نطفـة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة مخلقـة وغير مخلقـة** »(١١) .

واستدل بخلق السموات والأرض : « **أو لم يروا أن الله الذى خلـق**

---

(١٠) عقيدة المسلم : ٢٨٠ .
(١١) سـورة الحـج : آية ٥ .

السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقــادر على أن يحيى المــوتى ؟ بلى إنه على كل شىء قــدير »(١٢) ٠

واستدل بقياس الاعــادة على البدء : « وهو الذى يبــدأ الخلــق ثم يعيــده وهو أهــون عليــه »(١٣) ٠

واستدل بما تحدثنا عنه آنفــا بأن العدل يقتضى ذلك : « ليجــزى الذين أســاءوا بما عمــلوا ويجــزى الذين أحسنوا بالحســنى »(١٤) ٠

الى غيــر ذلك من أنواع الأدلة التى تندرج كلهــا تحت قــدرة الله تعالى ، وعلمــه ، وعــدله ، وتحقيق انســانية الانســان وكرامته ، كما تقضى قضية تفضيله على ســائر المخلوقات وجعــله سيدا لهــا ، وليس كحشرة تعيش ثم تموت ، أو حيوان عفــا عليه الزمان فمات حتف أنفه ، أو أطلق عليه الرصــاص ، ولا شىء بعد ذلك ٠٠

ثانيــا : بنــاء المســاجد على قبور الصالحين

جاء فى هــذه الآية الكريمة أن الذين غلبوا على أمــرهم قالوا : (لنتخــذن عليهم مسجدا) ، ونتيجة لهــذا القول من الذين غلبوا على امرهم اتــخذت الكثرة الكاثرة من المسلمين مســاجد على قبور الصالحين ، واتخــذوا عليها الســرج ، فياترى : ما موقف الاسلام من هذا كله ؟

أقول : لقد ورد التحريم المؤبد لاتخاذ هــذه المســاجد على القبور ، ولبنــاء هــذه الأضرحة والقبور المرتفعــة ، وتعظيمها بايقــاد الأنوار فيهــا ، والطواف حولهــا ، والتبرك بها ، بل أتت الأحــاديث بهــدم ما بنى منهــا ٠

---

(١٢) ســورة الأحقاف : آية ٣٣ ٠
(١٣) ســورة الــروم : آية ٢٧ ٠
(١٤) ســورة النجم : آية ٣١ ٠

روى البخارى ومسلم عن عائشة أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأينها بالحبشة فيها تصاوير ، فذكرتا للنبى ﷺ ، فقال : « ان أولئك اذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجدا ، وصوروا فيه تلك الصور ، فأولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة »(١٥) .

وأخرج البخارى ومسلم عن عائشة أيضا أن رسول الله ﷺ قال فى مرضه الذى مات فيه : « لعن الله اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، قالت ولولا ذلك لأبرزوا قبره ، غير أنى اخشى أن يتخذ مسجدا »(١٦) .

وقال ﷺ فيما يرويه مسلم وغيره : « لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا اليها »(١٧) .

وروى مسلم وغيره عن أبى الهياج الأسدى قال : « قال لى على ابن أبى طالب : الا أبعثك على ما بعثنى عليه رسول الله ﷺ ؟ أن لا تدع تمثالا الا طمسته ، ولا قبرا مشرفا الا سويته »(١٨) .

ونكتفى فى هذه العجالة بهذا القدر ، فان فيها كفاية فى التدليل على تحريم اتخاذ القبور مساجد ، واقامة الأضرحة للصالحين ، للطواف حولها والتبرك بها ، واتخاذ الأنوار فيها .

---

(١٥) أخرجه البخارى فى كتاب الصلاة ، باب تنبش قبور مشركى الجاهلية ، ومسلم فى كتاب المساجد ، باب النهى عن بناء المساجد على القبور .

(١٦) أخرجه البخارى فى كتاب الجنائز ، باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور ، ومسلم فى نفس مصدر الحديث السابق .

(١٧) أخرجه مسلم فى كتاب الجنائز ، باب النهى عن الجلوس على القبر والصلاة اليه .

(١٨) أخرجه مسلم فى كتاب الجنائز : باب الامر بتسوية القبر .

جاء فى تفسير الامام الآلوسى : « وذكر ابن حجر فى الزواجر أنه وقع فى كلام بعض الشافعية عد اتخاذ القبور مساجد ، والصلاة اليها ، واستلامها ، والطواف بها ، ونحو ذلك من الكبائر ، وكأنه أخذ ذلك مما ذكر من الأحاديث ، واتخاذ القبر مسجدا معناه الصلاة عليه أو اليه .

نعم انما يتجه هذا الأخذ ان كان القبر قبر معظم من نبى أو ولى ، كما أشارت اليه رواية (اذا كان فيهم الرجل الصالح) ، ومن ثم قال أصحابنا : تحرم الصلاة الى قبور الأنبياء والأولياء ، تبركا واعظاما ، فاشترطوا شيئين : أن يكون قبر معظم ، وأن بقصد الصلاة اليها ؛ ومثل الصلاة عليه التبرك والاعظام ، كايقاد السرج عليه والطواف به .

وقال بعض الحنابلة : قصد الرجل الصلاة عند القبر متبركا به عين المحادة لله تعالى ورسوله ﷺ ، وابداع دين لم يأذن بالله عز وجل ، فان أعظم المحرمات وأسباب الشرك الصلاة عندها ، واتخاذها مساجد ، أو بناؤها عليه ، وتجب المبادرة لهدمها ، وهدم القباب التى على القبور ، اذ هى أضر من مسجد الضرار ، لأنها أسست على معصية رسول الله ﷺ ، لأنه عليه الصلاة والسلام نهى عن ذلك ، وأمر بهدم القبور المشرفة ، وتجب ازالة كل قنديل ، أو سراج على قبر ، ولا يصح وقفه ولا نذره .

الى أن يقول الآلوسى : « وكيف يمكن أن يكون اتخاذ المساجد على القبور من الشرائع المتقدمة مع ما سمعت من لعن اليهود والنصارى : حيث اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، وليس فى الآية أكثر من حكاية قول طائفة من الناس وعزمهم على فعل ذلك ، وليست خارجة مخرج المدح لهم ، والحض على التأسى بهم »(١٩) .

وإذا كنا هنا نقـول بوجوب هدم هـذه الأضرحة والقبور المشرفة ، فان هـذا لا يعنى أن يقوم بهذا الهدم كل صغير وكل كبير ، بلا ضوابط تضبطـه ، بل يجب أن يكون تحت اشـراف من بيدهم الأمـر ، حتى لا تكون فتنـة في الأرض وفسـاد كبير ، لذلك قال الآلوسى عليه رحمـة الله : « وينبغى لكل أحـد هدم ذلك ، ما لم يخش منـه مفسدة ، فيتعين الرفـع للامام »(١٩) .

* * *

(١٩) انظر تفسير الآلوسي : ١٥/٢٣٧ - ٢٣٩ .

المشهد الخامس
مراء في عددهم ، وتوجيه رباني في شأنهم

قال تعالى :

« سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ، ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم ، قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل ، فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهرا ولا تستفت فيهم منهم أحدا (٢٢) ••• » •

معاني المفردات وأسرار التراكيب

بعد أن أخبر الله تعالى رسوله ﷺ بما حدث لأهل الكهف شرع يخبره في هذه الآية بما سيحدث من خلاف في عدد هؤلاء الفتية ، فقال (**سيقولون ثلاثة** ••) الآية ، واختلف العلماء في تحديد من هم القائلون على النحو التالي :

١ ـ فذهب البعض الى أن القائلين نصارى نجران ، حينما تناظروا مع رسول الله ﷺ في عددهم ، حيث قالت الملكانية الجملة الأولى ؛ واليعقوبية الجملة الثانية ، والنسطورية الجملة الثالثة •

٢ ـ وذهب البعض الى أن القائلين هم اليهود الذين عاصروا رسول الله ﷺ •

٣ ـ وقال أبو حيان : « الظاهر أن الضمير في (سيقولون) عائد على من تقدم ذكرهم وهم المتنازعون في حديثهم ، قبل ظهورهم عليهم ، فأخبر تعالى نبيه بما كان من اختلاف قومهم في عددهم »(١) •

وأرى أن هذا القول من امامنا الفاضل قول ضعيف ، لوجود

---

(١) البحر المحيط : ٦/١١٣ •

السين فى (سيقولون) وهى - كما هو ظاهر - ترجح أن هـذا القول سيقع فى المستقبل ، وليس حكاية عما حدث للمتنازعين من قوم أهل الكهف قبل الاعثار عليهم ، واختلافهم فى كيفية تكريم الفتيـة ، وحفظهم من كل سـوء .

٤ - وذهب البعض الى أن الضمير فى (سيقولون) راجع الى اليهود ، وفى (يقولون) التى بعدها للنصـارى ، وفى (يقولون) الأخيرة للمسلمين ، حيث سيعرفون ذلك من الرسول ﷺ .

٥ - وذهب البعض الى أن الضمير فى (سيقولون) للسيد ، وهو من نصـارى نجران ، وكان يعقوبيا ، والضمير فى (يقولون) التى بعدها للعاقب ، وكان من نصارى نجران أيضا الا أنه كان نسطوريا ، والضمير فى (يقولون) الأخـيرة للمسلمـين .

وانما عبر عن السيد بسيقولون ، وعن العاقب بيقولون ، لموافقـة جماعة من النصـارى لكل واحد منهما ، وكان ذلك أثنـاء قدوم وفد من نصـارى نجران على رسول الله ﷺ .

وانما جىء بالسين فى الفعـل الأول دون الفعلين الآخـرين : لأنهما داخلان فى حكمه حيث المـراد بالكل الحدوث فى المستقبل ، كما تقول : قد أسافر وأحضـر ، تريد التوقع للفعلين معـا ، وليس الأول فقط .

وقولهم : (ثلاثة) خبر لمبتدأ محذوف ، والتقدير هم ثلاثة ، وكذلك الحـال فى خمسة ، وسبعة ، وجمـلة ، (رابعهم كلبهم) مبتدأ وخبر ، صفة لثلاثة ، وكذلك الجملتان الأخـريان (سادسهم كلبهم ، وثامنهم كلبهم) .

ومعنى رابعهم كلبهم : أى جاعلهم أربعـة بانضمامه اليهم ، وكذلك فى سادسهم وثامنهم ، أى جاعلهم ستة ، وجاعلهم ثمانية ، بانضمامه اليهم .

وعلى ذلك فتمييز العدد هنـا مقدر بالأشخاص وليس بالرجال ، حتى يصح دخول الكلب فى عددهم ، وذلك لاختلاف الجنسين •

قال الآلوسى : « وعدم اشتراط اتحاد الجنس فى مثـل ذلك يأباه الاستعمال الشائع ، مع كونه خـلاف ما ذكـره النحاة ، والقـول بأن الكلب بشرف صحبتهم ألحق بالعقـلاء تخيل شعرى »(٢) •

ثم عقب الله تعـالى على من قال ثلاثة رابعهم كلبهم ، وعلى من قال خمسـة سادسهم كلبهم بقوله : **(رجما بالغيب)** •

والرجم هو الرمى ، ويستعمل فى القول بالظن والتخمين، والغيب: ما غاب عن الانسـان ، فالرجم هنا وضـع موضـع الظن ، أى يقولون ذلك ظنا بالغيب ، كما جاء فى قول زهير :

وما الحـرب الا ما علمتـم وذقتـم

وما هـو عنهـا بالحـديث المـرجم

أى : المظنـون •

و (رجمـا) مفعول مطلق لفعـل محذوف ، والتقدير يرجمـون رجمـا ، أو لـ (سيقولون) و (يقولون) لأن الفعـل متضمن معنى يرجمون ، أو هو مفعول لأجـله ، أى قالوا ذلك لرجمهم بالغيب .

ثم حكى الله قولا ثالثا فى عدد أهـل الكهف بقوله : **(ويقـولون سبعة وثامنهم كلبهم)** ••• وحول هذه الواو الداخلة على كلمة (ثامنهم) دار نزاع بين العلمـاء••

١ ـ قال الزمخشرى : هى الـواو التى تدخـل على الجمـل الواقعـة صفة للنكرة ، كما تدخل على الواقعة حالا من المعرفة ، فى نحـو

---

(٢) تفسير الآلوسى : ١٥/ ٢٤٥ •

قولك : جاءنى رجل ومعه آخـر ، ومررت بزيد وفى يده سيف ؛ ومنه قـوله تعـالى : « **وما أهلكنـا من قـرية إلا ولهـا كتـاب معـلوم** »(٣) •

وفائدتهـا : تأكيد لصـوق الصفة بالموصوف ، والدلالة على أن اتصـافه بها أمـر ثابت ومستقر •

وهـذه الواو هى التى آذنت بأن الذين قالوا : (**سبعة وثامنهم كلبهم**) قـالوه عن ثبات عـلم ، وطمأنينة نفس ، ولم يرجمـوا بالظن كما رجم غيرهم •

والدليـل عليه : أن الله سبحانه أتبـع القـولين الأولين قوله : (**رجمـا بالغيب**) وأتبـع القول الثالث (**ما يعلمهم إلا قليل**) •

وقال ابن عباس رضى الله عنه : « حين وقعت الواو انقطعت العدة » أى لم يبق بعدها عدة عـاد ، يلتفت اليهـا ، وثبت أنهم سبعـة وثامنهم كلبهم ، على القطع والثبات »(٤) •

وعقب أبو حيان فى تفسيره على رأى الزمخشرى بقوله :

« يكفى ردا لقول الزمخشرى أنا لا نعلم أحدا من علمـاء النحو ذهب الى ذلك »(٥) •

وقد دافع الآلوسى عن رأى الزمخشرى دفاعا مستفيضا ، فمن أراد الاطلاع عليـه فليرجع الى تفسـيره •

٢ ـ وذهب البعض الى أن هـذه الـواو هى واو الثمـانية ، أى التى تدخل على العـدد الثامن •

---

(٣) سـورة الحجـر : آية ٤ •
(٤) الكشاف : ٧١٣/٢ ، ٧١٤ •
(٥) البحر المحيط : ١٠٥/٦ •

وأوردوا ـ لصحة استدلالهم هذا ـ ثلاث آيات من القرآن الكريم :

الأولى : قوله تعالى : « **والناهون عن المنكر** »(٦) ، وقالوا : ان هذا هو العدد الثامن من الأعداد المذكورة .

الثانية : قوله تعالى فى الجنة : « **حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها** »(٧) ، فدخلت الواو على الفعل فتح فى الحديث عن الجنة ، ولم تدخل على نفس الفعل فى الحديث قبلها عن النار ، لأن أبواب الجنة ثمانية ، وأبواب النار سبعة .

الثالثة : قوله تعالى فى صفات النساء التى سيتزوجهن رسول الله ﷺ ان قدر له طلاق جميع من معه من النساء ، حيث يقول تعالى : « **ثيبات وأبكارا** »(٨) ، فقد دخلت الواو على الصفة الثامنة .

ونقول : ان ما يسمونه بواو الثمانية لا دليل عليه فى اللغة ، بل فى القرآن نفسه ما يناقض قولهم هذا ، حيث جاء فى آخر سورة الحشر عدة أسماء لله تعالى ، ولم تذكر الواو قبل الاسم الثامن ، واقرأ ان شئت قوله تعالى : « **هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر** »(٩) .

أما هذه الآيات التى استدلوا بها ، فلا تدل لهم ، وبيان ذلك كالآتى :

١ ـ أن الآية الأولى (**والناهون عن المنكر**) دخلت الواو على هذه الصفة : لتربط بينها وبين الصفة التى قبلها ، وهى صفة الأمر

---

(٦) سورة التوبة : آية ١١٢ .
(٧) سورة الزمر : آية ٧٣ .
(٨) سورة التحريم : آية ٥ .
(٩) سورة الحشر : آية ٢٣ .

بالمعـروف ، لاقتران هاتين الصفتين معا ، والآيات والأحاديث فى ذلك أكثر من أن تحصى .

أما الآية الثانية : (**وفتحت أبوابها**) ، فعلى افتراض أن هناك واوا تختص بالدخول على العدد الثـامن ، فأين الأعداد السبعـة السابقة والعدد الثامن الذى دخلت عليـه الواو ، ان الآية خاليـة من ذكـر العدد مطلقا .

أما الآية الثالثة : (**ثيبـات وأبكارا**) فاستدلالهم بها قمـة فى الخطأ الفاحش ، لأن هـذه الواو هى التى تسمى بواو التقسيم ، ارايت لو حذفت لصـار الكلام هكذا (ثيبات ابكارا) فهل توجـد امـراة توصف بانها ثيب بكر فى وقت واحد ؟

من هـذا يعـلم ضعف قـول من قـال ان هنـاك واوا تسمى واو الثمانية ، وأن الواو التى معنا فى سـورة الكهف من هذا القبيل .

٣ ـ وقال القرطبى : « وطـريق النحـويين فى هـذه الواو أنهـا واو عطف ، دخلت فى آخـر اخبار عن عددهم ، لتفصـل أمـرهم ، وتدل على ان هذا غاية ما قيل ، ولو سقطت لصح الكلام »(١٠) .

٤ ـ وقال القشيرى(١١) : « لم يذكـروا الواو فى قـوله (رابعهم ، سادسهم) ، ولو كان بالعكس لكان جائزا ، فطلب الحكمة والعلة فى هـذه الواو تكلف بعيد وهو كقوله تعالى فى موضـع آخـر : « ومـا أهلكنـا من قـرية إلا ولهـا كتاب معلوم »(١٢) .

وفى موضع آخر : « إلا لهـا منذرون ، ذكـرى »(١٣) .

(١٠، ١١) تفسير القرطبى : ١٠/٣٨٢، ٣٨٣ .
(١٢) سـورة الحجـر : آية ٤ .
(١٣) سـورة الشعراء : آية ٢٠٨ .

وإن كان لنا تعقيب على هـذه الآراء فانا نقـول بوجـاهة قـول الزمـخشرى ، رغم اعتراض البعض عليه ، وأيضـا بوجاهة كل من قولى القـرطبى والقشـيرى ، أما قـول من قال انها واو الثمـانية ، فقـول باطل مردود ، كما رددنا عليه سـابقا .

وقد أطال الفخـر الرازى فى الانتصـار لرأى أكثر المفسـرين بأن القول الثالث المذكـور فى عدد أهل الكهف ، وهم سبعة وثامنهم كلبهم هو الصحيح ، حيث ذكـر سبعة أوجه تؤيد ذلك .

منهـا : ما قاله الزمخشرى من أن هـذه الواو هى التى تدخل على الجمـلة الواقعة صفة للنكرة ، وهى تفيد توكيد ثبوت الصفة للموصوف ، فكأن الذين قالوا هـذا القول قالوه عن علم وثبات .

ومنهـا : أن الوا وهنا زيدت لفـائدة ، وكل من أثبت هذه الفائدة قال : ان المـراد بها تصحيح هـذا القول .

ومنهـا : أنه اتبـع القولين السـابقين ، بقوله (رجما بالغيب) دون القول الثالث ، فدل ذلك على صدقه .

ومنهـا : أنه تعـالى قال عن عددهم **(ما يعلمهم إلا قليـل)** ، وكل من قال من المسلمين فى هذا الباب قولا لم يقـل الا القـول الثالث **(سبعة وثامنهم كلبهم)** ، فوجب أن يكون هـذا هو الصحيح .

وقد روى عن ابن عباس أنه كان يقول : (أنا من ذلك القليـل) ، وكان يقـول هم سبعة وثامنهم كلبهم .

الى أن عقب الفخـر الرازى على هـذه الوجوه السبعة التى ذكرها فى الانتصـار لكون عدد أهل الكهف سبعة وثامنهم كلبهم بقوله : « واعلم أن هـذه الوجوه وان كان بعضها أضعف من بعض الا أنه لمـا تقوى بعضها

ببعض حصل فيه كمال وتمام ، والله أعلم »(١٤) ٠

وقال أيضا : « الوجوه السبعة المذكورة ، وان كانت لا تفيد الجزم الا أنها تفيد الظن »(١٥) ٠

وبعد أن ذكر الله تعالى اختلاف الناس في عدد أهل الكهف أمر رسوله ﷺ بهذا التوجيه الربانى ، فقال له : (**قل ربى أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل**) ٠

ولا يوجد منافاة بين كون الله تعالى أعلم بعدتهم ، وكون قلة من الناس تعلم ذلك ، لأن علم الله تفصيلى ، يعلم عنهم كل شىء ، مهما كان صغيرا ، بخلاف غيره سبحانه ، فانه لا يعلم عنهم الا القليل ، وبشىء من الاجمال ، ومصدر علمه ، اخبار الرسول ﷺ عن ربه ٠

والمراد بالقليل : من وفقه الله تعالى للوقوف على الأمارات المأخوذة من آيات القصة ، أو من اعلام الرسول ﷺ اياه ٠

وبعد أن أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالأمر السابق نهاه عن شيئين فقال له : (**فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهرا ، ولا تستفت فيهم منهم أحدا**) ٠

وأصل المراء فى اللغة : الجدال ، واستخراج الرجل من مناظره كلاما ، مأخوذ من مريت الشاة ، اذا حلبتها ، واستخرجت لبنها ٠

قال أبو السعود : « الفاء في (فلا تمار فيهم) لتفريع النهى على ما قبله ، أى اذا عرفت جهل أصحاب القولين الأولين فلا تجادلهم فيهم »(١٦) ٠

والمراد بالمراء الظاهر أن يجادل أهل الكتاب في شأن أهل

---

(١٤) تفسير الفخر الرازى : ١٠٥/٢١، ١٠٦ ٠
(١٥) تفسير الفخر الرازى : ١٠٧/٢١ ٠
(١٦) تفسير أبئ السعود : ٢٤٧/٣ ٠

الكهف مجـادلة حسنة ، من غير تعنيف لهم ، أو تجهيـل ، بل يكتفى بذكـر ما أنزل الله فى قصتهم ، من غير تزيد عليها ، وهذا كقوله تعالى : **« ولا تجـادلوا أهـل الكتاب إلا بالتى هى أحسن »(١٧) ·**

أما النهى الآخـر فهو قوله تعـالى **(ولا تستفت فيهم منهم أحدا)** والاستفتاء طلب الفتيا ، والفتيـا ، والفتـوى ، والفتـوى بفتح الفـاء الأخيرة وضم كل ما قبلها : تبيين المشكل من الاحكام ، أصـله من الفتى ، وهو الشـاب الحـدث الذى شب وقـوى ، فكان المفتى يقـوى ما يراه ببيـانه ، فيصـير فتيا قويا ·

فكما نهى الله تعـالى رسوله ﷺ عن جدال أهل الكتاب فى شأنهم الا بالتى هى أحسن ، نهـاه كذلك عن سؤالهم فى شـان هؤلاء الفتية ، لأنهم قد بدلوا وغيروا وحـرفوا ، وكفـروا ، فلا علم عندهم يوثق به ، أما الله تعـالى فهو الذى قال فى أول هـذه القصـة : **(نحن نقص عليك نبـأهم بالحـق)** ، فكيف يليق بمؤمن بالقـرآن ـ فضـلا عمن أنزل عليه القـرآن ـ أن يسـال هؤلاء الكفـرة الكاذبين عن شىء يتعلق بما قـال الله فيـه قـرآنا ؟

وقال المـاوردى : « يجـوز أن يكون الخطاب للنبى ﷺ ، والمـراد نهى أمتـه »(١٨) ·

المعنى العـام للمشهد الخامس

الآيـة (٢١)

بعد أن قص الله علينـا أنه قد أعثر النـاس على أهـل الكهف بعد أن أيقظهم ، وقص علينـا اختـلاف قومهم فى أمـرهم ، وفى كيفيـة تقديرهم وتكريمهم ، وأن بعضهم طالب باقامة بنيان حولهم ، وأن الذين

---

(١٧) سـورة العنكبوت : آية ٤٦ ·
(١٨) النكت والعيون للماوردى : ٤٧٥/٢ ·

بيدهم الأمر والنهى طلبوا اقامة مسجد عليهم ، شرع الله تعالى فى هذه الآية يخبرنا بما سيحدث مستقبلا من تنازع أيضا فى عدة أهل الكهف ، وهذا اخبار بالغيب لما سيكون فى المستقبل ، ولذلك تعد هذه الآية معجزة لصدق رسول الله ﷺ ، وآية حق على انه ما ينطق عن الهوى ، وأن هذا القرآن ان هو الا تنزيل من حكيم حميد ، لأن ما أخبرت به الآية وقع كما أخبرت تماما .

لقد أخبرت الآية أن الناس مستقبلا سيختلفون فى عدد أصحاب الكهف ، فبعضهم يذهب الى أنهم ثلاثة رابعهم كلبهم ، وبعضهم يقول انهم خمسة سادسهم كلبهم ، وكان هذا قولا بغير دليل ، ورميا بالظن والتخمين ، والظن لا يغنى من العلم شيئا ، والتخمين لا يعنى اليقين ، ثم حكت الآية قولا ثالثا ، حيث ذهب البعض الى أنهم كانوا سبعة ، وكان كلبهم ثامنهم ، وقد ذكرنا أثناء الحديث عن معانى المفردات وأسرار التراكيب ، الآراء فى تحديد أصحاب الأقوال الثلاثة ، وكيف أن معظم المفسرين أيدوا القول الثالث ، لأدلة ترجح ذلك .

ثم يوجه الله رسوله فى هذه الآية بأمر ونهيين ..

أما الأمر : فهو أن يفوض أمر عدتهم الى الله ، لأن الله تعالى هو أعلم بعدتهم ، أما غيره سبحانه ، فلم يطلع عليه الا القليل ، وفرق بين علم الله وعلم هذا القليل ، لأن علم الله تفصيلى ، وعلم غيره اجمالى ، وكذلك فان علم هذا القليل عن الفتية حدث بعد اخبار الله تعالى عن أمرهم .

أما النهى الأول : فهو عن الجدال فى شأن الفتية وما حدث لهم ، وان كان هناك جدال فليكن بالتى هى أحسن ، وذلك بالاقتصار على ما قص الله من خبرهم ، من غير تزيد ، أو تعنيف ، أو تجهيل .

أما النهى الثانى : فهو عن سؤال أهل الكتاب فى شىء يتعلق

بأمـر الفتيـة ، لأن فيما قص الله كفـاية ، بالاضـافة الى أنه هو القصص الحق ، أما أهـل الكتاب فقد بدلوا ، وحـرفوا ، وزادوا وأنقصـوا ، فلذلك يكتفى بما جـاء فى القـرآن ، فمن أصـدق من الله قيـلا ، ومن اصـدق من الله حديثـا ؟

العبـر المستفـادة
من المشهـد الخـامس
الآيـة (٢٢)

تقودنا هـذه الآية الكريمة الى الحديث عن عدة أمـور ، نكتفى بذكـر كلمة موجـزة عن أمـرين منها فقط :

١ ـ عن الجدل . ٢ ـ وعن المصادر التى يأخذ منها المسلم علمه .

اما الأمـر الأول : وهو الخاص بالجدل ، فقد قادنا الى الحديث عنه قوله تعـالى : (**فلا تمـار فيهم إلا مـراء ظاهـرا**) ، والمـراء كما عـرفه ابن منظـور هو الجـدل ، بان يستخرج الرجـل من منـاظره كلاما ومعـانى الخصومة وغيرها ، وعـرف الجـدل أيضـا بانه شـدة الخصومة ، وبانه مقـابلة الحجة بالحجة ، وقال أيضـا : المجـادلة : المنـاظره والمخاصمة(١٩) .

وعلى هـذا فان المـراء والجدال ينقسم الى نوعين : قسم مذموم ، وهو الذى يراد به ابطـال الحق ، وتقـرير الباطل ، وغلبة الخصم بدون وجه حق ، وعنه نهى رسول الله ﷺ ، فقال : « ما ضـل قوم بعد هدى كانوا عليـه الا أوتوا الجـدل » ، ثم تلا رسول الله ﷺ قوله تعـالى : « **ما ضـربوه لك إلا جـدلا بل هم قـوم خصـمون** »(٢٠) .

---

(١٩) أنظر لسان العرب ، مادتى (مرا ، وجدل) .
(٢٠) أخرجه الترمذى فى كتاب التفسير ، باب تفسير سورة الزخرف ، وابن ماجة فى مقدمة سننه ، باب اجتناب البدع والجدل ، والآية المذكورة من سورة الزخرف ، رقم : ٥٨ .

ومن هـذا القبيل المذموم المـراء فى القـرآن ، قال ﷺ فيما رواه أبو داود وغيره : « المـراء فى القـرآن كفـر »(٢١) ٠

أما القسم الثـانى من المـراء والجدال فهو الذى يراد به اظهـار الحق ، وتقـريره ، وابطـال الباطل ودحضـه وهو محمود مقبول ، بشرط اخلاص النيـة فيه ، والترفق بالمخاطب فى الحديث ، ومراعـاة الآداب العـامة فى الحـوار ، حتى يشعر المخـاطب بمن يجـادله أنه لا يقصد بهـذه المحـاورة الا النصح الأمين ، والخير الخالص له ، وتلك كانت سنة الرسل جميعـا ، هـذا هو أول رسول ، نوح عليه السـلام ، يقـول له قـومه : « يا نـوح قد جـادلتنا فاكثـرت جدالنـا »(٢٢) ، وهـذا هـو خـاتم النبيـين يقـول لـه ربـه : « وجـادلهم بالتى هى أحسـن »(٢٣) ، وفى قصص الأنبيـاء فى القـرآن والحديث ما يشهد لذلك ويؤيده ، ومن هنا فان المـراء المذموم والمنهى عنه ، هو ما كان القصـد منـه ابطال الحق واحقـاق الباطل ، أما اذا كان هدف صاحبه احقاق الحق وابطال الباطل بآدابه الشرعية ، فهو المحمود المقبول ٠

أما الأمـر الثـانى : فى هـذه الآية ، فقد قادنا اليه نهى الله تعالى رسوله ﷺ عن استفتاء أهل الكتاب فى أمر أهل الكهف بقوله : (ولاتستفت فيهم منهم أحـدا) ٠

والسر فى هـذا النهى ظاهر جلى ، حيث أن أهـل الكتاب ليسوا أهـلا لمثـل هـذا العلم ، وليسوا مصدرا موثوقا به ، حيث بدلوا وغيروا وحـرفوا ٠

---

(٢١) أخـرجه أبو داود فى كتاب السنة ، باب النهى عن الجدال فى القـرآن ٠

(٢٢) سـورة هـود : آية ٣٢ ٠

(٢٣) سـورة النحـل : آية ١٢٥ ٠

أخـرج البخـارى عن ابن عبـاس رضى الله عنه أنه قال : « كيف تسـالون أهـل الكتاب عن شىء وكتابكم الذى أنزل على رسول الله ﷺ أحدث ؟ تقـرأونه محضـا لم يشب ، وقد حدثكم أنأ هـل الكتاب بدلوا كتاب الله وغـيروه ، وكتبوا بأيديهم الكتاب ، وقالوا هو من عنـد الله ليشـتروا بـه ثمنـا قليـلا ، ألا ينهـاكم ما جـاءكم من العـلم عن مسـالتهم »(٢٤) .

نخـرج اذاً من هـذه الآية وأمثالها ، ومن هـذا الأثر وأمثـاله الى أنه لا يوجد للمسلم مصـدر يأخذ منه دينـه الا القـرآن والسنة ، وعلى أيدى علمـاء مسلمين مخلصين . بل ان العجب ليعترى الانسـان حينما يرى أبنـاء المسلمـين يذهبون الى بلاد أوروبا وغيرها من دول الكفـر والالحـاد ، لدراسـة الدين الاسـلامى ، على أيدى اليهود والنصارى والشيوعيين الملحدين، وأخذ شهادات الماجستير والدكتوراه فى الدراسات الاسـلامية والعربية من جامعات من لا يكنون للاسـلام وأهـله الا الحقد والبغضـاء ، وتمنى تدمير الاسـلام وابادة أهـله .

لقد أثبتت التجـربة فى كثيرم ن الحالات أن هـذه الدول فى مجال العـلم الدنيوى لا يهمهم تعليم أبنـاء المسلمين واعطاؤهم أعلى الشهادات بقدر ما يهمهم أن يكونوا مبشرين لمبـادئهم ، ومنفذين لأهدافهم حينما يعودون الى أوطانهم الاسـلامية ، فليأخذوا من الشـهادات ما يريدون وليمنحوا من الألقـاب ما يشاءون ، المهم أن يكونوا لهم جندا مخلصين ، وفى فلكهم يعملون ، وقد اطلع على هذه الحقيقة كل من له أدنى اهتمام بمثـل هـذا الموضـوع ، ولقد أفلحت مجـلة منبر الاسـلام فى عددها الصادر فى شوال ١٤١١ هـ حينما خصصت جانبا كبيرا من صفحاتها ،

---

(٢٤) أخرجه البخارى فى كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب قول النبى ﷺ لا تسـألوا أهل الكتاب .

أبرزت فيـه انكار العلمـاء لمثـل هذه البعثات بهذا النظام ، لخطورتها على الدارسـين هنـاك أولا ، ثم على من يدرسـون لهم هنـا بعـد عـودتهم ثانيـا ...

واذا كان هـذا يحـدث فى مجـال التعليم الدنيوى ، فما بالنـا بمن يذهب ليتعلم الاسـلام على أيـديهم طمعـا فى أخـذ شـهادات المـاجستير والدكتوراه ، رغم معـرفتهم أن أساتذتهم هناك اما من اليهود أشد أعـداء الله المـاكرين ، واما من النصـارى الحـاقدين ، واما من الشيوعيين الملحدين ؟

اننا فى هـذا المجال بالنسبة الى علوم الدنيـا لا ننادى بالانغـلاق على أنفسنا ، ولا ننادى بعدم التطـور العلمى ، بل اننا ننـادى بهـذا وباكثر منـه ، ولكن بشـرط أن يحصـنّ المسلم نفسـه تماما ، ويعـلم عقيدته بكل جزئياتها وتفاصيلها ، وكيف يرد على غير المسلمين ، ثم بعد ذلك يسمح له بالاختـلاط مع هؤلاء الأسـاتذة وبضوابط محددة .

هـذا بالنسبة لعلوم الدنيـا ، أما العلوم الاسـلامية والعـربية ، فلا يجوز بحال من الأحوال أخذها عنهم ، كيف نأخذ الاسـلام عن أعداء الاسـلام ؟ ان هـذا لشىء عجـاب !!!

* * *

المشهـد السـادس
توجيهات إلهيـة لسيد البشـرية
صلى الله عليـه وسلم

قـال تعـالى :

« ولا تقـولن لشيء إنى فـاعل ذلك غـدا (٢٣) إلا أن يشـاء الله ، واذكـر ربك إذا نسيت ، وقـل عسى ان يهـدين ربى لأقـرب من هـذا رشـدا (٢٤) ولبثـوا فى كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا (٢٥) قـل الله أعلم بما لبثوا ، له غيب السموات والأرض ، أبصـر به وأسمع ، ما لهم من دونه من ولى ولا يشـرك فى حـكمه أحـدا (٢٦) ... » .

معـانى المفـردات وأسرار التراكيب

فى هـذه الآيات توجيـه من الله تعـالى لرسـوله ﷺ الى الأدب الربانى ، فيما اذا أراد العـزم على فعـل شيء فى المستقبل ، وذلك بأن يعلق ذلك الى مشيئة الله عز وجل ، علام الغيوب ، فهو العليم العـلام ؛ بما كان ، وبما يكون ، وبما لم يكن لو كان كيف يكون .

وقد قال كثير منا لمفسرين ان هـذه الآيات نزلت توجه الرسول ﷺ لأنه لمـا سئل هذه الأسئلة التى نزلت بسببها السـورة قال لكفار قـريش غدا سأخبركم ولم يقل ان شاء الله ، فأبطأ عليه الوحى فترة من الزمان .

واللام فى قوله (لشيء) بمنزلة (فى) ، فهى لام العـلة ، أى لا تقولن لأجل شيء انى فاعل ذلك ... الخ .

والشيء : يقـع على كل ما أخبر عنـه ، قال تعـالى : « **قـل أى شيء أكبـر شهادة ؟ قـل الله شهيد بينى وبينـكم** »(١) ، ويجمع (شيء)

---

(١) سـورة الانعـام : آية ١٩ .

على اشياء ، غير مصـروف ، وأشياوات واشاوات ، وأشـايا ، وأشاوى ، بفتح الهمزة فى كل ذلك وفتح الواو في الأخيرة ، وتصغير شيء : شيىء، وشيىء بضم الشـين وكسـرها ٠

أما الفعـل فهو كناية عن كل عمـل ٠

والاشـارة فى (ذلك) تعود على (شىء) ٠

وقوله تعـالى : (غـدا) يراد به هنا المستقبل مطلقـا ، وهو فى الأصـل لليوم الذى يلى يومـك ، ولكنهم يستعملونه أحيانا فى الزمن القريب ، وربما كنى به عن الزمن الأخير ، كما قال تعـالى : « **ولتنظر نفس مـا قـدمت لغـد** »(٢) ، كما استعملوا لفـظ الأمس بمعنى زمن المـاضى ، ولفظ اليوم بمعنى زمن الحال ، وقد جمعها زهير فى قوله :

واعلم علم اليوم والأمس قبله ولكننى عن علم ما فى غد عم

وقوله تعـالى (**الا أن يشـاء الله**) ، استثناء مفـرغ من النهى ، فى قوله تعـالى : (ولا تقولن) ويجـوز فيـه أن يكون مفـرغا من أعم الأحـوال ، وأن يكون من أعم الأوقات ٠

فالمعنى على الأول : لا تقولن ذلك فى حال من الأحوال الا حـال ملابسـته بمشيئته تعـالى ، بأن تقـول ان شـاء الله ،، « قال الأخفش والمبرد والكسـائى والفـراء : المعنى : الا أن تقول ان شـاء الله ، فحذف الفعـل تقول ، ولمـا حذف نقل الفعل شاء الى (يشاء) للاستقبال(٣) ٠

وعلى هـذا المعنى يكون فى الكلام تقدير (باء) الملابسة ، لتدخل على أن ، والجار والمجـرور فى موضـع الحـال ، والمشيئة على هـذا بمعنى الارادة ٠

---

(٢) سـورة الحشـر : آية ١٨ ٠
(٣) انظر تفسير الشوكانى (فتح القدير) : ٣/٢٧٨ ٠

وعلى المعنى الثـانى : (أى أن يكون الاستثناء مفـرغا من أعم الأوقات) يكون المـراد :

لا تقولن ذلك فى وقت من الأوقات ، الا فى وقت مشيئة الله تعالى ذلك القـول منك ، والمشيئة هنا تفسر بمعنى الاذن ، لأنه لا يعلم أحد وقت المشيئة الا باعـلام الله ، فيكون المقصود من الآية : لا تقولن ذلك الا بعد أن يؤذن لك فى قول ذلك .

وبعض العلماء ذهب الى أن المراد من الاستثناء التابيد ، كأنه قيل : لا تقولنه أبدا ، كقوله تعالى : « **وما يكون لنا ان نعود فيها إلا أن يشاء الله** »(٤) ، حكاية عن رفض قـوم شعيب الدخول فى دين الكفـر ، وهم يقصـدون بذلك النفى المؤبد .

أقـول : على الرغـم من وجـود هـذا القول فى كثيـر من كتب التفاسـير الا أنى أراه لا يصح تطبيقه هنا ، لاسيما وأننا قد وجـدنا فى سـيرة الرسول ﷺ وهديه فى الحيـاة أنه كان يقول ذلك ، أى يقـول غدا سأفعـل كذا وكذا ، ولكنه كان يعلقه على مشيئة الله سبحانه وتعالى .

خذ مثـالا على ذلك : ما رواه البخارى فى صحيحه عن أبى بردة قال : أتيت النبى ﷺ فى رهط من الأشعـريين استحمله ، فقال : والله لا أحملكم ، وما عندى ما أحملكم عليـه ، قال : ثم لبثنـا ما شـاء الله أن نلبث ، ثم أتى بثلاث زود غر الذرى فحملنا عليهـا ، فلما انطلقنـا قلنـا ـ أو قال بعضنا ـ والله لا يبـارك لنا ، أتينـا النبى ﷺ نستحمله ، فحلف أن لا يحملنا ، ثم حملنا ، فارجعوا بنا الى النبى ﷺ ، فنذكره ، فأتينـاه ، فقال : ما أنا حملتكم ، بل الله حملكم ، وانى والله ـ ان شـاء الله ـ لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيـرا منها الا كفـرت عن يمينى ،

---

(٤) سـورة الأعـراف : آية ٨٩ .

وأتيت الذى هو خير ، أو أتيت الذى هو خير وكفرت عن يمينى »؟(٥) .

وغير ذلك من الأحاديث ، وهى أكثر من أن تحصى ، ومعلوم أن هـذا الحديث وأمثـاله قاله ﷺ فى المدينة ، بعد هجـرته من مكة والتى نزلت فيها سـورة الكهف ، وفيها هـذه الآية التى نحن بصددها ، والتى قال عنها البعض ان المـراد من النهى فيها النهى المؤبد ... ، وبهـذا يتضح خطـأ هـذا القول ، والله أعلم .

والسبب فى ضرورة قول ان شـاء الله عند العـزم على فعل شىء : أن الانسـان ربما يموت قبـل الغد ، أو يعوقه عائق عن فعـله ، فـاذا لم يعلقـه غلى المشيئة كان كاذبا ، والكذب منفـر ، وان علقـه وتعذر الوفـاء لم يكن كاذبا .

قال الطاهر بن عاشور : « وقد جمعت هـذه الآية كـرامة للنبى ﷺ من ثلاث جهات :

الأولى : أنه أجـابه سؤله ، فبين لهم ما سـألوه اياه ، على خلاف عـادة الله مع المكابرين .

الثانيـة : أنه علمـه علمـا عظيما من أدب النبوة .

الثالثـة : أنه ما علمـه ذلك الا بعد أن أجاب سـؤله ، استئناسـا لنفسـه أن لا يبادره بالنهى عن ذلك ، قبـل أن يجيبه ، كيلا يتوهم أن النهى يقتضى الاعـراض عن اجابة سؤاله ، وكذلك شـأن تأديب الحبيب المـكرم »(٦) .

وبعد هـذا التوجيه من الحبيب للحبيب يأتى توجيه آخـر منـه

---

(٥) أخرجه البخارى فى كتاب الأيمان والنذور ، الباب الأول ، فتح البارى : ٥٢٥/١١ .
(٦) التحرير والتنوير : ٢٩٦/١٥ .

تعـالى لمصطفاه ﷺ فيقول له : « **واذكـر ربك إذا نسيت ، وقـل عسى أن يهـدين ربى لأقـرب من هـذا مرشـدا)** .

والذكـر : نقيض النسيان ، فهو بمعنى الحفظ للشىء ، والذكـر يطلق على الشىء يجرى على اللسان ، وعلى جرى الشىء على اللسان ، أى على الكلام الذى يخرج من اللسان ، وعلى عملية الكلام نفسها .

ويقـال : اجعله منك على ذكر وذكر ، بضم الذال وكسرها ، بمعنى واحد ، والضم أعلى ، أى تذكـر ، وقال الفـراء : « الذكـر بالكسر : ما ذكـرته بلسانك وأظهرته ، والذكر ـ بالضم ـ بالقلب ، يقال ما زال منى على ذكـر ـ بالضم ـ ، أى لم أنسـه »(٧) .

والنسيان : نقيض الذكـــر والحفظ .

وقد تعددت أقوال العلمـاء فى المـراد من الذكر المـأمور به هنا :

١ ـ فمنهم من قال : ان المـراد : اذا نسيت كلمة الاستثناء (ان شـاء الله) ثم تذكـرتها ، فعليك بذكرها . وسيأتى لهذه النقطة مزيد ايضـاح عند العبر المستفادة ان شـاء الله .

٢ ـ ومنهم من قال : ان المـراد واذكـر ربك بالتسبيح والاستغفار اذا نسيت كلمة الاستثناء . والمـراد من ذلك المبالغة فى الاهتمام بذكر كلمة الاستثناء ، حتى لكأن تركها يعد ذنبا يوجب التوبة والاستغفار وكثـرة التسـبيح .

٣ ـ ومنهم من قال : ان المـراد : واذكـر ربك اذا نسيت شيئا ، ليذكرك هـذا المنسى .

٤ ـ ومنهم من قال ان المـراد : واذكـر ربك وعقابه اذا تركت شـيئا

---

٧ ـ لسـان العرب (ذكـر) .

مما أمرك به ، فذلك حامل لك على تدارك ما فاتك .

وواضح من هذه المعانى أن بعضها مرتبط بمعنى الآية التى قبلها ، وبعضها غير مرتبط .

وأيا كان المراد ، فان المسلم مطالب اذا عزم على فعل شىء أن يعلق هذا الفعل على مشيئة الله تعالى ، لأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، كما أنه مطالب بذكر الله تعالى فى كل وقت من أوقاته ، حتى يكون فى معيته تعالى ، فتتغشاه رحمته ، وتكتنفه رعايته .

وفى التعبير بلفظ الربوبية فى (واذكر ربك) واضافته الى ضمير المخاطب دون لفظ الألوهية كمال لطف لا يخفى . وقوله تعالى : **(وقل عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشدا)** : عسى للرجاء ، ومعنى يهدينى أي يوفقنى ، والرشد : الهدى والخير .

واسم الاشارة فى قوله تعالى : **(لأقرب من هذا رشدا)** **يعود على :**

١ ـ نبأ أهل الكهف ، الذى سبق ذكره ، قبل هذه التوجيهات الربانية .

ومعنى الآية : لعل ربى سبحانه وتعالى أن يعطينى من الأدلة الواضحة والبراهين الناصعة على صدق نبوتى ما هو أوضح وأعظم وأقرب رشدا من نبأ هؤلاء الفتية ، وقد فعل الله مع حبيبه ﷺ ذلك وحقق له رجاءه ، حيث أطلعه على قصص الأنبياء السابقين ، والأقوام الغابرين ، كما هى ، كما أراه من ملكوت السموات والأرض ، وأطلعه على غيب ماض وحاضر ومستقبل ما هو أعظم من اخباره بقصة هؤلاء الفتية .

٢ ـ وقال بعض العلماء : ان المراد أن النبى ﷺ اذا وعدهم بشىء وقال معه ان شاء الله يجب أن يقول مع ذلك : عسى أن يهدين ربى لشىء أكمل وأفضل مما وعدتكم به .

٣ ـ وقال بعض العلماء : ان المـراد : اذا نسيت كلمة الاستثناء فكفـارة النسيان أن تقول هـذه الكلمة بألفـاظها كما هى ، وهى : عسى أن يهـدين ربى لأقـرب من هـذا رشـدا .

٤ ـ وبعضهم قال : ان اسم الاشـارة فى (لأقـرب من هـذا) يعـود على الوقت الذى حدده ﷺ لاجابتهم عن مسـائله .

والمعنى : عسى ربى أن يدلنى على جواب ما سـألتم قبل الوقت الذى حددته لكم ، ويعجل لى من جهة الرشـاد .

وهـذا القول قاله ابن الأنبارى ، ورد عليه الامام الآلوسى بقوله : « ولا يكاد يستفاد هـذا المعنى من الآية ، وعلى فرض الاستفادة يكون نظير استفادة المعـانى المـرادة من المعميات ، ويجل كتاب الله تعـالى الكريم من ذلك »(٨) .

وبعد أن قص الله علينـا قصـه أصحاب الكهف ، وذكـر لنـا مدة لبثهم فى الكهف على طريق الاجمال حيث قال فى مقدمة هذه القصـة : (**فضربنا على آذانهم فى الكهف سـنين عـددا**) ، بعد ذلك الاجمـال شرع فى تفصيل وتحديد هـذه المدة بقوله تعـالى : (**ولبثـوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعـا**) .

فالواو فى (ولبثوا) للاستئناف ، يستأنف الله به كلاما آخر حول المدة التى نامها أهـل الكهف قبل الاعثـار عليهم .

وذهب بعض العلمـاء الى أن هـذه الـواو فى (ولبثـوا) واو عطف ، عطفت هـذا الفعـل (لبثـوا) على الفعل (سيقولون ثلاثة ... الخ) ، فيكون هـذا الكلام حكاية لكلام المتنازعين فى عدد أهـل

---

(٨) تفسير الآلوسى : ٢٥١/١٥ .

الكهف ، أى أنهم قالوا هم ثلاثة رابعهم كلبهم وكذا وكذا ، وقالوا لبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا .

واستدل أصحاب هذا الرأى على صحة رأيهم هذا بما يلى :

١ - أن عبد الله بن مسعود قرأ (وقالوا ولبثوا فى كهفهم) .

٢ - أن قوله تعالى : (قل الله أعلم بما لبثوا) شبيه بالرد على الكلام المذكور قبله .

٣ - أنه قد وردت رواية عن قتادة تنص على أن قوله تعالى : (ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا) هو كلام أهل الكتاب ، وقد رده الله تعالى بقوله : (قل الله أعلم بما لبثوا) .

وأرى أن هذا الرأى ضعيف لما يلى :

١ - لو قلنا أن (لبثوا) معطوف على (سيقولون) فانه حينئذ يكون قد حدث بين المعطوف والمعطوف عليه ما يوجب انقطاع أحدهما عن الآخر ، ألا ترى أن قوله تعالى : (فلا تمار فيهم الا مراء ظاهرا ... الخ) قد قطع بين المعطوف والمعطوف عليه .

٢ - ما نسبوه الى عبد الله بن مسعود من أنه قرأ : (وقالوا ولبثوا فى كهفهم) لم يصح عنه ، ولو افترضنا صحة هذه القراءة ، فهى شاذة لم تثبت قرآنيتها ، فلا يجوز الاحتجاج بها .

٣ - أن ما ذكروه من أن قوله تعالى : (قل الله أعلم بما لبثوا) شبيه بالرد على الكلام المذكور قبله ، فكأنه بذلك يبطل قولهم : (ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة) .. الخ ، ويأمر بتفويض ذلك الى الله عز وجل مردود ، لأن قوله تعالى : (قل الله أعلم بما لبثوا) لا يوجب أن يكون ما قبله حكاية عن المختلفين فى مقدار لبث أهل الكهف ، لأن المراد منه الرجوع الى قول الله ، لا الى أقوال أهل الكتاب .

٤ ـ أما عن كلام قتـادة : فلندع الحافظ ابن كثير رحمه الله يرد عليه ، قال رحمه الله : « وفى هـذا الذى زعمـه قتادة نظـر ، فان الذى بأيدى أهـل الكتاب أنهم لبثـوا ثلاثمائة سنين ، من غير تسـع ، يعنـون بالشمسية ، ولو كان الله قـد حـكى قـولهم لـما قـال : **(وازدادوا تسعـا)** ، وظاهـر الآية انما هو اخبـار مـن الله ، لا حكاية عنهم »(٩) .

وقد وردت قراءتان فى قوله تعالى : (ثلاثمائة سنين) :

١ ـ **القـراءة الأولى :** هى قـراءة حمـزة والكسائى ، بغير تنوين (ثلاثمائة) ، وانما باضافتها الى (سنين) .

٢ ـ **القـراءة الثانية :** قـراءة الباقين من أصحاب القراءات المتواترة ، حيث قـرأوا بتنوين ثلاثمائة .

وتوجيه القـراءة الأولى : أن الأصـل فى الاضـافة هنا أن يقـال ثلاثمائة سنة ، الا أنه يجوز فى التمييز أن يوضع الجمع موضع الواحد ، كما جاء فى قوله تعالى : « **قـل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا** »(١٠) .

أما توجيه القـراءة الثانية : فذلك لأن قوله (سنين) عطف بيان لقـوله (ثلاثمائة) لأن الله حينما أخبر عن هـذه المدة بأنها (ثلاثمائة) لم يبين نوعها ، أهى سنون أم شهور أم أيام ؟ فأراد الله أن يبينها فقال (سنين) ، فجـاء قوله (سنين) عطف بيـان لـ (ثلاثمائة) .

وقوله (تسعا) مفعـول (ازدادوا) ، وهو يتعدى الى اثنين ، وقد يتعدى الى واحد ، يقال زدته كذا فازداد كذا .

---

(٩) تفسير ابن كثير : ١٤٧/٥ .
(١٠) سـورة الكهف : آية ١٠٣ .

وهنا يرد سؤال ، الا وهو : لم قال : **(ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا)** مع أنه لو قيل ثلاثمائة وتسع سنين لكان أوجز فى الكلام ؟

ويجاب على ذلك بأن الأسلوب القرآنى راعى حساب أهل الكتاب الذين أرسلوا بهذه المسائل للنبى ﷺ حيث كانوا يحسبون باعتبار السنة الشمسية ، كما راعى حساب كفار قريش الذى حملوا من اليهود هذه الأسئلة ليختبروا بها صدق رسول الله ﷺ ، حيث كانوا يحسبون باعتبار السنة القمرية ٠

والتفاوت بين السنة الشمسية والسنة القمرية مقداره : عشرة أيام ، واحدى وعشرين ساعة ، ودقيقة واحدة ، فيكون تفاوت ثلاثمائة سنة مقداره : تسع سنين وثلاثا وسبعين يوما ، وتسع ساعات ، وثمانيا وأربعين دقيقة ٠

ولما كان الزائد عن التسع سنين لم يبلغ نصف سنة ، بل ولا فصلا من فصولها ، لم يعتبر فى العد ، لقلته ٠

يقول الطاهر بن عاشور عن هذا التعبير القرآنى : « وهذا من علم القرآن واعجازه العلمى الذى لم يكن لعموم العرب علم به »(١١)٠

وفى هذا المقام أيضا يرد لنا هذا التساؤل : ما فائدة تأخير بيان مقدار لبث أهل الكهف الى نهاية هذه القصة ، ولم يأت هذا البيان فى صدرها ؟

ويجاب عن ذلك أيضا بما يأتى :

١ ـ بأنه قد قصد بتأخيره التنبيه على أنهم اختلفوا فى مقدار هذا اللبث أيضا ، كما اختلفوا فى عددهم ، ولذلك جاء هذا البيان للبثهم عقيب اختلافهم فى عددهم ٠

---

(١١) التحرير والتنوير : ٣٠١/١٥ ٠

٢ ـ وأيضا ليكون التعقيب على مدة لبثهم (**قل الله أعلم بما لبثوا**) شبيها بالتعقيب على اختلافهم فى عددهم (**قل ربى أعلم بعدتهم**) ، فيعلم الناس أن المصدر الموثوق به فى عدد أهل الكهف ، وفى مقدار لبثهم هو الله عز وجل وأن ما جاء من غير هذا الطريق فمرده الرجم بالظن ، والقول بالتخمين ، وليس بالعلم اليقين .

وبعد أن حكى الله مدة لبث أهل الكهف فى كهفهم نياما ، أمر رسوله ﷺ أن يبلغ من يجادل فى مدة لبثهم قائلا له : ان العلم الحقيقى بذلك والذى لا شك فيه عند الله ، وقد أخبر الله به ، أما من عدا الله : فان قال شيئا غير قوله فقوله عاطل كاسد ، وباطل فاسد .

وقد علل تعالى اعلميته بمدة هذا اللبث فقال : (**له غيب السموات والأرض**) ، فهذا الذى أوجد السموات والأرض ، وخلق ما ومن فيهما ، ويعلم كل شىء فى هذا الوجود ، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ، أفيعجزه نبأ هؤلاء الفتية ؟ وأفلا يكون أعلم بأمرهم من كل الخلق ؟

فاللام فى قوله (له غيب) لام الاختصاص العلمى ، أى له تعالى ذلك علما .

وقدم الخبر (له) على المبتدأ (**غيب السموات والأرض**) للحصر ، أى هذا لله لا لغيره .

وجمعت السماء دون الأرض وقدمت عليها :

١ ـ لعظم السماء . ٢ ـ ولاحاطتها بالأرض .

٣ ـ وغيب السماء لا يقارن به غيب الأرض .

٤ ـ وأيضا فأن غيب السموات أبعد عن العباد من غيب الأرض .

٥ - وأيضا فان طبقات السموات متمايزة ، ينفصل بعضها عن بعض، بخلاف طبقات الأرض ، فانها متصلة ٠

٦ - ولأن العالم العلوى أشرف من العالم الأرضى ، حيث لا يعصى الله تعالى فيه ٠

وبعد أن ذكر الله تعالى أنه مختص بعلم الغيب ، ذكر شمول ادراكه وسعته بقوله : (**أبصر به وأسمع**) ٠

فقوله تعالى : (**أبصر به وأسمع**) صيغتا تعجب ، من شمول علمه تعالى ، بما حضر وبما غاب ، وبما ظهر ، وبما بطن ٠

وعبر الله تعالى عن بصره وسمعه بصيغتى التعجب هاتين : للدلالة على أن ادراكه تعالى لا يشابهه أى ادراك ، حيث لا يعوقه عائق ، ولا يحجبه مانع ، ويستوى فى ذلك : الصغير والكبير ، والفتيل والقطمير ، والجلى والخفى ، والكثيف واللطيف ، فسبحانه من اله سميع بصير ٠

وهذه الصيغة احدى صيغتى التعجب ، فالتعجب له صيغتان : احداهما ما أفعله ، والأخرى أفعل به ، والتى معنا من القبيل الثانى ، والفعل فى الصيغة التى معنا فى قوله تعالى : (**أبصر به وأسمع**) معناه التعجب لا الأمر ، وفاعله الضمير المجرور بالباء ، والباء الزائدة،كقولهم أكرم بزيد،فان أصله أكرم زيد بفتح الراء،أى صار ذا كرم ، الا أنه خرج على لفظ الأمر ، ومعناه الخبر ، كما خرج على لفظ الخبر ما معناه الأمر ، كقوله تعالى : « **والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاث قروء** »(١٢) ٠

وذهب بعض العلماء الى أن فاعل (أفعل) فى هذه الصيغة

---

(١٢) سورة البقرية : آية ٢٢٨ ٠

التعجبية ، ضمير المخاطب المستتر ، وعلى هـذا فيكون الضمير المجرور فى (به) فى محـل نصب ، مفعول به ، والبـاء زائدة ، كما يقـول القائل أكرم بزيد ، أى اجعل زيدا كريما ، بأن تصفه بالكرم(١٣) .

وعن سـر تقديم أمر الابصار عن أمر الاسماع هنا يقول أبو السعود :

« ولعـل تقديم أمـر ابصـاره تعـالى لمـا أن الذى نحن بصدده من قبيـل المبصرات »(١٤) .

والذى يجب على المسلم ـ بالنسبة لسمع الله تعـالى وبصره ـ أن يعلمـه هو : أن لله سـمعا ليس كاسماعنا ، فنحن نصف الله تعـالى بما وصف به نفسـه ، بلا تحديد ولا تكييف ، ولا تشبيه ولا تعطيل ، وهو بسمعه هـذا يدرك كل مسموع ، مهما خفض أو دق .

كذلك الامـر بالنسبة لبصره تعـالى ، نصفه بما وصف به نفسـه ، فنقـول ان له بصرا ، وليس كأبصـارنا ، نؤمـن ببصره ، دون تشبيه أو تعطيـل ، وهو تعـالى ببصره هذا يرى كل موجود .

ثم ختم الله الآية الكريمة بقـوله : **(ما لهم من دونـه من ولى ، ولا يشرك فى حـكمه أحـدا)** ...

والضمير فى (لهم) يعود على أهـل السموات والأرض ، واللتين ذكـرتا فى هـذه الآية **(له غيب السموات والأرض)** .

وهـذا افضـل من عود الضمير ـ كما قال البعض ـ على أصحاب الكهف ، أو على قـوم معينين ، لأن العموم أولى .

والمـراد بالولى هنا : الذى يتولى أمـور الخلق من رزق ، وقضاء للمصـالح ، وكشف للكروب ، وهداية للأرواح والقلوب .

---

(١٣) انظر شرح ابن عقيل : ٢٢٦ ، وتفسير الفخر الرازى : ٢٢١/٢١ .
(١٤) ارشاد العقل السليم : ٢٤٨/٣ .

ونفى الولاية من دون الله نفى عــام مؤكد ، حيث دخلت (من) الزائدة على النكرة المنفية ·

وقوله (ولا يشـرك) قــراه ابن عامر ، بالتــاء ، وجزم الفعل ، على النهى ، فيكون خطابا معطوفا على : ولا تقولن ، واذكــر ·

وقــرا الباقــون باليــاء والرفــع ، على أنه خبر من الله تعالى بأنه لا يفعــل ذلك ·

والحكم الذى نفى الله تعــالى مشــاركة غيره فيــه هو القضــاء ، فالله وحده هو الذى يحكم بين النــاس ، لان من خلق الخلق وحــده ، وتولى جميــع امــورهم دون أحد غيره هو الذى يكون له أمــر حكمهم وشأن قضائهم ، قال تعالى : « الا له الخلــق والامــر »(١٥) ·

المعنى العــام لايات المشــهد الثــالث

من الاية (٢٣) الى الاية (٢٦)

بعد أن نهى الله رسوله ﷺ عن الجدل فى غيب المــاضى ، فيما يخص فتيــة اهــل الكهف ينهاه فى هــذه الايات عن قطع الحــكم فيما يتعلق بغيب المستقبل ، لانه لا يدرى ما يكون فيه حتى يجزم فيه برأى ···

ذكــر المفسرون أن كفــار قريش لمــا سالوا رسول الله ﷺ عن هــذه الأشياء التى نزلت سورة الكهف بسببها ، قال لهم غدا ســاخبركم ، ولم يستثن ، أى لم يقــل ان شــاء الله ، فجــاءت هــذه الايات توجــه الرسول ﷺ ، وكل مسلم أنه ينبغى أن لا يقطع الانســان بحكم جــازم فى أمــر من الامــور ، الا اذا قــرنه بمشيئة الله تعــالى ، لان الكون له قوانين تســيره ، ونواميس تحكمه ، فربما اقتضت حكمة الله تعــالى أن

---

(١٥) ســورة الاعــراف : آية ٥٤ ·

لا يقـع ما عزم عليه الانسـان أمـره ، ومن هنا فانه يوقع نفسـه فى حـرج ، مما قد ينسبه إلى الكذب ، أما اذا علق الأمـر على مشيئة الله ، فما يحدث بعد ذلك فمـرده الى ارادة الله تعـالى ، والى عـلم عـلام الغيـوب ، الذى يعـلم ما كان وما يكـون ، وما لم يكـن لو كان كيف كان يكون .

ثم يأمـر الله تعـالى رسوله بذكـره اذا نسى المشيئة ، أو بذكـره كما فصلنا عند الحديث عن معـانى المفـردات وأن يقول لعل الله يوفقنى لأمـر افضـل هداية من هـذا الذى وعدتكم به .

وبعـد أن كان عدد السـنين التى قضـاها أهـل الكهف فى كهفهم نائمين مجهولا ، يكشف الله السـتـار عنه فيخبرنا أنهم لبثـوا فى هـذا الكهف ثلاثمائة سنة وتسعـا ، وكما أمـر الله تعـالى رسوله أن يبلغ من يجادل فى عدد اهـل الكهف بأن الله أعلم بعدتهم ، كذلك أمـره هنـا أن يبلغ من يجادل فى مدة لبثهم بقوله : (**الله اعـلم بما لبثـوا**) ، لأن العـلم الذى لا شـك فيـه هو عند من يعـلم السر وأخفى ، عند من خلق الزمان والمكان ، عند من خلق جميـع الأشياء ، « **الا يعـلم من خلق وهو اللطيف الخبيـر** »(١٦) ، ولذلك عقب هـذا الأمـر بقوله : (**له غيب السموات والأرض ابصر به وأسمع**) ، فاذا كان يعلم كل غائبة فى الأرض وفى السماء ، واذا كان يدرك الأبصـار ولا تدركه الأبصـار ، أفلا يعـلم مدة لبث هؤلاء الفتيـة فى كهفهم ؟ سبحانه وتعـالى ، فما أبصره من الـه قدير ، وما أسمعه من لطيف خبيـر ، هكذا يعجب الله رسوله ﷺ وكل مخاطب من احاطة بصره وسمعه تعـالى بكل المخلوقات ، سبحانك ربنا انك أنت العليم الحـكيم .

---

(١٦) المـلك : ١٤ .

ثم ينفى الله تعالى عن العباد وجود ولى لهم من دون الله ، انه لا نافع الا الله ولا معين ولا ناصر ولا مغيث الا الله ، لأنه خالق القوى والقدر ، ومصدر كل نعمة وفضل . ولأنه خالق السموات والأرض وكل كائن فيهما ، ولأنه يتولى جميع خلقه بالتربية والانعام ولم يتخذ فى ذلك عضدا له ولا نصيرا ، كان جديرا بأن يفرده الخلق بالعبادة ، وكان جديرا بأن لا يشركوا معه حاكما غيره **« إن الحكم إلا لله أمر أن لا تعبدوا إلا إياه »**(١٧) ، ولذلك كان آخر ما ختم الله به قصة أصحاب الكهف أنه **(لا يشرك به فى حكمه أحدا)** ، حتى يتحرر العباد من ظلم العباد وينعموا بعدل رب العباد ويفروا من ظلمات الجهل والضلالات ، الى انوار الأرض والسموات ، ومن بطش الظلم والطغيان الى رحمة الواحد الديان .

العبر المستفادة
من المشهد السادس
من الآية (٢٣) الى الآية (٢٦)

فى ختام قصة أهل الكهف تجىء عدة أرشادات الهية ، هى من صميم عقيدة المسلم ، ولها فى نفس الوقت أكبر الأثر على سلوكه فى هذه الحياة ، من هذه الارشادات ما يأتى :

أولا : أنه اذا أراد أن يفعل شيئا فعليه أن لا يقطع ويجزم بأنه لابد فاعل ، بل عليه أن يعلق الأمر على مشيئة الله تعالى ، لأن لهذا الكون قوانين تحكمه وحكمة الهية تدبره ، فليحسب حساب هذه القوة الغيبية ، فعسى أن يكون لله تدبير غير تدبيره ، وارادة غير ارادته ،

---

(١٧) سورة يوسف : آية ٤٠ .

وليس معنى هـذا أن يركن الانسـان الى اللحظـة التى يعيشها ، واليوم الذى يحيـاه ، دونما تفكـير فى المستقبل ، ودونما أن يصـل ماضيـه بحاضره ، وحاضره بمستقبله .. كلا .. ، ولكن عليـه أن يفكر ويدبر ، وأن يعـزم ويقدر ، دونما كسـل أو فتـور ، فان جاء تدبير الله وفـق ما يريد فبها ونعمت ، والا فليعـلم أن ذلك هو قضاء الله وقدره ..

ان المسـلم لو سـار على هـذا المنهج لكان انسـانا سويا ، لا يصيبه الغـرور اذا ما صادف نجاحا وفلاحا ، ولا يصـاب باليأس والقنوط اذا اعترته مصيبة ، أو ألم به ما يكـره ، لأنه يعـلم فى النهاية أن ما شـاء الله كان وما لم يشـأ لم يكن ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم .

ثانيـا : تتعـرض هذه الآيات لذكر الله تعالى وأهميته ، وذكر الله يكون باللسـان ويكون بالقلب ، ويكون فى كل حركات الانسان وسكناته ، انه يعنى معيـة المسـلم لله ، ومعيـة الله للمسـلم ، فى كل وقت وفى كل مكان ، كما أخبرت السيدة عائشـة رضي الله عنها وأرضاها عن رسول الله ﷺ أنه كان يذكـر الله تعـالى على كل أحيانه (١٨) .

لقد وردت مئات النصوص الشرعية تبين لنا فضل الذكر والذاكرين ، وتوضح أن الفـرق بين الذاكـر والغـافل ، كمثـل الحى والميت ، وأن القلوب تصدأ كما يصدأ النحاس ، وأن جـلاءها لا يكون الا بالذكـر ، وأن الذكـر يجلب الرزق ، ويكسو الذاكـر المهابة ، والنضرة ، ويورث محبـة الله والخلق للذاكـر ، ويصـل بالانسـان الى مرتبة الاحسان ، ويورث القرب من الله ، كما يورث معية الله له **«فاذكرونى أذكركم»** (١٩)

---

(١٨) أخرجه البخارى فى كتاب الأذان ، باب هل يتتبع المؤذن فاه ، ومسلم فى كتاب الحيض ، باب ذكر الله تعالى فى حال الجنابه وغيـرها .

(١٩) سـورة البقـرة : آية ١٥٢ .

ولو لم يكن للذكـر من فائدة الا هـذه وحدها لكفى بها ، والذكـر يورث الحيـاة للقلب ، قال ابن تيمية رحمه الله : « الذكـر للقلب مثـل المـاء للسمك ، فكيف يكون حال السمك اذا فارق المـاء ؟ »(٢٠) .

والذكـر يمحو الذنوب والخطايا ، والذكـر ينجى من عذاب الله ، وهو سبب فى تنزل السكينة وغشيان الرحمة ، وحفوف الملائكة بالذاكر ، وهو سبب اشتغال اللسـان عن الغيبة والنميمة ، واللغـو والبـاطل ، والذكـر مع البكاء فى الخلوة سبب لاظـلال الله العبد يوم يصهر حـر الشمس الخلائق يوم التلاق ، ومع أن الذكـر اللسـانى من أيسر العبادات الا أنه سبب لعطـاء الله الذاكـر أفضـل ما يعطى السائل ، وهو غراس الجنـة ، قولة واحدة لكلمة سبحان الله وبحمده تغرس لصاحبها نخـلة فى الجنـة ، وما ادراك ما أشجار الجنة ؟ ومن فضـل الله على الانسـان ان جعـل هذا الذكر ميسرا على الانسان ، بحيث لا يفارقه فى أى مكان ، فى حال صحته وسقمه ، ونعيمه ولذته ، وفراشـه وعمـله ، والذكـر نـور الذاكـرين فى الدنيـا وفى الآخـرة ، والذكـر ينبـه القلـب من نومـه ، والقلب اذا كان نائمـا فاتتـه الارباح ، وكان الغـالب عليـه الخسـران .

وبالجمـلة فان للذكـر فوائد لا تعد ولا تحصى ، وبها جاءت الآيات والاحاديث ، ومن أراد الوقوف على بعضها فعليـه بكتاب الوابل الصيب من الـكلم الطيب لابن القيم رحمـه الله حيث ذكـر فيـه أكثر من مائة فائدة ، تكلم عن كل واحـدة منها بالتفصيل ، وانى لأوصى كل مسـلم بقـراءة هـذا الكتاب ، والعمـل بما صح فيه من اذكـار عن رسول الله

---

(٢٠) الوابل الصيب : ٥٥ .

ﷺ ، كما أوصى اخوانى المسلمين بملازمة ذكر الله تعالى ، فما أيسره ، وما أنفعه ، لقد صح عن الرسول ﷺ أنه قال فيما رواه الترمذى(٢١) من قال (سبحان الله العظيم وبحمده غرست له نخلة فى الجنة) ، فانظر كم مرة نقولها فى خمس دقائق ، وكم مرة يقولها من يذهب الى عمله فى السيارة ، أو فى الطريق ، أو هو صاعد على سلم المكان الذى يعمل فيه ، وكذلك وهو راجع ، بدلا من الالتفات يمينا ويسارا ، وتضييع الوقت فى القيل والقال ، والشكوى من زحام المواصلات ، وارتفاع الأسعار ، ومناقشة ما دار فى المباريات والأفلام ، والله انها لفوائد جليلة ، فلنغتنمها فى أيام عمرنا القليلة ، وهناك فى الآخرة سنندم كل الندم على ما فرطنا فى ذكر الله تعالى .

ثالثا : قوله تعالى : (**ولا يشرك فى حكمه أحدا**) فيه قراءتان ،

الأولى : (ولا يشرك) بالياء وضمها ، وضم الكاف ، بأسلوب الخبر ، أى أن الله يخبر خلقه أنه لم يتخذ له شريكا ليحكم معه فى أمر من الأمور .

الثانية : (ولا تشرك) بالتاء ، وجزم الكاف ، على نهى المخاطب أن يتخذ شريكا لله فى الحكم على أمر من الأمور .

وعلى كلا القراءتين ، فالمراد أن الله تعالى هو صاحب الأمر والنهى ، وهو الذى يحكم فى كونه بما يريد ، ولا يجوز لأحد أن يختار حكما غير حكمه ، وأن يفضل شرعا على شرعه ، مهما كانت الظروف ، ومهما كانت الدواعى ، فاما حكم لله ، واما حكم لغير الله ، والأول يعنى الاسلام ، والثانى يعنى الجاهلية ، وقد نعى الله فى كتابه على الناس

---

(٢١) فى كتاب الدعوات : باب ٥٩ .

حكم الجاهلية ، وأخبر أنه لا يوجد حكم أفضل من حكم الله ولا أحسن منه ، قال تعالى : « **أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ؟** »(٢٢) ٠

يقول السيد قطب رحمه الله : « من الذى يجرؤ على ادعاء أنه يشرع للناس ، ويحكم فيهم خيرا مما يشرع الله لهم ، ويحكم فيهم ؟ وأية حجة يملك أن يسوقها بين يدى هذا الادعاء العريض ؟

أيستطيع أن يقول : انه أعلم بالناس من خالق الناس ؟ أيستطيع أن يقول انه أرحم بالناس من رب الناس ؟ أيستطيع أن يقول انه أعرف بمصالح الناس من اله الناس ؟ أيستطيع أن يقول : ان الله سبحانه وهو يشرع شريعته الأخيرة ويرسل رسوله الأخير ، ويجعل رسوله خاتم النبيين ، ويجعل رسالته خاتمة الرسالات ، ويجعل شريعته شريعة الأبد ، كان ـ سبحانه ـ يجهل أن أحوالا ستطرأ ، وأن حاجات ستستجد وأن ملابسات ستقع ، فلم يحسب حسابها فى شريعته ، لأنها كانت خافية عليه ، حتى انكشفت للناس فى آخر الزمان ٠

ما الذى يستطيع أن يقوله من ينحى شريعة الله عن حكم الحياة ، ويستبدل بها شريعة الجاهلية ، وحكم الجاهلية ، ويجعل هواه أو هوى شعب من الشعوب ، أو هوى جيل من أجيال البشر فوق حكم الله ، وفوق شريعة الله ؟

ما الذى يستطيع أن يقوله ، وبخاصة اذا كان يدعى أنه من المسلمين ؟

الظروف ؟ الملابسات ؟ عدم رغبة الناس ؟ الخوف من الأعداء ؟

---

(٢٢) سورة المائدة : آية ٥٠ ٠

ألم يكن هـذا كله فى علم الله ، وهو يأمـر المسلمين ان يقيمـوا بينهم شريعته ، وأن يسـيروا على منهجه ، وأن لا يفتنوا عن بعض ما أنزله ؟

قصـور شريعة الله عن استيعاب الحاجات الطـارئة ، والأوضـاع المتجددة ، والأحوال المتغلبة ؟ ألم يكن ذلك فى علم الله ، وهو يشـدد هـذا التشديد ، ويحذر هـذا التحذير ؟

يستطيع غير المسلم أن يقول ما يشـاء ، ولكن المسلم أو من يدعون الاسلام ، ما الذى يقولونه من هذا كله ، ثم يبقون على شىء من الاسلام ؟ أو يبقى لهم شىء من الاسـلام ؟ انه مفـرق الطـريق ، اما اسـلام ، واما جاهليـة ، امـا ايمـان وامـا كفـر ، امـا حـكم الله وامـا حـكم الجاهلية ... »(٢٣) .

* * *

---

(٢٣) فى ظلال القرآن : للسيد قطب رحمه الله : ٩٠٥/٢ .

صـاحب الجنتـــين

هـذه هى القصـة الثانية من قصص هـذه السورة ، والتى تتحدث عن رجلين ، أحـدهما مؤمن ، والآخـر كافر ، وقد قسمت آيات هـذا المثـل الى ثلاثة مشـاهد ، كالآتى :

المشهـــد الأول

نعـم من الله عـز وجـل

وغــرور وكفـر من الانسـان الظلوم الجهول

قال تعـالى : « واضـرب لهم مثـلا رجلـين ، جعلنـا لأحـدهما جنتـين من أعنـاب وحففناهما بنخل وجعلنـا بينهما زرعا (٣٢) كلتا الجنتـين آتت أكلهـا ولم تظـلم منـه شيئا وفجـرنا خلالهما نهرا (٣٣) وكان له ثمـر فقـال لصـاحبه وهو يحـاوره أنا أكثـر منـك مالا وأعـز نفـرا (٣٤) ودخـل جنتـه وهو ظـالم لنفسـه قـال ما أظن أن تبيـد هـذه أبدا (٣٥) وما أظن السـاعة قائمـة ، ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيـرا منهـا منقلبـا (٣٦) » .

المشهـــد الثـــانى

ميـزان للتفاضـل بين النـاس

ونصـح وتهـديد لمن تفاضـل بالأعـراض الزائلة

قال تعـالى : « قـال له صـاحبه وهـو يحـاوره أكفـرت بالذى خلقـك من تراب ثم من نطفـة ثم سـواك رجـلا (٣٧) لكنـا هـو الله ربى ولا أشـرك بربى أحدا (٣٨) ولولا إذ دخلت جنتـك قلت ما شاء الله لا قـوة إلا بالله ، إن تـرن انا اقـل منـك مـالا وولـدا (٣٩) فعسى ربى ان يؤتـين خيـرا من جنتـك ، ويرسـل عليهـا حسـبانا من السماء

فتصبح صعيدا زلقا (٤٠) أو يصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا (٤١) » .

المشهد الثالث

عاقبة الجحود والغرور

قال تعالى : « وأحيط بثمره ، فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها ويقول يا ليتنى لم أشرك بربى أحدا (٤٢) ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا (٤٣) هنالك الولاية لله الحق ، هو خير ثوابا وخير عقبا (٤٤) » .

* * *

تمهيد بين يدى مثل الرجلين

وقبل أن نبدأ تفسير آيات هذا المثل نود أن نذكر بعض الأمور بين يديه حتى يقع هذا المثل عند من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، كما ينبغى أن يكون ، ونقصر حديثنا هنا على النقاط الآتية :

١ - تعريف المثل فى أصل اللغة ، ثم علام يطلق ؟

٢ - معنى ضرب المثل .　　٣ - الغرض من ضرب الأمثال .

٤ - أقسام المثل فى القرآن .

٥ - هل المثل الذى معنا افتراضى لم يقع ، أو حقيقى حدث بالفعل ؟

٦ - من الرجلان صاحبا هذا المثل ؟

٦ - اين هاتا الجنتان ؟　　٨ - ما مناسبة آيات المثل للآيات قبلها ؟

فلنتحدث عنها بشىء من الايجاز ...

أولا : المثل فى اللغة بمعنى الشبه ، وزنا ، ومعنى ، قال ابن منظور : « يقال مثل ومثل وشبه وشبه (بكسر الأول وسكون الثانى ، أو بفتحهما معا) بمعنى واحد ، والمثل - بالفتح - والمثيل كالمثل ، بكسر الميم ، والجمع أمثال »(١) .

ولكن البعض - كالفخر الرازى ، وا بن العربى - والزركشى - اعترض على أن المثل والمثل بمعنى واحد ، من جميع الوجوه ، قال الفخر الرازى : « المثل بكسر الميم - هو الذى يكون مساويا للشىء فى تمام الماهية ، والمثل - بالفتح - هو الذى يكون مساويا له

---

(١) لسان العرب : (مثل) .

فى بعض الصفات الخارجة عن الماهية »(٢) .

ومعنى المثل فى أصل اللغة ، يراد به الشبيه والنظير ، ثم أطلق بعد ذلك على القول السائر بين الناس ، حينما يشبهون مضرب المثل بمورده الذى قيل فيه لأول مرة ، ثم استعير لفظ المثل بعد ذلك للحال ، أو للصفة ، أو للقصة .

وبعض العلماء قد يشترط الغرابة فى الحال أو الصفة أو القصة ، حتى نطلق عليها لفظ المثل ، قال الزمخشرى : « ولم يضربوا مثلا ، ولا رأوه أهلا للتسيير ، ولا جديرا بالتداول والقول ، الا قولا فيه غرابة من بعض الوجوه ، ومن ثم حوفظ عليه ، وحمى من التغيير »(٣) .

ويعلق الزركشى على كلام الزمخشرى بقوله : « وما اقتضاه كلامه من اشتراط الغرابة مخالف لكلام اللغويين »(٤) .

وعلى أى حال فانهم قد اتفقوا على استعارة لفظ المثل للحال ، أو الصفة ، أو القصة .

ومثال ما استعير فيه المثل للوصف قوله تعالى : « **وله المثل الأعلى** »(٥) ، أى الوصف الكامل الشأن ، البالغ النهاية ، فى رفعة القدر .

ومثال ما استعير فيه المثل للحال ، قوله تعالى : « **مثلهم كمثل الذى استوقد نارا** »(٦) ، أى حالهم الذى يعجب منه كل عاقل كحال الذى استوقد نارا .

---

(٢) أنظر أقوال هؤلاء جميعا فى البرهان للزركشى : ٤٩١/١ .
(٣) الكشاف : ٧٢/١ .
(٤) البرهان : ٤٩٠/١ .
(٥) سورة الروم : آية ٢٧ .
(٦) سورة البقرة : آية ١٧ .

ومثال ما استعير فيه المثل للقصة ، قوله تعالى : **« مثل الجنة التى وعد المتقون »**(*) ، أى فيما قصصنا عليك يا محمد من الأمور العجيبة ، والأشياء الغريبة قصة هذه الجنة ، ثم سرع فى بيان ما فيها من عجائب .

ثانيا : أما معنى ضرب المثل فهو : اعتماده ، وصنعه ، من قولهم ضرب الخاتم أى صنعه ، وفى الحديث : « ثم ان الناس اضطربوا الخواتم من ورق »(٧) ، أى صنعوها من فضة ، وحينما يأمر الله تعالى رسوله ﷺ بضرب مثل للناس بكذا وكذا ، فمعنى هذا أنه يأمره بأن يذكرهم ويمثل لهم بهذا الذى ينزل الله عليه .

... وقد يقول قائل : ما السر فى اختيار لفظ (الضرب) فى ذكر المثل ؟ والجواب : أن ذلك لما للمثل من أثر شديد على القلب والنفس ، كما للضرب من شديد الأثر على المضروب .

ثالثا : الغرض من ضرب المثل :

ولما للمثل من حكم جليلة وفوائد عظيمة ، فقد أكثر الله منها فى قرآنه ، وفى سائر الكتب السماوية وهى طريقة عظيمة فى كلام كل الناس ، من عرب وعجم ؛ لما فيها من « ابراز خبيات المعانى ، ورفع الاستار عن الحقائق ، حتى تريك المتخيل فى صورة المحقق ، والمتوهم فى معرض المتيقن ، والغائب كأنه شاهد ، وفيها تبكيت للخصم الألد ، وقمع لثورة الجامح الابى »(٨) .

يقول الفخر الرازى عن الامثال : « أنها تؤثر فى القلوب ما لا يؤثره وصف الشىء فى نفسه ، وذلك لأن الغرض من المثل ، تشبيه

(*) سورة محمد آية : ١٥ .
(٧) أخرجه مسلم فى كتاب اللباس والزينة ، باب طرح الخواتم .
(٨) الكشاف : ١/٧٢ .

الخفى بالجلى ، والغائب بالشاهد ، فيتأكد الوقوف على ماهيته ، ويصير الحس مطابقا للعقل ، وذلك فى نهاية الايضاح ، ألا ترى أن الترغيب اذا وقع فى الايمان مجردا عن ضرب مثل له لم يتأكد وقوعه فى القلب، كما يتأكد وقوعه اذا مثل بالنور ، واذا زهد فى الكفر بمجرد الذكر لم يتأكد قبحه فى العقول ، كما يتأكد اذا مثل بالظلمة ، واذا أخبر بضعف أمر من الأمور ، وضرب مثله بنسج العنكبوت ، كان ذلك أبلغ فى تقرير صورته ، من الاخبار بضعفه مجردا ، ولهذا أكثر الله تعالى فى كتابه المبين ، وفى سائر كتبه أمثاله »(٩) .

من ذلك يتبين أن لضرب الأمثال فى القرآن فوائد عظيمة فى تقريب المعقول كأنه محسوس ، والغائب كأنه مشاهد ، وفى تفخيم الأمر وتحقيره ، وفى تفاوت الأجر ، وفى الثواب والعقاب ، وفى المدح والذم ، وفى الزجر والاعتبار ، والوعظ والتذكير ، حتى ينتفع بها أهل العقول ، كما قال تعالى : « **وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون** »(١٠) .

رابعا : أقسام المثل : ينقسم المثل القرآنى الى قسمين ، ظاهر، وكامن :

(أ) **فالظاهر** : ما صرح فيه بلفظ المثل ، أو ما يدل عليه ، كقوله تعالى : « **مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت** »(١١) .

(ب) **والكامن :** هو ما لم يصرح فيه بالتمثيل ، كتلك الآيات التى تحتوى على معان وضعت لها العرب أمثالا .

---

(٩) مفاتيح الغيب : ٧٢/١ ، ٧٣ .
(١٠، ١١) سورة العنكبوت : آية ٤٣، ٤١ .

كالمثـل القائل : « احذر شر من أحسنت اليه » ، فاننا نجـده فى قوله تعـالى : « **وما نقموا إلا أن أغنـاهم الله ورسوله من فضله** »(١٢) وكالمثـل القائل : (فى الحـركات البركات) ، فاننا نجـده فى قـوله تعالى : « **ومن يهاجر فى سـبيل الله يجـد فى الأرض مراغمـا كثيـرا وسعـة** »(١٣) ، وكالمثـل القائل : (لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين) ؛ فانا نجد فى قوله تعالى : «**قال هـل آمنـكم عليـه إلا كما أمنتكم على أخيـه من قبـل** »(١٤) ، وغير ذلك كثير وكثير .

مـلاحظتـــان

الملاحظة الأولى : نتج عن بلاغة القرآن وفصاحته التى أعجزت العرب والعجم ، أن صـار كثير من عبـاراته جارية مجـرى الأمثال ، وعن ذلك يقول السيوطى : « وهذا هو النوع البديعى المسمى بارسال المثل »(١٥) ، ومنذ لك قوله تعـالى : « **لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون** »(١٦) وقوله : « **الآن حصص الحـق** »(١٧) ، وقوله : « **هل جزاء الإحسـان إلا الإحسـان** »(١٨) ، وقوله : « **لا يكلف الله نفسا إلا وسعها** »(١٩) .

الملاحظة الثانية : تتعلق ببعض المواقف التى تعـرض لبعض الناس فيأتون بنص من القـرآن ، ما جعـل أصـلا لمثـل هـذه المواقف ، قال النخعى : « كانوا يكرهون أن يتـلوا الآية عند شىء يعـرض من أمـور

---

(١٢) سـورة التـوبة آية : ٧٤ .
(١٣) سـورة النسـاء آية : ١٠٠ .
(١٤) سـورة يوسف آية : ٦٤ .
(١٥) الاتقـان : ١٣٣/٢ .
(١٦) سـورة آل عمران آية : ٩٢ .
(١٧) سـورة يوسف آية : ٥١ .
(١٨) سـورة الرحمن : آية ٦٠ .
(١٩) سـورة البقـرة آية : ٢٨٦ .

الدنيـا » ، وقال أبو عبيـد : « وكذلك الرجـل يريد لقـاء صـاحبه ، أو يهم بحاجته فيأتيه من غير طلب ، فيقول كالمـازح : « **جئت على قدر يا مـوسى** »(٢٠) ، فهذا من الاستخفاف بالقـرآن »(٢١) ٠

خامسـا : أما عن : هل المثل الذى معنـاه فى هذه السورة افتراضى لم يقـع ، أو حقيقى حدث بالفعـل ، فاننا نقول : ذهب جمهور العلماء الى أنه قد وقـع بالفعـل ، وبعضهم يرى انه افتراض وتقدير ، ولكننا نميل الى ما ذهب اليه جمهور العلمـاء ، فموقف هـذا الرجـل وقصته لا تخرج عن مواقف وقصص السابقين الذين ذكـرهم الله تعالى فى كتابه ، وكان لهم من الجحود والكفـر مثـل ما وقع منه ، كقوم هـود ، الذين كانوا يبنون بكل ريع آية يعبثون ويتخذون مصانع لعلهم يخلدون ، وكقوم سبأ الذين كان لهممسكن آية ، جنتـان عن يمين وشمال ، وغيـرهم ، وأيضـا فان ضرب الامثال قد جعـل للذكرى والاعتبـار ، وذلك يكون أوقـع فى القلب والنفس ، مما لو كان افتراضيا تقديريا ، وأيضـا فان سياق آيات هـذا المثل جاء على طريق المحاورة الحية ، وليس عن طريق الحكايات المفترضة ، ولذلك يقول الطـاهر بن عاشور : « والأظهر من سياق الكلام ، وصنع التراكيب أن هـذا المثل قصة معلومة ، ولأن ذلك أوقع فى العبرة والموعظة ، مثل المواعظ بمصير الأمم الخالية »(٢٢) ٠

سـادسا : من الرجلان صاحبا هذا المثل ؟

اهتم معظم المفسرين بتعيـين هذين الرجلين ، فقال بعضهم انهما اخوان من بنى مخزوم ، مؤمن وهو أبو سلمة عبد الله بن عبد الأشد ، وكان زوج أم سلمة قبـل رسول الله ﷺ ، وكافر ، وهو الأسود بن عبد الأشد ، وقال آخـرون : هما اخـوان من بنى اسرائيل وهما المـرادان من قوله

---

(٢٠) سـورة طـه آية : ٤٠ ٠
(٢١) البرهان : ٤٨٣/١ ٠
(٢٢) التحرير والتنوير : ٣١٧/١٥ ٠

تعـالى فى سورة الصافات : (**قال قـائل منهم إنى كان لى قـرين**) ، ويذكـر المفسرون عند تفسير هـذه الآية ، قصتهما بعد أن ورثا من أبيهما ثمانية آلاف درهم ، فتشاطراها ، فاشترى الكافر بماله أرضـا بألف ، ودارا بألف ، وتزوج امـرأة بألف ، واشترى خدما ومتـاعا بألف ، أما المؤمن فتصدق بها كلها ، حيث آثر أرض الجنـة ، ودارها ، والحـور العين فيها ، وخدمها ومتاعها ، على أرض الدنيا ، ودارها ، ونسائها ، وخدمها ومتاعها ، وحتى صـار فقيرا معدما ، وذهب يستعطى أخـاه ، فتكبر عليـه وكاثره وفاخره .

أقول كل هـذه الروايات وأمثالها لا يصح سندها ، وخاصـة تلك التى تنص على أن الرجلين من بنى اسرائيل ، فهى روايات اسرائيلية ، لم ترد من طـريق معصـوم .

وأيا ما كان الأمـر ، فلا فائدة فى تعيينهما ، حيث لا يتعلق بذلك كبير غـرض ولا صغير ، والا لذكـره القـرآن أو وضحته السنة .

سـابعا : أين هـاتن الجنتـان ؟

وما قلناه فى تعيين الرجلين نقوله ايضـا فى تعيين هاتين الجنتين ، فلم يرد فى نص صحيح تعيين مكانهما ، حيث لا فائدة فى هـذا التعيين ، قال أبو حيان : « وأبهم تعـالى مكان الجنتـين ، اذ لا يتعلق بتعيينـه كبير فائدة »(٢٣) ، أما ما ذكـرة البعض من أن بحيرة تنيس كان أصلها هاتين الجنتين ، فلذلك مما لم يرد فى شرع ، أو فى مصدر يوثق به .

ثامنـا : مناسبة آيات المثل لمـا قبلها من آيات

قلنا ان المنـاسبة بين سـور القـرآن وآياته تعد وجها من وجـوه اعجازه ، ولذلك أفـردها العلمـاء بالتصنيف والدراسـة ، فاذا ما جئنا

---

(٢٣) البحر المحيط : ٦/١٢٤ .

الى وجـه ارتباط آيات هـذا المثـل بما قبله ، فاننـا نقول : بعـد أن تحدثت الآيات السـابقة عن حال فقـراء المسلمين ، الذين أمـر رسول الله ﷺ بملازمتهم ، وعن حال أغنيـاء الكفار ، الذين نهـاه الله عن النظر اليهم بعين الاعجاب ، واختتمت تلك الآيات ببيان مصير كل من الفريقين ، حيث أعـد الله للمؤمنين جنـات النعيم ، جـزاء ايمـانهم وشـكرهم ، وللكافرين العذاب الأليم جزاء كفرهم وتفاخرهم ، بما لا يوجب التفاخر ، ناسب أن ياتى بذكـر مثـل يبين به أن دوام الحال من المحال ، فعسى أن ينقلب الغنى فقيـرا ، والفقـير غنيـا ، والعبرة بحسن العـاقبة التى لا تكون الا للمؤمنين المتقين ، وسلامة المنقلب ، التى لا تكتب الا للذاكرين الشـاكرين .

والآن

ننتقـل الى التفسـير التحليلى للمشاهد الثلاثة ، لآيات هذا المثل ، واستخـراج العبر منها ، سـائلين المولى عـز وجل أن يجعـل لنـا من أمـرنا رشـداً .

المشهد الأول
نعم من الله عز وجل
وغرور وكفر من الانسان الظلوم الجهول

قال تعالى : « **واضرب لهم مثلا رجلين ، جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا (٣٢) كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا وفجرنا خلالهما نهرا (٣٣) وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا (٣٤) ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا (٣٥) وما أظن الساعة قائمة ، ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيرا منها منقلبا (٣٦)** » .

معانى المفردات وأسرار التراكيب

فى هذه الآيات الكريمة يضرب الله تعالى للناس مثلا بقصة رجلين ، أحدهما كان رمزا للغرور والكفر ، والآخر كان رمزا للتواضع والايمان ، ويحكى لنا مصير كل من الرجلين ، حتى تكون قصتهما مثلا حيا واقعا لكل الناس فيتعظ المتكبر بما حدث لسلفه صاحب الجنتين ، ويعتز المتواضع بقيم السماء وباسلامه . ويعلم أن العاقبة للمتقين وأن الجنة مثوى الصابرين الشاكرين ..

فيقول الله فى بداية هذا المشهد الذى يصور لنا نعم الله على عبد من عباده ، وكيفية استقبال هذا العبد لنعم ربه عز وجل : (**واضرب لهم مثلا رجلين**) ، أى اذكر لهم ومثل لهم بحال ومصير رجلين ، حتى يتعظوا ويعتبروا .

والمضروب لهم المثل ، أصحاب الضمير فى (لهم) : هم فريقا الايمان والكفر فى كل زمان ومكان ، ويدخل فيهم دخولا أوليا المؤمنون والكافرون فى عصر رسول الله ﷺ .

وقد ذكرنا فى النقاط التمهيدية لهذا المثل معنى المثل ، ومعنى ضرب المثل ، فلا داعى لاعادته ، أما الرجل : فمعروف ، وهو الذكر من نوع الانسان ، قال بعضهم لفظ الرجل يطلق على الذكر اذا كان فوق الغلام ، وذلك اذا احتلم وشب ، وقال آخرون هو رجل من ساعة أن تلده أمه ، الى ما بعد ذلك ، والأنثى رجلة ، بفتح أوله وثالثه وضم ثانيه ، قال الشاعر :

خرقوا جيب فتاتهم لم يبالوا حرمة الرجلة

أراد بجيبها فرجها ٠

وجمع رجل رجال ، ويجمع رجال على رجالات ٠

قال ابن برى : الأراجل جمع أرجال ، وأرجال جمع راجل ٠

اما من هما هذان الرجلان ، فقد ذكرنا سابقا ، أن القرآن لم ينص على ذلك ، ولم توضحه السنة لعدم فائدة فى معرفة ذلك تعود على المسلمين ، فى الدنيا أو فى الدين ٠

وقوله تعالى (مثلا رجلين) مفعولان لقوله (واضرب) على أنه بمعنى : اجعل ، فيحتاج لمفعولين ٠

وبعد أن أمر الله رسوله ﷺ بضرب هذا المثل للمؤمنين والكافرين ، شرع سبحانه فى تفصيل مضمون هذا المثل ، فأخبرنا أنه أنعم على عبد من عباده بجنتين عظيمتين من أعناب ونخيل وزروع ، وخلق له نهرا عظيما خلالهما لتروى الجنتان بسهولة ويسر ، حتى صار الرجل غنيا ذا أموال عظيمة من ذهب وفضة ، فقال تعالى : (**جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب ، وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا**) ، واسناد الفعل (جعل) الى ضمير العظمة للدلالة على عظم هاتين الجنتين ، كما سيتضح قريبا ٠

وقوله (جعلنـا) أى خلقنا ، وهـذا الفعـل له معـان كثيرة فى اللغـة ، والمقـام يضيق عن ذكـرها .

وقوله (لأحدهما) فيـه ابهام من هو ، أهو المؤمن أم الكافـر ؟ ، ثم تجيء باقى الآيات فتعينـه بانه الكافر .

وقوله (جنتـين) تثنية جنـة ، والجنـة : البستان ذو الشجـر والنخـل ، والعرب تسمى النخيل جنة ، وهذا تخصيص ، والا فهو يقال للنخـل وغيـرها .

قال صاحب لسان العـرب : « وقال أبو على فى التذكـرة : لا تكون الجنـة فى كلام العـرب الا وفيها نخـل وعنب ، فان لم يكن فيها ذلك ، وكانت ذات شجر فهى حديقة ، وليست بجنة »(١) .

والجنـة مأخوذ من الاجتنان ، وهو الستر ، لتكاثف أشجارها ، وتظليلها ، بالتفاف أغصانها ، ولذلك سمى الجنين جنينـا ، لاستتـاره فى بطن أمه ، وسمى الجن جنـا : لاستتارهم واختفائهم عن الأبصار ، ويقال جنه الليـل ، وجن عليه ، أى ستره .

فالله تعـالى قد من على هـذا الرجل بحديقتين ، اتصفتا بصفات عظيمة ، من هـذه الصفات كون أشجارها عالية السيقان ، وكون أغصانها متشابكة مورقة بكثافة بحيث تظلل وتستر ما تحتها .

ثم بين الله تعـالى ما فى هاتين الجنتـين بقـوله : **من أعنـاب ، وحففناهما بنخـل ، وجعلنـا بينهما زرعـا)** .

والأعناب جمع عنب ، والعنب فاكهة معـروفة ، ومفـرد العنب : عنبـة . ويقـال له العنباء ، بالمد أيضـا .

---

(١) لسـان العـرب : (جنن) :

قال الجوهرى : الحبة من العنب : عنبة ، فان أردت جمعه فى أدنى العدد جمعته بالتاء ، فقلت عنبات ، وفى الكثير : عنب ، وأعناب.

قال الآلوسى : « والمفهوم من كلام الراغب أن العنب مشترك بين الثمرة ، والكرم »(٢) .

ثم ذكر الله تعالى صفة أخرى من صفات هاتين الجنتين بقوله : (**وحففناهما بنخل**) ، والحف بالشىء الاحاطة به من كل جانب ، قال تعالى : « **وترى الملائكة حافين من حول العرش** »(٤) .

والحفاف : الجانب ، والحفافان : جانبا كل شىء ، والجمع أحفة ، بفتح أوله وكسر ثانيه .

والنخل والنخيل شجر التمر ، قال ابن منظور : « وأهل الحجاز يؤنثون النخل ، وفى التنزيل العزيز : « **والنخل ذات الأكمام** »(٥) ، وأهل نجد يذكرون بفتح الذال ، قال الشاعر فى تذكيره :

وحدث بأن زالت بليل حمولهم

كنخل من الأعراض غير منبق(٦)

والفعل حف يتعدى لمفعول واحد ، وتزيده الباء مفعولا ثانيا ، كقولك غشيه ، وغشيته به .

فيكون معنى هذه الجملة : وأحطنا هاتين الجنتين من جميع جوانبهما بأشجار التمر ، كأنها سور مضروب حول الجنتين ، مما يشرح صدر الناظر ، وتقر عيناه بهذا المنظر الرائع ، وهذا مما يفضله أصحاب البساتين فى بساتينهم .

---

(٢) تفسير الآلوسى (روح المعانى) : ٢٧٣/١٥ .
(٤) سورة الزمر آية : ٧٥ .
(٥) سورة الرحمن آية : ١١ .
(٦) لسان العرب : (نخل ونبق) ، ونخل غير منبق أى غير مصطف على سطر مستو .

ثم ذكر الله صفة أخرى من صفات هاتين الجنتين بقوله : **(وجعلنا بينهما زرعـا)** .

والزرع كل شئ يحرث ، ويطلق تغليبا على البر والشعير ، ولكن ليس هنا ما يفيد تخصيص هذا الزرع بنوع معين من أنواع النبات .

بل أن التنكير فى قوله تعالى : (زرعا) يفيد التنويع والتكثير ، والمـراد بقوله (بينهما) أى وسطهما .

فهذه الآية الكريمة تدل على أن الله تعالى قد من على هذا الرجل بجنتين جامعتين للأقوات والفواكه ، ولم يتخلل هاتين الجنتين ما يفصل بين أجزاء أراضيهما رغم اتساع المساحة ، وتباعد الأطراف ، بل جعل الله وسط هاتين الجنتين زروعا كثيرة ، لا ينقطع زرع الا وقد نبتت قبل هذا الانقطاع أنواع أخرى ، فزرعها لا ينقطع وثمرها لا يتوقف ،

بل فى كل لحظة من اللحظات تخرج أنواعا دارة متواصلة ، تسر الناظرين ، ويتقوت منها الناس ويتفكهون ، فما أجملهما من جنتين ، وما أعظمه من تمر وزروع !!

قال الماوردى : « الجنة : البستان ، فاذا جمع العنب والنخل ، وكان تحتها زرع ، فهى أجمل الجنان ، وأجداها نفعا ، لثمر أعاليها ، وزرع أسافلها ، وهو معنى قوله : **(وجعلنا بينهما زرعـا)** »(٧) .

ثم بين الله تعالى أن هاتين الجنتين لم تكونا كسائر الجنان ، يكثر ثمرها فى عام ويقل فى آخر ، بل ان كلا منهما تعطى كل عام بحيث لا ينقص ثمر شجرة واحدة مطلقا ، فقال **(كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا)** .

---

(٧) تفسير الماوردى (النكت والعيون) : ٢/٤٨١ .

وقوله (كلتا) اسم مفرد لفظا ، مثنى معنى ، فى الرأى المشهور ، الذى هو مذهب البصـريين ، أما الكوفيون فيرونه مثنى لفظا ومعنى ، ومثـله كلا ، الا أن كلا للمذكـر ، وكلتا للمؤنث ٠

واذا أضيف (كلا وكلتا) الى اسم مظهـر كانا بالألف رفعا ونصبا وجـرا ، كقولك جاءنى كلا الطـالبين ، وكلتا الطالبتين ، ورأيت كلا الطالبين وكلتا الطالبتين ، ومررت بكلا الطالبين ، وبكلتا الطالبتين ٠

أما اذا أضيفا الى ضمير فيكونان بالألف فى حالة الرفـع ، وبالياء فى حـالة النصب والجـر ٠

تقول جاءنى كلاهما وكلتاهما ، ورأيت كليهما وكلتيهما ، ومررت بكليهما وبكلتيهما ٠

وبعضهم ذهب الى أن كلا وكلتا مع الضمـير مثـل الظاهر ، أى بالألف ، رفعـا ونصبا وجـرا ٠

ويجـوز فى خبر (كلا وكلتا) ـ على المذهب المشهور ـ الافـراد والتثنية ، فالافـراد باعتبـار اللفظ ، كما فى قوله : (**آتت أكلهـا**) ، والتثنية باعتبـار المعنى ٠

وقد جمع الفـرزدق بين افـراد خبرهما وتثنيته فى بيت واحد ، حينمـا قـال :

كلاهمـا حـين جـد الجـرى بينهما

قـد أقلعـا ، وكلا أنفيهمـا رابى

فثنى فى قوله (أقلعـا) ، وأفـرد فى قوله (رابى) ٠

ومعنى قوله تعـالى : (**آتت أكلهـا**) أى أعطت ثمـرها ، وسمى الثمر أكلا لأنه أصبح صالـحا للأكل ٠

وجـاء خبر (كلتا) مفـردا مراعاة للفظها المفـرد ، ولو جاء على المعنى لقيـل آتتـا ٠

وتقرأ الكاف فى قوله تعالى ((أكلها)) بالضم والسكون ، وهما قراءتان سبعيتان متواترتان .

وقوله تعالى : ((ولم تظلم منه شيئا)) ، المراد من الظلم هنا نقصان الأكل ، تقول للآخر ظلمتنى حقى ، أى لم تعطنى حقى كاملا .

قال الطاهر بن عاشور : ((واستعير الظلم للنقص ، على طريق التمثيلية ، بتشبيه هيئة صاحب الجنتين فى اتقان خبرهما - بفتح أوله وسكون ثانيه - ، وترقب اثمارهما بهيئة من صار له حق فى وفرة غلتها ، بحيث اذا لم تئت الجنتان بما هو مترقب منهما أشبهتا من حرم ذا حق حقه فظلمه ، فاستعير الظلم ، لاقلال الاغلال ، واستعير نفيه للوفاء بحق الاثمار))(٨) .

فهاتان الجنتان ليستا كسائر البساتين ، التى يكثر ثمرها فى عام ، ويقل فى عام آخر غالبا ، بل اننا نلاحظ بعض الأشجار يثمر فى بعض الأعوام ، ولا يثمر فى أعوام أخرى مطلقا ، أما هاتان الجنتان ، فان ثمرهما يأتى وافيا كاملا ، دونما نقص شىء منه ولو كان قليلا ، وذلك مستفاد من عدم النقصان المعبر عنه بعدم ظلم الجنتين ، وبتنكير شىء بعد النفى ، وذلك يفيد عموم انتفاء أى نقص من ثمر الجنتين .

ثم ذكر الله تعالى نعمة أخرى من النعم العظيمة التى من بها على صاحب هاتين الجنتين ، فقال : ((وفجرنا خلالهما نهرا)) ، والمراد بقوله : ((فجرنا)) شققنا وأجرينا ، وقوله ((خلالهما)) أى وسطهما ، مأخوذ من الخلل - بفتح الأول والثانى - ، وهو منفرج بين شيئين ، وجمع خلل : خلال بكسر الخاء ، وهو هنا منصوب على الظرفية ، حيث كان النهر يجرى من داخل الجنتين .

---

(٨) التحرير والتنوير : ٣١٨/١٥ .

وقوله (نهرا) واحدا لأنهار ، وهو فى اللغة بفتح الهاء وسكونها، ويجمع على أنهار ونهر ، ونهور - بضم الأول والثانى فيهما - ، مأخوذ من الانهار ، بمعنى الاسالة والصب بكثرة ، يقال : أنهرت الدم ، أى أسلته ، والنهر لا يطلق الا على المياه العذبة ، فاذا اتسع النهر وعظم كنهر النيل ودجلة جاز أن يسمى بحرا ، أما البحر فى اللغة فيطلق على ما كان واسعا عظيما ، كثير المياه ، سواء أكان ماؤه عذبا أم ملحا ، وسيأتى فى قصة موسى والخضر عليهما السلام توضيح لذلك أكثر ان شاء الله تعالى .

وعلى ذلك فيكون معنى قوله تعالى : **(وفجرنا خلالهما نهرا)** أى تسهيلا وتيسيرا على هذا الرجل ، وارادة منا لدوام ثمر الجنتين وهذا الزرع ، شققنا له وسط الجنتين نهرا ، وأجرينا فيه الماء ، متدفقا بكثرة كاثرة ، كأن مجراه فجرت عيونا من كل ناحية ، ليدوم شرب الجنتين ، وليزيد بهاءهما بهاء أبهى ، وجمالهما جمالا أجمل .

قال الماوردى معلقا على وجود هذا النهر : « ليكون ثمرهما وزرعهما بدوام الماء فيهما أوفى وأروى ، وهذه غاية الصفات ، فيما يجدى ويغل »(٩) .

وقرأ يعقوب قوله تعالى : (وفجرنا) بتخفيف الجيم ، والباقون بتشديدها ، والتشديد للمبالغة فى قوة التفجير وكثرة المياه ، وقال بعضهم : لأن النهر ممتد فكأنه أنهار .

وربما يسأل سائل فيقول : ان تفجير النهر يكون أولا ، وايتاء الأكل يكون ثانيا ، فلم ذكر المسبب قبل السبب ؟

وللاجابة عن ذلك نقول : ان الله لو ذكر السببقبل المسبب ، أى تفجير النهر قبل ايتاء الأكل ، فربما فهم أن المجموع نعمة واحدة ،

---

(٩) تفسير الماوردى : ٤٨١/٢ .

حيث ان ايتاء الأكل مترتب على تفجير النهر ، ولكن الله تعالى - وهو أعلم بحقيقة مراده - اراد أن يفهمنا أن نعمة ايتاء الأكل نعمة مستقلة بذاتها ، وأن نعمة تفجير الأنهار نعمة مستقلة بذاتها أيضا ، فى تكميل منافع الجنتين ومحاسنهما .

وفى وصف هاتين الجنتين بكل ما سبق ما يجعل الانسان يستبعد وجود بستان فى هذه الحياة أفضل منهما ، ولذلك يقول ابن عطية :

« وتأمل هذه الهيئة التى ذكر الله ، فان المرء لا يكاد يتخيل اجل منها فى مكاسب الناس ، جنتا عنب ، أحاط بهما نخل ، بينهما فسحة ، هى مزدرع لجميع الحبوب ، والماء المعين يسقى جميع ذلك من النهر »(١٠) .

ثم أخبرنا الله تعالى عن مزيد من هذه النعم التى أنعم بها على هذا الرجل ، فقال : **(وكان له ثمر)** .

وقوله تعالى : (ثمر) قراه عاصم بفتح الثاء والميم ، وابو عمرو بضم الثاء وسكون الميم ، والباقون بضم الثاء والميم .

والثمر - كما يطلق على حمل الشجر - يطلق ايضا على انواع المال من الذهب والفضة وغيرهما ، وهو المراد هنا ، لان الله تعالى قال قبل ذلك عن الجنتين : **(وجعلنا بينهما زرعا ، كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا)** ، فاقتضى العطف بعد ذلك أن يكون المراد من قوله : **(وكان له ثمر)** أنواعا من المال ، غير الثمار المذكورة اولا ، ولذلك قال الالوسى : « وحمله على حمل الشجر - كما فعل ابو حيان وغيره غير مناسب للنظم »(١١) .

---

(١٠) البحر المحيط : ٦/١٢٤ .
(١١) تفسير الالوسى : ١٥/٢٧٤ .

قال ابن منظور : « الثمر حمل الشجر ، والثمر أنواع المال ، وجمع الثمر ثمار ، وثمر بفتح أوله وضم ثانيه جمع الجمع ، قال قال أبو الهيثم : ثمرة ، ثم ثمر ، بفتح الأول والثاني ، ثم ثمر بضمهما جمع الجمع ، وجمع الثمر بضمهما الثمار ، مثل عنق وأعناق ، والثمر بضمهما ، المال المثمر ، يقال : ثمر الله مالك أي كثره ، ويطلق الثمر أيضا على الولد ، وفي الحديث : « قبضتم ثمرة فؤاده ؟ »(١٢) .

وقال النابغة :

مهلا فداء لك الأقوام كلهم

وما أثمر من مال ومن ولد

فهذا الرجل كان وافر اليسار من كل وجه ، حيث أنعم الله عليه ببناتين الجنتين العظيمتين ، ويسر عليه سقيهما ، حيث فجر له نهرا يجري في وسطهما ، وجعل جنتيه وزرعه بخلاف أي بستان ، حيث لا تنقص الثمار والزرع في سنة كبقية الثمار والزروع ، بل هي دائمة الاعطاء الكثير والانبات المستمر الوفير ، ومع هذا فقد أعطاه من أنواع المال ما أعطاه حتى يستطيع الانفاق على جنتيه كما يشاء ، ويستغله فيما يعود عليه بالخير كما يريد .

فيا ترى ماذا كان موقف هذا الرجل صاحب هذه النعم الجليلة ممن أنعم عليه بها ، أشكر المنعم وتواضع ؟ أم جحد وتطاول ؟

ذلك ما يجيب عنه هذا الحوار الذي دار بينه وبين صاحبه ، حيث يقول تعالى : « فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا

---

(١٢) أخرجه الترمذي ، في كتاب الجنائز ، باب فضل المصيبة اذا احتسب ، وقال : حسن غريب .

واعــز نفــرا ، ودخــل جنتــه وهو ظــالم لنفســه ، قال ما أظن أن تبيد هــذه أبدا ، وما أظن الســاعة قائمــة ، ولئن رددت إلى ربى لأجــدن خيــرا منهــا منقلبــا » .

انه موقف الظلوم الجهول ، يقفــه هــذا الرجل من نعم ربه ، بل من ربه نفســه ، فيدخل فى حــوار مع صاحبه ، ليكشف عن سوء نيته ، وفســاد طويتــه .

والفــاء فى قوله : (**فقال لصاحبه**) تفريعية ، حيث تفــرع هــذا القول على ما تضمنته الجمل الســابقة ، من نعم عظيمة ، من شــأنها أن تجعل من فسدت فطرته ، وختم على قلبه أن ينطق بمثل هذا القول .

وقوله (لصاحبه) لا ينفى كون الرجلين شقيقين ، وان كنا لا نجزم بذلك أيضــا ، لأن الشقيق قد يصاحب شقيقه .

والمحاورة : مراجعة الكلام فى المخاطبة ، يقال أحــار عليه جوابه ، أى رده ، وما أحار بكلمة ، أى ما رد جوابا ، وقال تعــالى : « **إنه ظن أن لن يحــور** »(١٣) .

فالصاحب المسلم ـ شــأن كل صديق مخلص ـ بدأ حوارا مع صاحبه الكافر ، ليزرع فى قلبــه ايمانا بالله واليوم الآخــر ، وشــكرا لصــاحب النعمة ، وتواضعاً لعبــاد المنعم ، فما كان من صاحبه الكافر الا أن رد على وعظــه وارشــاده بقوله : (**أنا أكثر منــك مالا وأعز نفــرا**) .

وعلى هــذا تكون جملة (**وهو يحــاوره**) جملة حالية ، وصلحب الحال الصاحب المســلم ، أى كان يحاوره بالوعظ ، وبالدعوة الى الايمان بالله واليوم الآخر ، وقال بعضهم : ان صاحب الحال هو الصاحب الكافر ، أى وهو يراجعــه الكلام فى الاشراك بالله ، وفى انكار البعث .

---

(١٣) الانشقاق : آية ١٤ .

وعلى أى حال ، فان هـذا الكافر حينما كلمه صاحبه فى الايمـان بالله واليوم الآخر عدل عن المجادلة بالتى هى أحسن الى اظهار عظمته ، وتكبر على صاحبه المسلم بما وهبه الله من نعم فقال له : **(أنا أكثـر منك مـالا وأعـز نفـرا)** ٠

وأفعـل التفضيل هنا على بابه ، أى أنه كان لكل من الصاحبين مال ونفـر ، الا أن الكافر كفته فى ذلك أرجح ، بدليـل قول الصاحب المسلم : **(إن ترن أنا اقـل منـك مـالا وولدا)** ٠

وهـذا يدل على عدم صحة ما يذكـره الرواة من أنه كان فقـيرا معـدما لا مال له ، وذهب اليه يستعطيه ٠

وقوله : **(وأعـز نفـرا)** : العـزة فى الأصـل : القوة والشدة ، والغلبـة ، والرفعة والامتناع ، يقال : رجل عـزيز ، أى منيع لا يغلب ولا يقهـر ٠

والنفـر : اسم جمـع لا واحد له من لفظـه ، يطلـق على ما بين الثلاثة الى العشرة ، من الرجال خاصـة دون النسـاء ، وفى الحديث : أن امـرأة قالت : « ونفـرنا خلوف »(١٤) بضم الأول والثـانى ، أى أن رجالها ـ كما قال ابن حجر فى فتح البارى ـ غابوا عن الحى ٠

قال الليث : « يقال هؤلاء عشـرة نفر ، أى عشرة رجال ، ولا يقال عشرون نفـرا ، ولا ما فـوق العشرة »(١٥) ٠

والنفـر عشيرة الانسـان وأصحابه الذين ينفـرون معه أى يقاتلون معـه ، ويدافعـون عنـه ٠

واختلف المفسرون فى المـراد بهم هنا :

---

(١٤) أخرجه البخارى فى كتاب التيمم ، باب الصعيد الطيب وضـوء المسلم ، وانظر فتح البارى : ٥٣٨/١ ٠

(١٥) لسـان العـرب : (نفـر) ٠

١ ـ فقال بعضهم ان المـراد حشمه وأنصـاره ٠

٢ ـ وقال آخـرون : ان المـراد أولاده الذكور ، لأنهم هم الذين ينفرون معـه دون الاناث ، وأيد أصحاب هـذا الرأى رأيهم برد الصاحب المسلم عليه بقوله : (**إن ترن أنا أقـل منـك مالا وولدا**) ٠

٣ ـ وقال فـريق ثالث : ان المـراد بالنفـر عشيرة الصاحب الكافر ، وهـذا يعنى أنهما لم يكونا أخوين ، لانهما لو كانا أخوين لكانت عشـيرتهما واحـدة ٠

وعلى ذلك يكون حاصل قول الكافر لصاحبه : (**أنا أكثـر منـك مـالا وأعـز نفـرا**) ، أن ترفع عليه بما له وجاهه ، وهـذا ـ كما يقول أبو حيان ـ على عادة الكفـار فى الافتخار بكثر المـال ، وعزة العشيرة ، والتكبر والاعتزاز ، بما نالوه من حطام الدنيـا (١٦) ٠

وقدم الترفع والتكبر بالمـال ، على الترفع والتكبر بالنفـر ، لأن المـال عصب الحياة ، ويقوم فى كثير من الأحيان بما لا يقوم به غيره ، لذا نراه مقـدما فى كثير من آيات القـرآن ، كقوله تعـالى بعد مثـل هذين الرجلين بآية واحدة : « **المـال والبنون زينة الحياة الدنيا** »(١٧) ، وغير ذلك من الآيات ٠

وبعد أن تطاول الكافر على صاحبه المؤمن ، بكثرة المـال وعـزة الانصـار ، أراد أن يطلعـه على بعض ما اغتر به وترفـع ، ليراه على الحالة الموجبة للبهجة والسرور ، واستحقاق التكبر والتفاخر ، كما تقتضيه الأعـراف البشـرية الضـالة عن هدى السماء ، فاصطحبه الى جنتـه ، وهو فى غاية العجب ، وقمـة الغـرور ، ونهاية الكفـر والكفـران ، وكان منـه ما قصـه الله علينا بقوله : « **ودخـل جنتـه وهو ظـالم لنفسه**

---

(١٦) البحـر المحيط : ١٢٥/٦ ٠

(١٧) سـورة الكهف آية : ٤٦ ٠

قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا ، وما أظن أن الساعة قائمة » .

وفى قوله : (ودخل جنته) افراد للجنة بعد تثنيتها فى كل السياق السابق ، وقد اختلف المفسرون فى سر ذلك .

١ - فذهب بعضهم الى أن السر فى ذلك هو أن الدخول يبدأ فى واحدة أولا ثم فى الأخرى ثانيا ، اذ لا يمكن دخولهما معا ، فى وقت واحد .

٢ - ونص آخرون على أن السر فى ذلك هو اتصال احداهما بالأخرى ، فكان الجنتين جنة واحدة .

٣ - وفطن الزمخشرى رحمه الله الى سر لطيف دقيق لم يسبق اليه ، حينما قال ان المعنى هو أن هذا الكافر دخل ما هو جنته ، التى ليس له جنة غيرها فى الآخرة ، يعنى أنه لا نصيب له فى الجنة التى وعد المؤمنون ، فالذى امتلكه فى الدنيا هو جنته لا غير ، ولم يقصد الجنتين ، ولا واحدة منهما »(١٨) .

وهذا الذى ذهب اليه الزمخشرى صواب من حيث اللغة ، لطيف عظيم من حيث المعنى ، أما من حيث اللغة ، فان اضافة المفرد هنا تفيد الاستغراق والعموم ، فتدل على ما تدل عليه التثنية ، أما من حيث المعنى فان رأى الزمخشرى يفيد زيادة على ما ذهب اليه الآخرون ، هذه الزيادة تتمثل فى الاشارة الى أن هذا الرجل لا نصيب له الا ما أعطى فى الدنيا ، ولا حظ له فى جنة المؤمنين فى الآخرة .

قال الآلوسى : « وهو معنى لطيف ، دق تصوره على أبى حيان ، فتعقبه بما تعقبه » . ثم وصف رأى أبى حيان ورأى غيره ، بأنه خال عما أشير اليه من النكتة (١٩) .

---

(١٨) الكشاف : ٧٢١/٢ .
(١٩) تفسير الآلوسى : ٢٧٥/١٥ .

وقوله تعـالى : (وهو ظالم لنفســه) جملة حالية ، تصور لنا حال هــذا الكافر ، وهو داخل جنتــه ، ان الواجب الذى تفرضــه عليه كثرة النعم أن يقوم بشــكر من أنعم عليــه بها ، فيحقق لنفســه السعادة فى الدارين ، أما أن يضــع مكان الشكر جحود النعمــة والمنعم ، فذلك هو الظــلم بعينــه ، ويترتب عليــه أيضــا قيادة نفسه الى نار وقودها الناس والحجارة ، بدلا من قيادتها الى جنــة عرضها السموات والأرض ، وذلك ظلــم للنفس ما بعــده ظــلم .

وحينمــا دخــل جنتــه نظــر اليهــا بغــاية العجــب والعجــب ، وقــال : (ما أظــن أن تبيــد هــذه أبدا) ، وهــذه الجملة استئنافية ، مبنيــة على ســؤال نشــأ من الاخبــــار عن دخــول هــذا الرجــــل جنته ، فكأنه قيــل فماذا قال حين دخلهــا وهو ظالم لنفســه ؟ فقيــل قــال ما أظن .

والظن المنفى هنا بمعنى اليقين ، كقوله : « إنى ظننت أنى مــلاق حسـابيه »(٢٠) ، كما أن العلم يستعمل أحيانا استعمال الظن ، كقوله تعــالى : « فإن علمتموهم مؤمنــات فلا ترجعــوهن إلى الكفار »(٢١) أى : ان غلب على ظنكم أنهن مؤمنــات ، واسم الاشــارة (هــذه) يعود الى جنتــه التى دخلها ، وقوله (تبيــد) معنــاه : تهلك ، من قولهم : باد الشىء يبيد اذا هلك .

فالرجل قد قطــع بأبدية هــذه الجنة ، وعدم فنائها مطلقا .

وقد يقول قائل : انه لا يوجد عاقل يقطــع بأبدية هــذه الجنــة ، فمثلها فى ذلك كســائر أحوال الدنيــا ، فكيف قطــع هــذا الكافر بأبدية جنتــــه ؟

---

(٢٠) ســورة الحــاقة آية : ٢٠ .
(٢١) ســورة الممتحنــة آية : ١٠ .

ويجـاب عن ذلك :

١ - بأنه أراد أبديتها مدة حيـاته هو ، ووجوده على ظهر الأرض . وذلك لحسن قيامه عليها لتوافـر المـال والخدم والمـاء وغير ذلك .

٢ - أو أنه أراد عدم فناء نوعها ، وان فنى كل شخص من أشجارها .

٣ - وقال بعض العلمـاء أنه ما أراد الا : أن هذه الجنة التى يتحدث عنها بشخصها - وليس بنوعها - لا تفنى ولا تهلك ، وقد قال هذه الكلمة فى لحظة غشى فيها حب الدنيـا وعجبه بها عقـله وكيانه ، مما جعله ينطق بما لا ينطق به العقلاء .

ثم انتقل الرجل من الاخبار عن يقينه بدوام جنته ، الى الاخبار عن يقينـه بعدم البعث بعد الموت ، فقال : **(وما أظن السـاعة قائمـة)** ، أى كائنة فى المستقبل .

ولا يوجد تلازم بين هـذين المعتقدين ، ولكن يبدو أن هـذا الكافر قد أخبر بمعتقديه هـذين ، ردا على صاحبه المؤمن ، الذى كان يعظه بأمـرين :

١ - بترك الاغتـرار بجنته التى لابد وأن تفنى مع كل شىء كتب الله عليـه الفنـاء .

٢ - وبعمـل الصالحات الباقيات ، التى تنفعه يوم الدين ، يوم لا يغنى عن الانسـان كثرة المـال ، أو عزة النفر والبنين .

ثم افترض الكافر - جـدلا - أنه لو كان هناك يوم آخـر ، يبعث فيه النـاس من موتهم كما يقول صاحبه ، فانه سيجد هناك من المـال والنفـر والجنات ، ما يفوق هـذا الذى كان له فى الدنيـا ، استمع اليـه وهو يقول فى وقاحة : **(ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيرا منها منقلبا)**

واللام : لام القسم ، والضمير فى قوله (منها) يعود على الجنـة التي دخلها ، وهـذا على غير قـراءة نافع وابن كثير ، فانهما قد قـرءا

(**خيرا منهما**) ، فيكون الضمير حينئذ عائدا على الجنتين ، والمنقلب : يراد به هنا المصير والعاقبة ، وهو منصوب على التمييز .

فالرجل قد أقسم بالله تعالى أنه لو قدر جدلا أن الناس ستقوم من قبورهم بعد فناء هذه الدنيا ، فان الله تعالى سيعطيه فى الآخرة أفضل مما أعطاه فى الدنيا ، والسبب فى وقوع هذه الشبهة عنده - كما قال الفخر الرازى - أنه تعالى لما أعطاه المال فى الدنيا ظن أنه انما أعطاه ذلك لكونه مستحقا له ، والاستحقاق باق بعد الموت ، فوجب حصول العطاء ، والمقدمة الأولى كاذبة ، فان فتح باب الدنيا على الانسان يكون فى أكثر الأمر للاستدراج والتملية (٢٢) .

وقول هذا الرجل كقول من قال الله فيه : « **أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا ؟ أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا ؟** »(٢٣) ، وكقول من قال : « **وما أظن الساعة قائمة ، ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى** »(٢٤) .

ويلاحظ أن صاحب الجنتين قال : (**ولئن رددت**) بخلاف الآخر الذى قال : (**ولئن رجعت**) ، وعن سر ذلك يقول الآلوسى : « وكأنه لسبق ما يشق عليه فراقه ، وهى الجنة التى ظن أنها لا تبيد جاء (رددت) ، ولعدمه فى سورة فصلت ، جاء (رجعت) فليتأمل »(٢٥) .

وهكذا تفعل الدنيا وزخرفها بضعاف النفوس ، فبدلا من أن يعترفوا بالنعمة وينسبوها لخالقها ، ويسخروها فى طاعته ، اذا هم

---

(٢٢) تفسير الفخر الرازى : ١٢٦/٢١ .
(٢٣) سورة مريم آية : ٧٧، ٧٨ .
(٢٤) سورة فصلت آية : ٥٠ .
(٢٥) تفسير الآلوسي : ٢٧٥/١٥ .

لها جاحدون ، وبربهم وبولى نعمتهم كافرون ، ولا حول ولا قــوة الا بالله العـلى العظيم •

ولكن ياترى بماذا رد الصاحب المسلم على صاحبه الكافر المغرور ؟ ،
ذاك ما تجيب عنه آيات المشهد الثـانى ، والذى سنتعـرض له بالبحث والتفصيل بعد المعنى العـام لآيات هـذا المشهد ، وبيان العبر من هـذه الآيات ان شـاء الله تعـالى •

المعــنى العـــام

تجىء هذه الآيات بعد الحديث عمن غرتهم الحياة الدنيا وأموالها ، وبهاؤها ، الى الحـد الذى جعلهم يطلبون الى رسول الله ﷺ أن يطـرد من مجلسـه أصحابه الفقـراء ، تكـبرا عليهم ، وتقـززا من النظـر اليهم ... ، آمـرة رسول الله ﷺ أن يذكـر قصـة رجلين أحدهما كان شبيها بهؤلاء الكفـرة الأغنياء ، والآخـر كان شبيها بأصحابه ﷺ المؤمنين الفقـراء ، حتى يكون هـذا المثـل عبرة وعظة لكل كافر ومؤمن فى كل عصـر من العصـور •

تذكـر الآيات أن الله تعـالى قد أنعم على انسـان من خلقـه بنعم لم يعطها غيره ، حيث جعل له بستانين عظيمين ، يضمان فاكهة العنب ، وسور له هـذين البستانين بأشجار النخيل حتى يجتمع له أحب أنـواع الفاكهة وأنفعها للناس ، ولكى تتم النعمـة جعـل الله له فى وسط هذين البستانين أنواعا عظيمة وكثيرة من الزروع ، حتى تكون الجنـة مثمرة من أعاليها ومن أسافلها ومن جميع جوانبها المحفوفة بالنخيل •

وضمانا لاستمرار ثمارهما ، وتسهيلا على صاحبهما أجـرى الله له نهـرا فى وسط هذين البستانين ، وجعل ماءه متدفقا بغـزارة •

ونتيجة لهـذا كله فان كل شجرة فى هاتين الجنتين قد أعطت عطاء

ما بعده عطاء ، وبارك الله فيهما ، حتى صارت الأشجار خارجة عما اعتاده النـاس ، ان الناس قد اعتادوا أن يكثر الثمـر فى عام ويقل فى آخـر ، بل اعتادوا أن بعض الأشجار ينقطع ثمـره بالكلية فى عام دون آخـر ، وهكذا ، أما هاتان الجنتان فقد خرجتا عن المـألوف ، بحيث لم ينقطع الثمـر فى عام أو يقـل عن العـام الذى قبله ، بل انه قد آتى الثمر كاملا ، مما جعل صاحبه مدهوشا مذهولا ٠

وبالاضافة الى كل ذلك أنعم الله عليه بأنواع أخرى من المـال من الذهب والفضة وغيرهما ، وكان هذا من الله ابتلاء له ، كما قال فى مقدمة هـذه السورة : (**إنا جعلنـا ما على الأرض زينـة لهـا لنبلوهم أيهم أحسـن عمـلا**) ، ولكن الرجل سقط فى الامتحان ، فبدلا من أن يقـابل هـذه النعم بشكر المنعم ، اذا به يجحده ، واذا به ينـكر قـدرته على البعث بعـد الموت ، فيدخـل صاحبه معـه فى حـوار ليذكـره بربه ، وبوجوب الايمان به ، وباليوم الآخـر ، ولكن الرجل يصر على كفره ، ويتكبر على صاحبه ، ويكاثره بالمـالو الولد ، ويقوله له أنا أكثر منـك مـالا وأعـز نفـرا ، واصطحبه معـه الى جنته فى زيارة ميدانيه حتى يريه أسباب عـزته وتكبره ، وبمجـرد أن دخل جنته نظـر اليها فى زهو وغـرور وكفـر قائلا ان الزوال يستحيل أن يمسها ، وان قانون الفنـاء لا يلحقها ، انها خالدة مخلدة ، انها باقية بقاء السموات والأرض ، لقد طاش من الرجـل عقـله ، وغاب عنه وعيه ، لمـا رأى من جمال جنته ، ولمـا شاهد من كثرة ثمـرها ووفـرة مياهها ، ووفـرة الأموال التى ينفق منهـا عليها ، وبلغ منـه الغـرور والكفر مبلغـا أنكر فيـه على صاحبه وجوب الايمان باليوم الآخـر ، فقال : (**وما أظن السـاعة قائمـة**) ، ثم استطـرد على سبيل الفـرض والتقدير ، ان كان هنـاك يا صاحبى بعث بعد المـوت كما تقول فان هنـاك من الخير والأمـوال والجنـات

ما ينتظرنى أضعاف أضعاف ما لى فى الدنيا ، لقد ظن الكافر أن هذه النعم التى يتقلب فيها انما أعطيت له لسواد عينيه ، ولأنه أهل لها ، ولأنه الجدير بها دون غيره ، يستحقها هو ولا يستحقها من عداه من خلق الله تعالى ، وعلى ذلك فان هذا الاستحقاق الذى صحبه فى الدنيا سيصحبه - ان كان هناك بعث - فى الآخرة ، وما يعلم هذا المغرور ، انه مستدرج ، وانه أمهل ولم يهمل ، لانه لم يخلق عبثا ، ولم يترك سدى « **افحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم إلينا لا ترجعون ، فتعالى الله الملك الحق** »(*) .

وهكذا تفعل النعم والاموال باصحاب القلوب الضعيفة ، والنفوس الخبيثة ، تسيء الى من أحسن اليها ، وتكذب من تولى رعايتها ، وتكفل برزقها ، وتدبير أمرها .

العبر المستفادة

من المشهد الأول

من الآية (٣٢) إلى الآية (٣٦)

تدعينا آيات هذا المشهد للوقوف أمام عدة أشياء ، نختار منها وبايجاز ما يأتى :

أولا : ان أعراض الدنيا من أموال وبنين ، وجاه وسلطان وغير ذلك ليست عيننا للتفاضل بين الناس ، كما ظن هذا الكافر ، وكما يظن كل جاهلى ، فما يعطى الله المال والبنين لأحد لأنه أفضل من غيره ، وما يعطى الله الحكم والسلطان لأحد ، لأنه المصطفى من خلقه ، والمجتبى من كونه ، ولكن يعطى المال والبنين لينظر ماذا يفعل الناس بهما ، ويعطى الحكم والسلطان ابتلاء واختبارا لأولى الأمر ،

(*) المؤمنون آية : ١١٥، ١١٦ .

أشرع الله يطبقون ، وبحكمه يعملون ، أم أنها فرصة العمر قد واتتهم ، لنهب أموال النـاس ومقـدرات الشعـوب ولاذلال الخلق واستعبادهم ؟ ولقد قررت سـورة الكهف هذه الحقيقة فى مطلعها حيث يقول الله تعالى : **(إنا جعلنـا ما على الأرض زينـة لهـا لنبـلوهم أيهم أحسن عمـلا)** ، وقال تعـالى : « **ثم جعلنـاكم خـلائف فى الأرض من بعـدهم لننظـر كيف تعمـلون** »(٢٦) .

وعلى ذلك فلا سبيل لجعـل هـذه الأعـراض ميزانا ، يزن بهـا الناس أقدارهم ، بحيث يكون الغنى أفضـل من الفقير ، وصاحب النفر والعشـيرة والأنصـار أفضل من غيره ، وأقرب الى الله منه ، قال تعالى : « **وما أمـوالكم ولا أولادكم بالتى تقـربكم عنـدنا زلفى** »(٢٧) .

ثانيـا : الحالة الوحيدة التى تكون فيها لأعراض الدنيا الزائلة قيمة هى تلك الحال التى تسخر فيها هـذه الأعراض لخدمة الاسلام ، وتحقيق الخير لمصـالح العباد والبـلاد ، ولذا يقول الرسول ﷺ : « نعم المـال الصالح للمـرء الصالح »(٢٨) ، ويقول أيضا : « لا حسد الا فى اثنتين ، رجـل آتاه الله مـالا فسلطـة على هلكته فى الحـق ، ورجـل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها »(٢٩) .

لأن صرف المـال فى هـذه الحال يكون عبادة من العبادات ، تقرب صاحبها من مولاه ، وتجعـله أهلا لمزيد عطاياه ، وهـذا ما كان يفعله السلف الصـالح ، حيث وجدنا أحـدهم يجهز جيشـا بأكمله ، ووجدنا آخـر يأتى بكل ماله ، ولا يترك لأولاده شيئا ، ويقول : تركت لهم الله

---

(٢٦) سـورة يونس آية : ١٤ .
(٢٧) سـورة سبـأ آية : ٣٧ .
(٢٨) أخرجه أحمد فى مسنده : ١٩٧/٤ .
(٢٩) أخرجه البخارى فى كتاب العلم ، باب الاغتباط فى العلم والحكمة

ورسوله ، وما فعـلوا ما فعلوا الا لتحققهم من وعد الله « **ما عندكم ينفـد وما عنـد الله باق** »(٣٠) ، وما تبرعـوا بما تبرعوا الا لعلمهم بأن ذلك هو سبيل الزيادة ، وطريق المغفـرة : « **إن تقرضوا الله قرضـا حسـنا يضـاعفه لـكم ويغفـر لكم** »(٣١) ، هـذه هى الحـالة الوحيدة التى ينظـر فيها الشرع الى أعراض الدنيـا نظـرة حسنة ، ويعتبرها ذات قيمة فى ميزان التفاضل بين الناس ، وما عدا ذلك ، فلاقيمة ولاوزن لها ٠

ثالثـا : ان الانســان اذا أخـذ أعـراض الدنيـا الزائلة مقياسـا للتفاضل فانه سيضل ويطغى ، ويعيث فى الأرض فسـادا ، لأن هـذه الأعراض ستصبح وسيلة فسـاد وافساد فى يده ، قال تعـالى : « **كلا إن الإنســان ليطغى ، أن رآه استغنى** »(٣٢) ، وبذلك تصبح هذه الأعراض عـدوا له ، تماما كما قال تعـالى : « **إن من أزواجكم وأولادكم عـدوا لكم فاحـذروهم** » ، وقال بعـدها : « **إنما أمـوالكم وأولادكم فتنـة** » (التغابن : ١٤، ١٥) ٠

ولذلك فقد وجدنا هـذا الرجل عندما اعتقد أن النفاضـل بين الناس انما يكون بهذه الأعراض الزائلة ، بغى وتكبر ، وعلى الخلق والخالق طغى وتجبـر ، فلم يكتف بتعـززه على صاحبه ، حينما قال له : (**أنا أكثـر منـك مـالا وأعـز نفـرا**) ، بل بلغ به طغيانه وتجاوزه للحد ، أن أنكر البعث بعد المـوت ، واعتبر هـذه الحيـاة لهوا وعبثا ، فيهـا يأكل الناس ويشربون وينامون ، وكما ينامون يموتون ، ولا شىء بعـد ذلك !!! ، غشاوة على قلبه ما بعدها غشاوة ، وعمى فى البصيرة والتفكير ما بعـده عمى ٠

---

(٣٠) سـورة النحل آية : ٩٦ ٠
(٣١) سـورة التغـابن آية : ١٧ ٠
(٣٢) سـورة العلق آية : ٦، ٧ ٠

والانسـان اذا ما وصـل الى هـذه المرحلة من التفكير والسلوك ، فلا ينتظـر الا التعاسـة المحققة ، والشقاوة المؤكدة ، قال رسول الله ﷺ « تعس عبد الدينـار وعبد الدرهم ، وعبد الخميصـة ، ان أعطى رضى ، وان لم يعط سخط ، تعس وانتكس ، واذا شيـك فلا انتقش »(٣٣) ، والمعنى : اذا أصابته الشـوكة فلا وجد من يخـرجها منه بالمنقاش .

ثالثـا : ان الانسـان لو لم يرتكب فى حيـاته ذنبا الا الكبر لكفـاه ذلك سببا للطـرد من رحمـة ربه ، وتعذيبه باشد أنواع العذاب ، لأنه حينئذ يكون قد تجـاوزه حده ، وحاول خلع صفة من صفات الألوهيـة على نفسـه ، قال تعـالى فى حديثه القدسى : « **الكبرياء ردائى والعظمة إزارى فمن نازعنى واحـدا منهما قذفته فى النـار** »(٣٤) ، وقال ﷺ : « لا يدخـل الجنـة من كان فى قلبـه مثقـال ذرة من كبر »(٣٥) .

وانما كان الكبر حجابا يمنـع صاحبه من دخول الجنة ، لأنه يحول بينـه وبين الأخلاق الحميدة المستوجبة لدخول الجنة ، ويجعل صاحبه متصفا بالصفات التى تستوجب الخيبة والخسران ، حيث لا ينقاد لنـور العـلم ، ولا ينتفع بهـدى الله .

قال تعـالى : « **وخـاب كل جبـار عنيـد ، منورائه جهنم ويسقى من مـاء صـديد** »(٣٦) ، وقال : « **ساصـرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغيـر الحـق** »(٣٧) .

---

(٣٣) أخرجه البخارى فى كتاب الجهاد ، باب الحراسة فى الغـزو فى سبيل الله .
(٣٤) أخرجه مسلم فى كتاب البر ، باب ١٤٧ ، وابن ماجه فى كتاب الزهد ، باب البراءة من الكبر ، وأبو داود واللفظ له فى كتاب اللباس ، باب ما جاء فى الكبر .
(٣٥) أخرجه مسلم فى كتاب الايمان ، باب تحريم الكبر .
(٣٦) سـورة ابراهيم آية : ١٥، ١٦ .
(٣٧) سـورة الأعـراف آية : ١٤٦ .

رابعـا : اذا رأى الناس عاصيا لله تعـالى ، ويزاد عليه من زينـة الحيـاة ما يزاد فعليهم أن لا يغتروا ، وعليهم أن يعلموا أن هـذا العاصى مستدرج من قبـل الله ، حتى اذا أخذه أخذه أخذ عـزيز مقتدر ، فالله ان أمهل فانه لا يهمل ، قال تعالى : « **سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ، وأمـلى لهم إن كيـدى متـين** »(٣٨) ، وقال : « **أيحسبون أنما نمـدهم به من مـال وبنين ، نسـارع لهم فى الخيرات ؟ بل لا يشعرون** »(٣٩) .

فهـذه الأعـراض الزائلة لا تعنى حب الله تعـالى لهذا العاصى ، قال ﷺ فيما يرويه الامام أحمد بسنده : « ان الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقـكم ، وأن الله يعطى الدنيـا من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطى الدين الا لمن أحب ، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه »(٤٠) .

* * *

---

(٣٨) سـورة القلم آية ٤٤، ٤٥ .
(٣٩) سـورة المؤمنـون آية : ٥٥، ٥٦ .
(٤٠) أخرجه أحمد فى مسنده : ١/ ٣٨٧ .

المشهـــد الثـــانى

ميـزان للتفاضـــل بين النـاس

ونصـح وتهديد لمن تفاضـل بالأعراض الزائلة

قال تعـالى : « قـال له صاحبه وهـو يحـاوره أكفـرت بالذى خلقـك من تـراب ثم من نطفـة ثم سـواك رجـلا (٣٧) لكنـا هو الله ربى ولا أشـرك بربى أحـدا (٣٨) ولـولا إذ دخلت جنتـك قلت ما شـاء الله لا قـوة إلا بالله ، إن ترن انا اقـل منـك مـالا وولـدا (٣٩) فعسى ربى ان يؤتـين خيـرا من جنتـك ، ويرسـل عليهـا حسبانا من السماء فتصـبح صعيـدا زلقـا (٤٠) او يصبـح مـاؤها غـورا فلن تستطيـع لـه طلبـا (٤١) » .

معـانى المفـردات واسـرار التراكيب

بعد ان قال الكافـر لصاحبه المؤمـن ما قال من افحش الفحش ، وافجـر الفجور ، ووضـع موازين باطلة للتفاضـل ، واغتر بجنتـه ، واعتقد لهـا الدوام ، وانكر البعث بعد الموت ، رد عليـه صاحبه يجادله بالتى هى أحســن ، ويقيم له الدليـل القـاطع على امكان البعث بعـد الموت ، وقـدرة الله تعـالى على ذلك ، ويبـين له بأى ميـزان يكـون التفاضـل ، وبم يكون الاعتزاز ، وينصحه بما يقـوله اذا دخـل جنتـه ، بدلا من مقـولة الغـرور والبطـر . ويهدده ـ ان استمـر على غـروره وكفـره ـ بزوال جنتـه .

قال صاحب الفتوحات الالهية : « حاصـل ما قاله الكافر من القول الشنيع ثلاث مقـالات .

الاولى : (أنا أكثـر منـك مـالا) ... الخ ، الثـانية : (ودخل جنتـه) ... الخ ، الثالثـة : (وما أظن السـاعة) ... الخ ، وقـد تعقبـه المؤمن فى الثلاثة على سبيل اللف والنشـر المشوش • فوبخه على الاخـير بقوله : (**أكفـرت بالذى خلقـك**) .. الخ ، ووعظه ونصحـه على الثـانية بقوله : (**ولـولا اذ دخلت جنتـك**) .. الخ ، وقرعه على الاولى بقوله : (**فعسى ربى**) .. الخ "(١) •

ويبدأ المؤمن بتوبيخ صاحبه على أعظم جـرم ارتكبه ، حيث أنكر عليه كفـره ، ووبخه على استبعاده البعث بعد الموت ، بقوله : (**أكفرت** بالذى خلقـك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجـلا) ؟

وأصـل الكفـر فى اللغـة : تغطية الشىء تغطية تستره ، فكل من ستر شيئا فقد كفـره ، ولهـذا يسمى الليـل المظلم كافـرا ، لانه يستر الاشياء بظلمته ، ويسمى البحـر كافرا ، لستره الأرض بمائه ، ويسمى الزراع ـ بفتح الزاى ـ كافرا ، لستره البذر بالتراب ، والكفار : الزراع ، قال تعالى : «**كمثل غيث أعجب الكفار** نباته»(٢) ، اى الزراع : والكافر: الذى لبس فوق درعه ثوبا ، سمى بذلك لأنه ستر بدنه بدرعـه ، ودرعـه بثوبه ، والمشـرك يسمى كافـرا لسـتره التوحيد بشـركه ، والمنـكر الجاحد يسمى كافرا لستره الحق بباطله ، وسميت الكفارة كفارة لتغطيتها ذنب صاحبها ، والقير بكسر القاف الذى تطلى به السفن يسمى كفـرا ، لسواده وتغطيته •

وقد جـاء الكفـر فى القـرآن على أربعـة أوجـه :

---

(١) الفتوحات الالهية : ٣/٣٥ •
(٢) سـورة الحديد آية : ٢٠ •

أحـدها : نقيض الايمان ، مثل : « **فمن شـاء فليؤمن ومن شـاء فليكفـر** »(٣) .

ثانيها : بمعنى الجحود ، مثـل : « **ومن كفـر فإن الله غـنى عن العـالمين** »(٤) ، اى جحد وجوب الحج .

ثالثهـا : نقيض الشكر ، مثل : « **واشكروا لى ولا تكفرون** »(٥) .

رابعهـا : بمعنى التبرؤ ، مثل : « **ثم يوم القيـامة يكفـر بعضكم ببعض** »(٦) ، اى يتبرأ بعضكم من بعض .

والاستفهام فى قول المؤمن (**اكفـرت بالذى خلقـك**) استفهـام انكارى توبيخى ، حيث ينكر عليه كفـره بخالقه ، وبقدرته تعـالى على البعث بعد المـوت .

والخلق فى لغـة العرب : ايجاد الشىء على مثال لم يسبق اليه ، ويستعمل على وجهين :

الاول : الايجاد الفعلى من العـدم ، على نحو غير مسبوق .

والثـانى : على تقدير الشىء قبل ايجاده . ، قال زهير :

ولانت تفـرى ما خلقت وبعـ ـض القـوم يخلق ثم لا يفرى

اى تنفذ ما قـدرته فى نفسـك وعزمت عليه .

ولفظ الخلق يستعمل مصدرا ، ويستعمل بمعنى المخلوق .

ثم بين له المؤمن اصـل خلقه ، عـله يتعظ ، فقال له : (**خلقـك من تراب ثم من نطفـة ثم سـواك رجـلا**) ، والتراب معروف ، وجمعه أتربة ، وتربان ، بكسر التـاء ، وسكون الراء .

---

(٣) سـورة الكهف آية : ٢٩ .
(٤) سورة آل عمران آية : ٩٧ .
(٥) سـورة البقـرة آية : ١٥٢ .
(٦) سورة العنكبوت آية : ٢٥ .

وقوله : (**خلقك من تراب**) اما أن يكون المراد خلق أصلك وهو آدم عليه السلام ، من تراب لأن خلق الأصل سبب فى خلق الفرع ، فكان خلقه خلقا له ، واما أن يكون المراد خلقك أنت من تراب ؛ على أساس أن منى أبيه ناتج من أغذية مصدرها التراب ، وعلى ذلك يكون المؤمن قد لفت نظر وفكر هذا الكافر أولا الى ما خلق منه منى أبيه وهو التراب ، ثم ثانيا الى النطفة التى هى من أبيه ، وهى مشتقة من النطف ، بفتح النون وسكون الطاء وهو السيلان ، وفى صفة المسيح عليه وعلى نبينا السلام : « **ينطف رأسه ماء** »(٧) أى يسيل .

ثم ذكر هالمؤمن بتمام خلقه ، حيث قال له : (**ثم سواك رجلا**) ، قال أبو الهيثم : « المستوى التام فى كلام العرب : الذى قد بلغ الغاية فى شبابه ، وتمام خلقه وعقله »(٨) .

فيكون معنى (سواك رجلا) صيرك رجلا بالغ الغاية فى قوة الأعضاء ، وذكاء العقل ، وحسن الهيئة .

وفى التعبير عن الله تعالى بالاسم الموصول فى قوله : (**بالذى خلقك**) اشعار بالسبب الذى من أجله انكر المؤمن كفر صاحبه ووبخه عليه ، واشارة الى دليل البعث بعد الموت .

فالمؤمن رد على منكر البعث بقياس اعادة الخلق على بدئه ، وهذا توجيه لهذا الاستدلال ، وهناك توجيه آخر وحاصله ان المؤمن أراد أن يقول لصاحبه المنكر ليوم الحساب : ان الله لما خلقك هكذا لم يخلقك

---

(٧) أخرجه البخارى فى صحيحه فى كتاب الأنبياء ، باب : (واذكر فى الكتاب مريم) ، ومسلم فى كتاب الايمان ، باب : ذكر المسيح ابن مريم عليه السلام .

(٨) لسان العرب : (سوا) .

عبثا دونما حكمة فى ذلك ، ولن يتركك سدى ، تاكل كما تاكل الأنعام ، وتموت كما يموت الحيوان ، ولا شىء بعد ذلك ، ولكنه لعبوديته خلقك ، وباوامـره ونواهيه كلفـك ، واذا كان الأمـر كذلك فلابد أن يكون فى الآخـرة دار ، فيها جنـة ونار ، للمطيع فى تلك الجنة ثواب ، وللعاصى فى هـذه النـار عقـاب .

ويقـوى هـذا التوجيه قـوله : (ثم سـواك رجـلا) أى أن الله تعـالى قد أنعم عليك بتمام الخلقـة ، وكمال الشباب ، ونضج العقـل وذكائه ، بحيث صرت أهـلا لأن تؤمـر ولأن تنهى ، افيليق فى عقـل عاقل أن يهمـل أمـرك ، وتترك هكذا سدى ، تفعل ما تفعـل وتتطاول على الله وخلقـه كما تحب ، وترتكب من الكفر وسائر المحرمات ما تشتهى وفى النهـاية موت لا بعث يعقبه ، ولا حسـاب يخلفه ؟ ان هـذا لشىء عجـاب !!!

وقوله : (رجـلا) منصوب على الحال ، وذهب بعضهم الى أنه مفعـول ثان لـ (سـوى) لتضمنه معنى الجعل .

وبعد أن انكر المؤمن على صاحبه الكافر كفـره ، واعتزازه باعراض الدنيـا الزائلة ، صرخ فى وجهه صرخة حق ، وبين له بم يوزن النـاس ، وبم يكون الاعتزاز ، فاوضح له أنه ان كان قد كفـر بالله ، وتعزز باعراض الدنيـا ، فانه يؤمن به ايمانا جازما ويعتز بالعبـودية له ، والذل له ، فالذل له غـاية العـزة ، والانتسـاب لعبوديته قمـة السعادة ، ومفتـاح العطاء الذى لم تره عين ، ولم تسمـع به اذن ، ولم يخطـر على قلب بشر ، استمع اليـه وهو يقول فى عـزة وسعادة : (لكنـا هـو الله ربى ، ولا أشـرك بـربى أحـدا) .

فقول المؤمن (لكن) استدراك لقوله (اكفـرت) ، فكانه قـال

أنت كافر بالذى خلقك لكنى مؤمن موحد به ، كما تقول محمد نائم لكن على مستقيظ .

وقوله : (لكنا) أصله لكن أنا ، فحذفت همزة (أنا) تخفيفا ، فادغمت نون لكن فى نون أنا ، وقرأ ابن عامر ويعقوب الحضرمى ونافع فى رواية فى الوصل بالألف ، والباقون بغير الف .

وقرأ ابن عامر باثبات الألف فى (لكنا) وصلا ووقفا ، أما غيره فانه لا يثبتها الا فى الوقف ، وروى عن أبى عمرو أن كان يقف بالهاء ، أى (لكنه) .

وعلى جميع القراءات ، فان (لكن) حرف استدراك ، لا عمل له ، و (أنا) مبتدأ أول ، و (هو) ضمير الشأن مبتدأ ثان ، و (الله) مبتدأ ثالث ، و (ربى) خبر المبتدأ الثالث ، والمبتدأ الثالث وخبره خبر المبتدأ الثانى ، والمبتدأ الثانى وخبره خبر المبتدأ الأول ، ومعنى الجملة : الشأن والأمر أن الله ربى .

وقوله : (ولا أشرك بربى أحدا) يفيد معنى جديدا زائدا عن معنى الجملة التى قبلها ، لأن الانسان قد يعترف بالربوبية لله ، لكنه يشرك معه غيره ، وعلى ذلك فالعطف هنا عطف تأسيس ، وقال بعضهم ان الجملتين بمعنى واحد ، فالعطف هنا للتأكيد ، والأول أرجح لما وجهناه به .

وفى أظهار المؤمن لفظ (ربى) بدلا من التعبير بالضمير ما يشير الى سبب توحيده لله تعالى ، حيث انه تفضل عليه بايجاده من العدم ، وتكفل برعايته جنينا فى بطن أمه ، ثم فى مهده وطفولته ، ثم فى شبابه الى أن يلقاه ، بافضل ما تكون الرعاية ، وباعظم ما يكون الاحسان ، فلذلك لا يليق به أن يشرك معه غيره فى الربوبية أوالالوهية ،

لا فى الذات ولا فى الصفات ، ولا فى الأفعـال ، بل الـلائق أن يعتـز الانسـان بعبوديته لله عز وجل ، وأن يرطب لسانه دائما بالانتساب اليه •

وتصريح المؤمن بنفى اشراكه بالله تعـريض باشـراك صاحبه ، الذى صرح به حينما قال : (**يا ليتنى لم اشـرك بربى احـدا**) ، وايذان بأن كفـر صاحبه كان بطـريق الاشراك •

وبعد أن أظهـر المؤمن لصاحبه عقيدته الاسـلامية ، واعتزازه بها ، شرع ينصحه كيف ينظـر الانسـان الى ما عنده من نعم وعطايا ، أينسبها الى جهده وفكـره ؟ أم ينسبها الى من عنده خـزائن كل شىء ، وبيده مقاليد الأمـور ، لأنه خالق القوى والقدر ، فيمنح ويمنـع ، كما تقضى حكمته ، وكما ترى مشيئته ، فقال له وهو يحـاوره : (**ولولا إذ دخلت جنتـك قلت ما شـاء الله لا قـوة إلا بالله**) •

والنصح هنا مقترن بتوبيخ ، لأن حـرف التحضيض اذا دخل على المـاضى كان للتوبيخ •

انه يحضـه على نسبة الخلق لخالقه ، فما خلق مخلوق الا بمشيئة خالقـه عـز وجل ، وما وجد شىء الا بقدرته تعـالى ، وما قدر انسـان ولا جان ولا ملك على فعـل شىء الا كان من الله العون ، ومنـه القوة ، بدءا أو ختـاما ، عمـلا أو كلاما •

وفى تقديم الظرف (إذ) على القول المحضض عليه اعلام بضرورة قـول هـذه العبـارة ، وقت دخول جنتـه فـورا ، من غير تأخيـر ، وليس لقصر هـذا القول على دخول جنته فقط •

و (ما) فى قوله (**ما شـاء الله**) موصولة ، فى محـل رفـع ، على أنهـا :

١ ـ مبتدأ ، وخبره محذوف ، والتقدير : الذي شـاءه الله كائن ؛

٢ ـ أو على أنها خبر ، لمبتدأ محذوف ، والتقدير : الأمـر ما شاء الله .

وقـوله : (**لا قـوة إلا بالله**) معنـاه : لا قـوة كائنة فى الوجـود لموجـود الا وهى من الله مستمدة ، ومنه تعـالى معطـاة .

وبعد أن نصحه المؤمن بما يقوله عند دخول جنتـه شرع فى الرد على غـروره وتكبره عليه بكثرة مـاله وقوة نفـره وأولاده ، فقـال له : (**إن ترن أنا أقـل منـك مـالا وولـدا ، فعسى ربى أن يؤتـين خـيرا من جنتـك ، ويرسـل عليها حسبانا من السماء**) ... الخ .

وقوله (إن) شرطية ، وفعـل الشرط (ترن) وجواب الشـرط جمـلة (فعسى ربى .. الخ) .

وحذفت ياء المتكلم من الفعـل (ترنى) بعد نون الوقاية للتخفيف، وهو كثير فى أسـلوب العـرب ، والرؤية هنا علمية ، فيحتاج فعلها الى مفعولين ، الأول هو ياء المتكلم المحذوفة ، والثـانى قوله (أقـل) ، وقوله (أنا) ضمير فصـل ، ويجوز أن يكون توكيدا للضمير المنصوب فى (ترنى) أى للمفعول الأول .

ويجـوز أن تكون الرؤية بصرية ، فيحتاج فعلها الى مفعول واحد ، وهو ياء المتكلم المحذوفة ، ويكون (أنا) حينئذ توكيدا لهذا المفعول ، و (أقـل) حـالا .

وعلى ذلك تكون جمـلة (**أنا أقـل منـك مـالا وولدا**) فى موضع المفعـول الثـانى لـ (ترنى) ان كانت الرؤية علميـة ، وفى موضـع الحال ان كانت الرؤية بصرية .

وقوله (مـالا) المـال فى الأصـل يطلق على ما يملك من الذهب والفضـة ، ثم أطلق على كل ما يقتنى ويملك من الأعيـان ، والقرينة هي التى تحدد المقصود من ذكـره في الكلام .

وقوله (وولدا) : الولد اسم يجمع الواحد والكثير ، والذكر والأنثى .

قال ابن السكيت : يقال فى الولد : الولد ، والولد بكسر الواو وضمها ، قال : ويكون الولد بالضم واحدا وجمعا ، وقد يكون الولد بالضم جمع ولد ، مثل أسد وأسد .

وفى قوله (وولدا) دليل لمن قال : ان المراد بقوله (وأعز نفرا) أى أولادا .

ثم أعلن المؤمن لصاحبه الكافر طمعه ورجاءه فى فضل الله وكرمه ، فقال له : (**فعسى ربى ان يؤتين خيرا من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء**) .

قال أبو حيان : « وهذا الترجى ان كان ذلك أن يؤتيه فى الدنيا فهى انكى للكافر وآلم ، اذ يرى حاله من الغنى قد انتقلت الى صاحبه ، وان كان ذلك أن يؤتيه فى الآخرة فهو أشرف »(٩) .

وقال الآلوسى : « وقيد بعضهم هذا الايتاء بقوله فى الآخرة ، وقال آخرون فى الدنيا أو فى الآخرة ، وظاهر ما ذكره انه فى الدنيا ، كالارسال »(*) فى قوله : (**ويرسل عليها حسبانا من السماء**)

وقوله : (**فعسى ربى ان يؤتين خيرا من جنتك ويرسل عليها حسبانا**) جواب الشرط فى قوله (ان ترنى) ، والمعنى : إن ترنى يا صاحبى انا اقل منك مالا وولدا ، فانا أتوقع من صنيع الله وسنته فى كونه ان يبدل حال كل منا ، فيعطينى لايمانى به واعتزازى بالعبودية له - جنة خيرا من جنتك التى تغتر وتعتز بها ، ويسلب منك - لكفرك وغرورك - نعمه عليك ، ويجعل جنتك خاوية على عروشها .

---

(٩) البحر المحيط : ١٢٩/٦ .
(*) تفسير الآلوسى : ١٥ .

وقوله : (ويرسل عليها حسبانا من السماء) ، الارسال هو الاطلاق ، قال تعـالى : « **الم تر انا أرسلنـا الشياطين على الكافرين** »(١٠) ، أى أطلقنـاها عليهم .

وقوله (حسبانا) : الحسبان فى اللغـة يستعمل فى عدة معان ، فيستعمل بمعنى العذاب والبـلاء ، ويطلق على الجـراد ، ويطلق على المرامى على أنه جمـع حسبانة ، والمـرامى مثل المسـال ، دقيقة ، فيها شىء من طول ، لا حـروف لها ، والحسبان أيضـا جمع حسبانة ، وهى الصـاعقة ، والحسبان أيضـا الحسـاب ، قال تعـالى : « **الشمس والقمر بحسـبان** »(١١) ، وبهذا المعنى فسر الزمخشرى هذه الآية التى معنا ، حيث قال : « والحسبان : مصدر كالغفران ، والبطلان ، بمعنى الحساب ، أى مقدارا قـدره الله وحسبه وهو الحكم بتخـريبها ، وقال الزجـاج : عذاب حسبان ، وذلك الحسبان حسـاب ما كسبت يداك »(١٢) .

وقد ذهب كل مفسر فى تفسـير هـذه الآية الى معنى محـدد من معـانى الحسبان فى اللغـة ، فمنهم من قال : ان المـراد العذاب ، ومنهم من قال النار ومنهم من قال البرد بفتح الراء ، ومنهم من قال السهام ، ومنهم من قال الصـواعق ، ومنهم من قال آفة مجتاحة الى غير ذلك ، وأرى أن الأرجح أن يفسر الحسبان بالمعنى الأول الذى ذكرته فى استعمالات هذا اللفظ بمعنى العذاب والبلاء ، حتى يكون محتملا لأن يشمل أكثر من نوع من أنواع عذاب الله ، ولذلك قال ابن منظور فى تفسير هذه الآية : « والمعنى - والله أعلم - أن الله يرسل على جنة الكافر مرامى من عذاب

---

(١٠) سـورة مـريم آية : ٨٣ .
(١١) سـورة الرحمن آية : ٥ .
(١٢) الكشـاف : ٢/٧٢٣ .

النار اما بردا ، واما حجارة ، أو غيرهما مما شاء ، فيهلكها ، ويبطل غلتهـا ، وأصلها »(١٣) .

وقوله : (فتصبح صعيدا زلقـا) : الصعيد : وجـه الأرض ، وقيل الأرض ، وقيـل الأرض الطيبة ، وقيـل ما لم يخالطه رمل ولا سبخة ، وقيـل هو كل تراب طيب ، وقال الشافعي : لا يقـع اسم صعيد الا على تراب ذى غبـار ، فاما البطحاء الغليظة والرقيقة ، والكثيب الغليظ ، فلا يقـع عليه اسم صعيد ، وقال أبو اسحاق : الصعيد وجـه الأرض ، وليس هو التراب ، انما هو وجه الأرض ، ترابا كان أو غيره ، لأنه نهاية ما يصعد اليـه من باطن الأرض ، وجمـع صعيد : صعـدان بضم الأول وسكون الثـانى ، وصعد ، بضمهما ، وجمع الجمع صعدات ، بضمهما أيضـا .

والزلق بفتح الاول والثانى : المكان المزلقـة بفتح الأول وسـكون الثـانى ، الذى لا يثبت عليـه قدم .

وعلى ذلك يكون معنى قوله (فتصبح صعيدا زلقـا) أن الصباح اذا أتى على جنتـك أتى عليها وهى أرض ملسـاء ، لا نبات فيهـا ، ولا شيء ، بحيث تبلغ شـدة ملاستها أن الأقدام لا تثبت على أرضها .

قال المـاوردى : « وهى اضر أرض ، بعد أن كانت جنـة أنفـع أرض »(١٤) .

فالمؤمن يتوقع لجنـة صاحبه الكافر سلب كل شيء منها ، وذهاب كل منفعـة فيها ، حتى منفعـة السـير فى أرض هـذه الجنة الواسعة قد حـرم منها صاحبها ، فلا حول ولا قـوة الا بالله العلى العظيم .

---

(١٣) لسان العرب : (حسب) .
(١٤) تفسير المـاوردى : ٤٨٢/٢ .

وبعد أن هدد المؤمن صاحبه الكافر بهلاك جنتــه ، بآفة سماوية ، هــدده مــرة أخــرى بهلاكها بآفة أرضية ، حيث قال له :

(**أو يصبــح مــاؤها غــورا فلن تستطيع له طلبــا**) .

والغــور : مصدر غار المــاء ، اذا ســاخ وبعد فى أعماق الأرض .

فمعنى (**يصبح مــاؤها غــورا**) : أى ماء غائرا ، فـ (**غــورا**) صفة لموصوف محذوف ، وجاءت الصفة بلفظ المصدر للمبالغة فى ذهاب هــذا المــاء الى أبعد مما يتصــوره هــذا الكافر فى أعماق الأرض ، كما يقال فــلان عدل ، وفــلان صدق ، وهكذا . ويستوى فى ذلك الواحــد والجمــع ، والمذكــر والمؤنث .

وقيــل : أو يصبح ماؤها ذا غــور ، على حذف مضــاف ، كقــوله تعــالى « **واســأل القــرية** »(١٥) أى أهلها .

قال أبو حيان : « وقوله (أو يصبح) معطوف علىقوله (ويرسل) ، لأن غــؤور المــاء لا يتسبب على الآفة السماوية الا أن عنى بالحسبان : القضــاء الالهى ، فحينئذ يتسبب عنه اصباح الجنــة صعيدا زلقــا ، أو اصباح ماءها غــورا »(١٦) .

والضمير فى (له) من قوله (**فلن تستطيع له طلبــا**) يعود على ماء هــذه الجنة . والذى يسـير فى هــذا المنهر الذى فجره الله خلالها .

وقال الماوردى : يجــوز أن يكون المعنى « فلن تستطيع طلب غيره بدلا منــه »(١٧) ، فيكون الضمير فى (له) يعود على جنس المــاء ، أى ماء بدلا من هــذا الغــائر .

---

(١٥) ســورة يوسف آية : ٨٢ .
(١٦) البحر المحيط : ١٢٩/٦ .
(١٧) تفسير المــاوردى : ٤٨٢/٢ .

وعلى أى حال فان المراد أن هذه الجنة ستكون أعدم أرض للماء ، بعد أن كانت أوجد أرض له .

والاستطاعة : الاطاقة والقدرة على الشئ ، والتعبير بها يكون فى جانب الانسان فقط ، أما الاطاقة فهى عامة للانسان وغيره ، تقول الجمل مطيق لحمله ، ولا تقل مستطيع .

وفى نفى استطاعة الكافر طلب هذا الماء من المبالغة فى فقده وانعدامه ما فيه ، حيث لم ينف عنه صاحبه فقده للماء فقط ، بل نفى عنه مجرد استطاعته للحصول عليه .

وانما نفى عنه هذه الاستطاعة لانه ليس فى مقدور مخلوق رد ما غوره الله تعالى ، قال سبحانه : « **قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين** »(١٨) .

ونفى هذه الاستطاعة بحرف (لن) الذى يفيد النفى المؤبد ، زيادة فى تهديد صاحبه الكافر ، لعله يتذكر أو يخشى .

وفى التعبير بحدوث الآفة السماوية أو الأرضية ليلا بحيث يصبح الصباح على هذه الجنة ، وهى أرض ملساء زلقة لا نبات فيها ، ولا يثبت عليها قدم ، أو قد غار ماؤها فى أعماق الأرض اشارة الى أن هذا العذاب عذاب بغتة ، وعذاب البغتة هذا نفسه عذابان ، فالآفة التي ستحدث لجنته عذاب ، وكون هذه الآفة تحدث ليلا بحيث لا يشعر بها الا وهو ذاهب الى جنته يتمطى ، ويزهو فى غرور ، عذاب آخر !!

ويلاحظ هنا أن المؤمن ترجى لصاحبه الكافر هلاك جنته التى فاخره بها ، ولم يترج هلاك ولده الذين تعزز بهم عليه وكاثره ، ولعل

---

(١٨) سورة الملك آية : ٣٠ .

السر فى ذلك أنه لم يتعـرض لهلاك ولده إشـارة الى أن حبـه للمـال قد استولى على قلبه ، مما جعله عبدا له ، فلا يتحـرك ولا يسكن الا فى دائرة عبـوديته له ، وحيث كان الأمـر كذلك ، فـانه يكفى فى كيـده واغاظته أن تهلك جنته التى بها كابر وكاثر ، وأن يعطى المؤمن خيرا منهـــا ...

وبذلك يكون المؤمن قد أظهر لصاحبه الكافر اعتزازه بربه ، وطمعه فى كـرمه واحسـانه ، وهدده باهلاك جنته ، وغـور مائها .

فياترى ماذا حدث بعد هـذا التهديد ، أقبـل النصح ، ودخل فى حظيرة الايمـان ، وبقيت له جنته ؟ أم عاند وكابر ، ولم يخضع لمولاه ؟ واذا كان كذلك فهل حدث ما توقعـه المؤمن ، صاحب البصـيرة النافذة ، والرأى الملهم من اهـلاك جنـة صاحبه الكافر ؟ ذاك ما سوف نعـرفه ان شـاء الله بعد بيـان المعنى العـام لآيات هـذه المجموعة ، وتوضيح بعض ما يستفـاد منهـا من عبر ، فى تدبرها والعمـل بهـا سعادة فى الدنيـا ، ونجـاة فى الآخـرة .

المعـــنى العـــــام
لآيات المشهـــد الثـــانى
من الآية (٣٧) الى الآية (٤١)

بعد ان قابل الكافر نعم ربه بالجحـود والطغيان ، وتعـزز على صاحبه وتكبر ، وذهب الى جنتـه يتمطى ، وقد وضـع ميزانا للتفاضل بين النـاس ، جعـل قوامه كثرة المـال والبنين والانصـار ، تأتى آيات هـذا المشهد لتبين لنـا كيف رد عليـه صاحبه المسلم ، وناقشـه فيما صدر منـه من أقوال ، حيث بدأ بالرد على أعظم مقولة قالها ، وعلى أفحش فحش ارتكبـه ، الا وهو الكفر بالبعث ، انه كفـر بالبعث لأنه استبعده على قـدرة الله تعـالى ، ولذلك ذكـره بأصـل نشـأته ، وبالمراحل التى

مر بها جنينا فى بطن أمه ، الى أن ولدته ، الى أن صار رجلا سوى الخلقة ، كامل العقل موفور الصحة والعافية ، ويقول له أفمن قدر على كل ذلك أتعجزه الاعادة بعد الموت ، أو من فعل ذلك كله أيكون قد فعله عبثا ولهوا ، دونما أن يجعل له هدفا واضحا ، وغاية مرجوة ، وانما شأنه شأن الحيوانات ، أكل وشرب ، ونوم ، ثم موت ولا شىء بعد ذلك ؟ أن الحياة بهذه الصورة لا تستحق شيئا من التقدير ، بل ان الموت والانتحار لهو أفضل منها بكثير وكثير .

ثم وضع المؤمن لصاحبه الكافر ميزان الاعتزاز والتفاضل ، فقال له ان كان ميزانك هو التكاثر بالمال والنفر ، فان الميزان الحقيقى هو بالانتساب الى حظيرة الايمان بالله واليوم الآخر ، ففيها العزة وفيها يكون الانسان انسانا ، أما خارجها فان الذل يكون ألوانا ، ويصير الانسان حيوانا ، ولذلك فانى يا صاحبى أعتز بعبوديتى لله ، وربوبيته لى ، ولا أجعل لغيره شريكا فى ذاته وصفاته وأفعاله .

ثم رد على تعززه بجنته واغتراره بها ، واعتقاده بخلودها ودوامها قائلا له : (**ولولا اذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة الا بالله**) ، انك يجب أن تعلم أن هذه الجنة ما وجدت الا بمشيئة الله تعالى وبارادته وقدرته ، فلا تغتر بمالك أو بقوتك ، فما وجد شىء بمحض مشيئة الانسان وبخالص قوته وقدرته ، كلا ، كلا ، فما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم .

ثم رد المسلم على الكافر وتعززه بماله وولده قائلا له : ان كنت ترانى أقل منك مالا وولدا فان رجائى فى الله كبير ، وطمعه فى رحمته عظيم ، وانا عبده ، وهو يتولى الصالحين ، وأنت عدو له وظالم مبين ، ولا عدوان الا على الظالمين ، ولذلك فانى أتوقع أن يتغير حال كل منا ، فدوام الحال من المحال ، أتوقع لى أن يعطينى الله تعالى أفضل

مما أعطاك ، وأتوقع لك - لظلمك وكفرك - هلاك جنتك بآفة سماوية تبيدها عن آخرها ، وتقتلع أصولها وتمحو ثمارها ، فتصبح كأن لم تغن بالأمس ، بل تصبح أرضها ضارة مهجورة ، بعد أن كانت نافعة معمورة ، وان لم تأتها آفة سماوية فاتوقع لها آفة أرضية ، وذلك بأن ينضب هذا النهر الذى منه تشرب ، ويغور ماؤه فى أعمق الأعماق ، ومهما حاولت طلبه فانك تحاول المستحيل ، لأن الذى غوره هو الله المنتقم الجبار .

العبر المستفادة
من المشهد الثانى
من الآية (٣٧) الى الآية (٤١)

تستدعينا آيات هذا المشهد للوقوف أمام عدة أمور نقتصر منها على ما يأتى :

أولا : مجادلة الخصم بالتى هى أحسن .. وذلك واضح تمام الوضوح فى رد الصاحب المؤمن على صاحبه الكافر ، الذى كاثره بماله وتعزز عليه بنفره ، فما زاده ذلك الا حلما ، واخلاصا فى النصح لصاحبه ، عله يرجع عن كبره ، ويثوب الى رشده ، والآيات فى ذلك كثيرة وكثيرة ، ويكفينا منها قوله تعالى لرسوله ﷺ ، أول المسلمين ، وسيد الأولين والآخرين على الاطلاق وهو يعلمه كيف تكون المجادلة وكيف يفتح قلب خصمه ، ان كان له قلب « **قل من يرزقكم من السموات والأرض قل الله ، وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلا مبين** »(١٩) ولقد كان لرسول الله ﷺ ولصحابته الكرام وخاصة مصعب بن عمير أول سفير للاسلام من هذه المواقف ما يعتبر المثل الأعلى فى محاجة الخصم .

---

(١٩) سورة سبأ آية : ٢٤ .

ثانيـا : على الدعاة الى الله أن يركـزوا أولا على أصـول الدين ، قبل أن يتحدثوا فى غيرها ، وانظـر فى هـذه المحاورة ، لقد صدرت من الكافر أقوال متعددة ، كان آخـرها انكاره للبعث ، فلما رد عليـه صاحبـه المؤمن ، لم يناقشـه فى قضـاياه التى أثارها على الترتيب ، وانما بدأها بأهم قضية ، الا وهى قضية العقيدة ، حيث قال له : **(أكفرت بالذى خلقـك ... الخ) .**

والانسان يعجب أشد العجب حينما يرى شبابا يتنازعون فيما بينهم على أمـور ليست من أصول الدين ، بل ربما لا تصـل الى حد الواجب من الفـروع ، وأقصى ما تصـل اليـه كونها سنة يثـاب على فعلهـا ، ولا يعاقب على تركها ، ويصـل الأمـر الى التشاجر ، وربما يصـل الى حد التكفير !!!

ولأعـداء الله تعـالى فى ذلك من الأساليب المـاكرة ، والوسـائل الخبيثة فى توسيع دائرة الخـلاف بين المسلمين ما لا يخطـر على بال أحـد ، بل ربما استغـلوا حب الشباب للدين فى ضرب الدين نفسـه ، الا فليحذر الشباب من ذلك ، وعليهم بالجماعة والاتحـاد ، وليتعاونوا فيما اتفقـوا عليه ، وليعـذر بعضهم بعضـا فيما اختلفوا فيـه ، حتى لا يفشلوا وتذهب ريحهم وقوتهم .

ثالثـا : فى مناقشـة المسلم لصاحبه الكافر استدلال بقضية الخلـق ابتداء من العدم على امكان البعث بعـد الموت ، وبيـان أن الانسـان ما وجد فى الدنيـا عبثا دون أن يكون له هد ف، وانما وجد بحـكمة ، ولطـريقه نهاية وغاية ، وليس كما يدعى أهـل الكفـر والالحـاد ، ولقد ناقشنا قضية البعث هـذه ، فى قصة أهل الكهف بما قد يكتفى به ههنا .

رابعـا : تجىء آيات هذا المشهد لتبين للناس ميزان التفاضل بينهم ، انه ليس بالمـال ولا بالبنين ، ولا بالجـاه والسلطان ولكن بالانتساب الى

خالق القوى والقدر ، بالانتساب الى صاحب العزة ، يبينها لنا المؤمن فى قوله : (**لكنا هو الله ربى ولا أشرك بربى أحدا**) ، أى اذا كنت تعتز بمالك ونفرك فان هذا اعتزاز بما هو حقير وزائل ، أما أنا فاعتز بمصدر كل نعمة ، ومنبع كل قوة ، الا وهو الله ، فمن احتمى فى حماه حماه ، ومن اعتز بعزته أعزه وهداه ، ومن خزائن رحمته وعطاياه أعطاه ، ومن خزى الدنيا ومن سوء المنقلب فى الآخرة أنجاه .

ان الميزان الذى يوزن به الناس هو : « **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** »(٢٠) ، ان القيم قيم السماء وان الميزان ميزان السماء ، فعلى الناس أن يدعوا ما تعارفوا عليه من قيم الأرض والطين ، قيم النسب والقوة ، والمال والسلطان ، وغير ذلك وأن يلجأوا الى قيم وميزان الدين ، اذا لحققوا لأنفسهم العزة ، ولمجتمعاتهم الرفعة والاستقرار .

خامسا : فى اعتزاز الرجل المؤمن بربه ما يجعل مسلمى هذا العصر يخجلون من أنفسهم ، فرغم أنهم يعيشون فى عالم يعتز فيه كل انسان بدينه ولغته ، الا أنهم لا يفعلون ذلك ، ولا يستشعرونه .

اننا نرى اليهودى والنصرانى والبوذى وعابد البقر ، وعابد الصنم وغيرهم ، نرى كلا منهم يعتز بما يدين به وبلغته ، الا المسلمين ، لأنهم لا يعرفون هويتهم ، ولا يدرون من هم ، ولا يتكلمون بلغة قرآنهم ، بل بلغة غيرهم يتحدثون ، وبها يتباهون ، وبمبادىء غيرهم يعملون ، وعن كتاب ربهم يعرضون ، ومن هدى نبيهم يمرقون ، رغم اعترافهم فيما بينهم أن لا دين أفضل من دينهم ، ولا كتاب أصح من كتابهم ، ولا هدى أفضل من هدى نبيهم ، ولكن ما الذى يجعلهم لا يعتزون بذلك؟ انه الانفصام فى الشخصية ، وعدم احترامهم لأنفسهم ، وعقولهم قبل كل شىء ، الأمر الذى جعلهم يعيشون الذل ألوانا ، ويركعون ويسجدون

---

(٢٠) سورة الحجرات آية : ١٣ .

لأذل الأمم ، ويعتمدون عليهم في الأكل والشرب والكساء والدواء والسلاح ، ولا يجدون أدنى تحرج وهم يعلنون ان قضية المسلمين أوراقها بيد أمريكا مائة فى المائة ، ونسال أين ارادة المسلمين وكرامتهم ؟ وأين حريتهم وعزتهم ؟ كل ذلك مفقود ضائع ، وسليب غائب ، ولا أمل فى استرجاع الارادة والكرامة والحرية والعزة الا بالاعتزاز بدين العزيز الحميد ، الغالب الذى لا يغلب ، والقاهر الذى لا يقهر .

سادسا : حينما نقول بضرورة الاعتزاز بالدين ، فان هذا لا يعنى عدم الأخذ بالأسباب المادية ، وعدم العمل لامتلاك أقوى قوة بشرية ، كلا .. كلا .. ان هذا فهم خاطىء ، لا يذهب اليه الا من جهل دينه ، ولم يقرأ كتاب ربه ، ان اول آية نزلت كما نعلم هى « **إقر اباسم ربك** »(٢١) ، ومما نزل ايضا : « **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة** »(٢٢) ، وهذا يعنى أنه لابد للمسلمين من امتلاك أقوى قود فى الوجود ، وهذا لا يتأتى الا بالتفوق فى كل مجالات العلوم الدنيوية ، من هندسة ، وكيمياء ، وذرة ، وفضاء ، وطب ، وغير ذلك ، حتى لا يكون الحق أعزل من كل قوة ، بل لابد من توافر أقوى قوة له ليدافع بها عن نفسه ، وليزيل العوائق التى تحول بينه وبين سماع الناس لصوته بالصورة الصحيحة ، وبعد ذلك من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر .

سابعا : فى نصح الرجل المسلم لصاحبه الكافر بقوله (ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله ولا قوة إلا بالله) ، دليل على أن الصاحب المخلص ، والصديق الوفى هوالذى يأخذ بيد صاحبه الى النجاة ، وهو الذى يصدقه فى معاملته ، ويحب له الخير ، ودوامه ، ولا يحقد

---

(٢١) سورة العلق آية : ١ .
(٢٢) سورة الأنفال آية : ٦٠ .

عليــه ، ولا يغــار منــه ، وينصحه ان رأى عنده خيرا بأفضــل الطــرق للحفاظ على هــذا الخير ودوامه .

ثامنــا : وفى هــذه النصيحة بالذات ارشــاد للانســان الى معرفته بقدر نفســه وبقدر ربه ، حتى لا يغتر اذا رأى نعمــة لديه ، فينسبهــا الى ذكائه وعقــله ، والى كده وسعيه ، فاذا علم أن كل نعمــة فى الوجود انما هى بتقدير الله وقدرته ، وبعلمــه وارادته ، تواضع لله ولخلقــه ، وأدى شكر النعمــة كما ينبغى ، وهكذا كانت سنة الحبيب ﷺ اذا فتح الله عليــه بلدا من البلدان ، لم يدخلهــا الا وهو ساجد على دابته ، حتى يعــلم الأمــة كيف تتعــامل مع نعم الله ، فلا تغتر ، ولا تتكبر ، وبالتالى ينزل الله عليها من رحماته وبركاته ما بها يسعدون ويهنأون .

تاسعــا : وردت أحاديث كثيرة فى فضــل هــذه النصيحة ، نكتفى منها بما ورد فى صحيحى البخارى ومسلم عن أبى موسى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له : « ألا أدلك على كنز من كنوز الجنــة ؟ لا حــول ولا قــوة الا بالله »(٢٣) .

وعلى هــذا : فيستحب للمســلم أن يقولها فى كل أوقاته ، خاصــة اذا رأى عنده نعمــة من النعم ، قال ابن كثير : « قال بعض السلف : من أعجبــه شىء من حــاله أو ولده ، أو مــاله ، فليقل (ما شــاء الله لا قوة الا بالله) وهــذا مأخوذ من الآية الكريمة »(٢٤) .

* * *

---

(٢٣) أخرجه البخارى فى كتاب الدعوات : باب قول لا حول ولا قــوة الا بالله ، ومسلم فى كتاب الذكر ، باب : استحباب خفض الصوت بالذكــر .

(٢٤) تفسير ابن كثير : ١٥٤/٥ .

المشهد الثالث

عاقبة الغرور والجحود

قال تعالى : « **واحيط بثمره فاصبح يقلب كفيه على ما انفق فيها ، وهى خاوية على عروشها ، ويقول يا ليتنى لم اشرك بربى احدا(٤٢) ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا(٤٣)هنالك الولاية لله الحق هو خير ثوابا وخير عقبا(٤٤)** •

معانى المفردات وأسرار التراكيب

بعد أن هدد الرجل الصالح صاحبه الكافر بهلاك جنته ، وتوقع من الله ارسال آفة سماوية من عنده تدمرها تدميرا ، أو أن يجعل ماء نهرها غائرا فى أعماق الأرض فلن يستطيع له طلبا ، تجىء هذه الآيات لتخبرنا أن ما توقعه الرجل المؤمن لجنة صاحبه الكافر قد وقع ، وصارت الجنة التى قال عنها (**ما أظن أن تبيد هذه أبدا**) فى خبر كان ، حيث نزل عليها العذاب من جميع جوانبها فلم يدع فيها صغيرا ولا كبيرا ، ولا شجرا ولا ثمرا ، ولا اى شىء مما حوته الا دمره تدميرا ، قال تعالى : (**واحيط بثمره**) أى أحاط العذاب بجنته من جميع جهاتها ، وأهلكها عن بكرة أبيها ، فهذه الجملة كناية عن هلاكها التام وتدميرها الشامل •

واصل الفعل (أحاط) ماخوذ من قولهم أحاط به العدو ، أى التف به من جميع الجهات ، ومتى فعل العدو بعدوه ذلك ، فقد ملك عليه أمره ، واستولى عليه استيلاء تاما ، ثم استعمل هذا الفعل فى اهلاك كل شىء ، ومنه قوله تعالى « **إلا أن يحاط بكم** »(١) اى الا أن تؤخذوا من جيمع جوانبكم •

---

(١) **يوسف** : ٦٦ •

والفعل (أحيـط) معطوف على محذوف ، والتقدير : فحـدث ما توقعـه الرجل الصالح ، وأنزل الله عذابا من السماء على جنـة الكافر ، وأحيط بثمـره ، وانما حذف هـذا المقـدر لدلالة سباق الآيات وسياقها عليـه ٠

قال صـاحب التحرير والتنوير : « وانما لم تعطف جملة (وأحيط) بفـاء التفريع على رجـاء صاحبه المؤمن اذ لم يتعلق الغرض فى هـذا المقام بالإشارة الى الرجل المؤمن ،وانما المهم التنبيه على أن ذلك حادث، حل بالكافر ، عقابا له على كفره ، ليعلم السامعون أن ذلك جزاء أمثاله وأن ليس بخصوصية لدعوة الرجل المؤمن »(٢) ٠

والذى يغلب على الظن أن هذا الاهلاك كان ليلا ، لقوله (فأصبح) ومع أن بعض المفسرين كالامـام أبى حيـان والآلوسى وغيرهمـا قالوا ان هـذا الفعل والفعلين السابقين (تصبح) و (يصبح) يحتمل أن يكون كل منها بمعنى صـار الا أنى أقول : مع صـحة هذا الاحتمال فانى أرجح أن الاهلاك كان ليـلا ، حتى يكون من قبيـل عذاب البغتـة ، وهو ـ كما قدمنا سابقا ـ فى نفسـه عذابان ، عذاب الاهلاك ، وعذاب المفاجأة التى تأتى بدون مقدمات أو تمهيدات ٠

ويدل لصحة ما رجحتـه قوله تعالى عن أصحاب الجنـة البخلاء « فأصبحت كالصريم فتنادوا مصـبحين ، ان اغـدوا على حرثكم إن كنتم صـارمين »(٣) ٠

كما يدل على صـحة ذلك أيضا التعبير بالفـاء التعقيبية فى قـوله

---

(٢) التحرير والتنوير : ١٥/٣٢٦ ٠
(٣) القـلم : ٢٠ ـ ٢٢ ٠

(فاصبح يقلب) ، بل ان الالوسى استشعر ذلك حيث قال : « والتحسر انما يكون لما وقع بغتة »(٤) ٠

وبعد أن أخبرنا الله تعالى بهلاك جنة الكافر صور لنا حالته التى أصابته والذهول الذى غشيه تصويرا دقيقا ، وكأنه كما يقولون بالصورة والصوت ، بالصورة وهو (يقلب كفيه على ما أنفق فيها) وبالصوت وهو يقول (ياليتنى لم أشرك بربى أحدا) وقلب الشىء جعل أعلاه أسفله ، والكف : كف اليد ، وهى أنثى ، فالعرب تقول : هذه كف واحدة ، وسميت كفا لأن الانسان يكف بهما ، أى يجمع بهما ما يريد ، من قولهم كف الشىء كفا أى جمعه جمعا ٠

وقول (أنفق فيها) أى صرفه فى عمارتها ، ومادة الانفاق ترجع الى النقص ، والفناء ، يقولون نفق ماله اذا نقص ، أو اذا فنى ، ويقولون : نفقت البهائم : اذا ماتت ٠

فهذا الكافر حينما ذهب الى جنته التى قال عنها (ما أظن أن تبيد هذه أبدا) ورآها صعيدا زلقا أصيب بالذهول ولم يستطع - فى أول الأمر - أن يتفوه بكلمة واحدة ، وما استطاع الا أن يقلب كفيه حسرة وندما على ما صرف من أموال طائلة فى عمارة جنته ٠ومعنى (يقلب كفيه) أى جعل يضرب باحداهما على الأخرى ، أو جعل يقلبهما ظهرا لبطن تارة ، وبطنا لظهر تارة أخرى ٠

وأيا ما كان : فالجملة كناية بليغة عن شدة ندمه الذى لا يوصف ، وحسرته التى لا تتخيل ، عقيب فناء جنته التى ظن لها الخلود الأبدى ٠

---

(٤) تفسير الالوسي : ١٥/٢٨٣ ٠

وعـدى الفعل (يقلب) بحرف الجـر (على) فى قوله (على مـا أنفق فيها) : لأنه كما قلنا كناية عن الندم ، فعـدى بعلى كما يتعدى الفعـل ينـدم بعـلى .

وانمـا ندم الرجل على مـا أنفق فى عمارة جنتـه من أموال ، دون أن ينـدم على جنته التى أبيدت : لأن الندم « انمـا يكون على الأفعال الاختيارية ، لأن ما أنفق فى عمارتها كان مما يمكن صيانته عن طوارق الحدثان ، وقد صرفه الى مصالحها رجـاء أن يتمتع بها أكثر مما يتمتع به ، وكان يرى أنه لا تنالها أيدى الردى ، ولذلك قال (مـا أظن أن تبيد هـذه أبدا) فلما ظهر له أنهـا مما يعتريه الهلاك ندم على مـا صـنع ، بنـاء على الزعم الفاسد ، من انفاق ما يمكن ادخاره ، فى مثـل هـذا الشىء السريع الزوال »(٥) .

ثم صـور القرآن منظر هـذه الجنة بعد اهلاكها بقوله تعالى (**وهى خاوية على عروشـها**) والخـواء : بفتح الخـاء السقوط ، يقال خوت الدار اذا تهدمت وسقطت ، ويطلق أيضـا على الخلو ، ومنـه قوله تعالى « **فتلك بيـوتهم خـاوية** »(٦) أى خالية ، وقيل ساقطة على عروشها ، ويقـال خوى بطنـه من الطعام : اذا كان خاليا منـه .

والعروش جمع عرش ، وعرش البيت سـقفه ، والجمع أعراش ، وعروش ، وعرشـة ، بكسر العين ، وفتح الراء والشين ، وهى هنا مـا صـنع من أعمـدة ليوضع عليها الكروم .

فالله تعـالى جمع عليه بين هـلاك الأصل ، وهلاك الثمر ، جـزاء ما اعتقـد قلبه من كفر ، ومـا نطق لسانه من شرك ، وما عملت جوارحه من غرور وعصيان .

---

(٥) تفسير أبى السعود : ٢٥٢/٣ .
(٦) النمـل : ٥٢ .

فالذى حدث لهذه الجنة أن الأعمدة سقطت أولا ثم سقطت فوقها الكروم ، فسقوط الجنة على العروش انما كان لأن العروش انما سقطت قبلها .

وهذه الجملة حالية تبين لنا أن الكافر ظل يقلب كفيه حينما رأى حال جنته هكذا .

وهذا الوصف فى خراب المنازل وغيرها من أبلغ ما يكون ، ولذا تكرر ذكره فى القرآن فى مواضع عدة ، وهو وان وضع فى الأصل لسقوط سقف البناء وجدرانه الا انه أصبح مثلا يطلق على كل هالك ، لم تبق منه بقية .

وانما خصص حال الجنة المزروعة بالأعناب بالذكر دون تعرض لحال النخيل والزرع :

١ ـ لأنها ـ كمايقول أبو السعود ـ العمدة ، وهما من متمماتها .

٢ ـ أو لأن ذكر هلاكها مغن عن ذكر هلاك الباقى ، لأنها حيث هلكت وهى مشيدة بعروشها ، فهلاك ما عداها بالطريق الأولى .

٣ ـ أو لأن الانفاق فى عمارتها أكثر (٧) .

وبعد أن صور لنا القرآن حال هذا الكافر بالصورة التى كأنها مجسدة ، وهو يقلب كفيه ، صور لنا حاله وهو يتلفظ بألفاظ الندامة والحسرة على شركه الذى جلب عليه هذا الخراب ، حيث قال : (ياليتنى لم أشرك بربى أحدا) .

---

(٧) تفسير أبى السعود : ٣/٢٥٢ .

لقد فطن الكافر الى الجهة التى أتى منها ، وهى الجهة التى حذره صاحبه المؤمن منها ، انه الآن تذكر تلك الموعظة ، فتمنى أن لو سمع كلامه ، ووحد الهه ، حتى لا يهلك بستانه ، ولكن هذا التمنى جاء بعد أن فنيت جنته التى قال عنها (ما أظن أن تبيد هذه أبدا) ، انه لا يعيدها اليه مرة أخرى .

وقال بعضهم انه يجوز أن يكون هذا القول منه توبة من شركه ، وندما على ما كان منه ودخولا فى الايمان ، ورد آخرون على هذا بأن توبته حينئذ غير مقبولة ، لأنها كانت عند مشاهدة اليأس ، والايمان ساعتئذ غير مقبول .

ولا يخفى ضعف هذا الرد ، لأن الرجل كان مازال حيا ، لم يغرغر بعد ، ولم تطلع الشمس من مغربها حتى نقول ذلك ، فهو وقتئذ مازال مكلفا ، لم يسلب منه الاختيار .

ومع ذلك فانى أرى ان الرجل بهذا القول لا يعد فى زمرة المؤمنين، لان مجرد الندم على الشرك لا يعد ايمانا ، ولأن ندمه هذا كان بسبب هلاك جنته ، وليس لحبه للايمان بالله ، وايثاره الآخرة على الدنيا ، وليس لكرهه الكفر من حيث هو كفر ، ثم انه ليس فى الآية ما يشعر بانه آمن بالبعث الذى أنكره فى محاورته مع صاحبه المؤمن . أفبعد هذا نقول ان الرجل أصبح بالله مؤمنا موحدا ، وباليوم الآخر جازما موقنا ؟ هذا مما لا تطمئن اليه قلوبنا ، ولا تميل اليه عقولنا .

وفى تمنى الكافر عدم اشراكه بعد فناء جنته زجر لكل كافر ، وعاص يتقلب فى نعم خالقه ، حتى لا تحل عليه النقم ، وتسلب منه هذه النعم .

وفيه ايحاء بأن الكافر كان يكرر تقليب كفيه ، وكان يكثر من الندم على اشراكه .

والفعل (يقول) معطوف على الفعل (يقلب) ، ويجوز أن يكون حالا من فاعله ، والتعبير به مضارعا : لاستحضار الصورة فى الذهن ،

وهكذا محق الله جنة هذا الكافر المغرور ، الذى ظن لها الخلود الأبدى وما خطر بباله لحظة أن سوء عاقبته ستكون هكذا ، ولم يغن عنه ماله ، ولم تنفعه عشيرته وأولاده ، الذين افتخر بهم ، وكاثر بهم وكابر ، ولذلك يعقب الله على ما حدث بقوله :

(ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا) .

والفئة : الطائفة والجماعة ، والنصرة : حسن المعونة ، قال تعالى **« من كان يظن أن لن ينصره الله .... الآية »**(٨) ، والانتصار الامتناع، يقال انتصر الرجل اذا امتنع ممن يريد به أذى ، والانتصار : الانتقام ، قال تعالى : **« ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل »**(٩) .

وقوله (تكن) من كان الناقصة ، فتحتاج الى اسم وخبر ، واسمها قوله تعالى (**فئة**) ، وخبرها قوله (له) ، وجملة (ينصرونه) صفةلقوله فئة ، أى فئة ناصرة ، وأجاز بعضهم أن تكون هى الخبر، واحتج بقوله تعالى (**ولم يكن له كفوا أحد**) ، حيث تقدم (له) ، ومع ذلك جاء وراءه الخبر والاسم .

فهذا الكافر الذى تعزز بعشيرته ونفره - حينما أراد الله الانتقام منه جزاء غروره وتكبره وتطاوله على الخالق والمخلوق - لم تنفعه عشيرته ولا غيرها فى دفع انتقام الله تعالى منه ، ولم يستطع هو أن يمنع ذلك عن جنته ، فما كان فى الوجود قوة تقف أمام قوة خالق القوى والقدر سبحانه .

---

(٨) الحج : ١٥ .
(٩) الشورى : ٤١ .

وقوله تعالى (تكن) قرىء بالياء ، لأن اسم كان مؤنث غير حقيقى (فئة) ، وقدم الفعل عليه ، وفصل بينهما بقوله (له) ، وقرىء أيضا بالتاء على أساس ان اسم كان مؤنث الا أنه غير حقيقى التأنيث ٠

وجاء قوله (ينصرونه) على المعنى ، ولو جاء على اللفظ لقيل تنصره ، كما قال فى آية أخرى « **فئة تقاتل فى سبيل الله** »(١٠) ٠

وبعد أن بين الله أنه حينما أراد الانتقام من الكافر فان أية فئة أو أية قوة لم تكن لتستطيع أن تمنع عنه انتقام الله ، وما كان لهذا الرجل من قوة تمنعه من عذاب الله ، ختم لنا هذا المثل لهذين الرجلين بآية تقرر وتؤكد هذا المعنى ٠

فقال : (**هنالك الولاية لله الحق هو خير ثوابا وخير عقبا**) ٠

وقوله تعالى (**الولاية**) قرأه حمزة ، والكسائى بكسر الواو ، والباقون بفتحها ٠ وهى بالكسر تعنى السلطان والملك ، وبالفتح تعنى النصرة والموالاة ٠

واختلف القراء فى محل الوقف هنا ، فمنهم من جعل الوقف على قوله (هنالك) فيكون هذا الظرف متعلقا بقوله (منتصرا) ، والمعنى حينئذ : وما كان الكافر منتصرا هنالك ، والاشارة بقوله (هنالك) تعود الى يوم القيامة ، فيكون ذلك نفيا لانتصاره فى الآخرة ، كما سبق نفى انتصاره حينما نزل به بأس الله فى الدنيا ، وأبيدت جنته ٠

وذهب الزجاج الى نفس هذا الرأى ، أى أن المعنى وما كان منتصرا هنالك ، ولكنه قال ان اسم الاشارة يعود الى تلك الحالة التى أبيدت فيها جنته ٠

ومن العلماء من قال ان الوقف على قوله تعالى (منتصرا) ثم ابتدأ معنى آخر بقوله تعالى (**هنالك الولاية لله الحق**) ، وعلى ذلك :

---

(١٠) آل عمران : ١٣ ٠

فـ (الـولاية) مبتـدأ ، و (لله) الخـبر ، و (هنالك) ظرف معمول الاستقرار لهذه الولاية ، والجملة هكذا تفيـد الحصر ، لأن المسند اليـه (الولاية) عرف بالألف واللام ، واقترن خبره بلام الاختصاص ، كقوله تعالى (**الحمـد لله**) .

وجوز بعضهم أن يكون قوله (هنالك) خبرا لقوله (الولاية) .

ومعنى العبـارة حينما نبتـدىء بقـوله تعـالى (**هنالك الولاية لله الحـق**) :

(أ) على قراءة فتـح الواو من (الولاية) التى تكون حينئذ بمعنى النصرة والموالاة :

١ ـ أى هنالك أى فى ذلك المقام الذى يريد الله فيـه الانتقام ممن تكبر واغتر لا تكون النصرة الا لله وحده ، ولا يملكها مخلوق فى الوجود .

وعلى ذلك تكون هـذه العبارة تقريرا للآية السابقة (ولم تكن له فئـة ....) .

٢ ـ أو فى مثل ذلك المقـام الشديد ، ونزول البـأس العظيم لا يتولى مخلوق غير الله ، ولا يعبـد مخلوق سـوى الله ، فتكون الموالاة لله تعـالى وحده فى مثل هذا المقام

وعلى ذلك فان الكافر حينما قال (**يا ليتنى لم أشرك بربى أحدا**) قاله عن الجـاء واضطرار ، وليس عن اختيار ، فلولا العذاب الذى نزل بجنتـه ما قال ذلك ، تماما كقول فرعون عليه اللعنـة (**آمنت أنه لا إله إلا الله الذى آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين**)(١١) وكحال من قال الله فيهم « **فإذا ركبـوا فى الفلك دعـوا الله مخلصين له الدين ، فلمـا نجـاهم إلى البر إذا هم يشـركون** »(١٢) .

---

(١١) يونس : ٩٠ .
(١٢) العنكبوت : ٦٥ .

٣ - ويجوز أن يكون المعنى : هنالك - أى فى مثل ذلك الموقف - تكون نصرة الله للمؤمنين على الكافرين .

يعنى أن الله عز وجل ما فعل بالكافر وجنته ما فعل الا نصرا لصاحبه المؤمن وتصديقا لتوقعه ورجائه حينما قال (فعسى ربى أن يؤتين خيرا من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء .... الخ) .

ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى (**هو خير ثوابا وخير عقبا**) .

(ب)

أما على قراءة كسر الواو من قوله (الولاية) لتكون بمعنى السلطان والملك فيكون معنى قوله (هنالك الولاية لله) .

أى فى مثل تلك الحال التى ينزل فيها بأس الله يكون السلطان والملك لله ، فلا يستطيع أحد أن يمتنع من عذابه ، أو يفر من بأسائه .

وقد قال بعض المفسرين ان الاشارة فى قوله (هنالك) للدار الآخرة، فيكون المعنى حينئذ : هنالك أى فى تلك الدار الآخرة الولاية لله ، كقوله تعالى « **لمن الملك اليوم لله الواحد القهار** »(١٣) .

وقوله تعالى (**الحق**) قرأه أبو عمرو والكسائى بالرفع ، والباقون بالجر ، فقراءة الرفع على أنه صفة (الولاية) أو على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، والتقدير هو الحق ، أما بالجر فعلى أنه صفة لله . والحق نقيض الباطل .

وقوله تعالى (هو خير ثوابا وخير عقبا) : الثواب : جزاء العمل ، يقال أعطاه ثوابه أى جزاء ما عمله ، قال صاحب لسان العرب « ويكون فى الخير والشر ، الا أنه بالخير أخص وأكثر استعمالا »(١٤) .

---

(١٣) غافر : ١٦ .
(١٤) لسان العرب (ثوب) .

وقوله (عقبا) قرىء بها متواترا بضم القاف ، وتسكينها .

وروى عن عاصم أنه قرأه بألف التأنيث المقصورة (عقبى) ، والباقون بالتنوين (عقبا) .

وكل هذه القراءات بمعنى العاقبة ، وعاقبة الأمر مصيره ومنتهاه الذى ينتهى إليه .

قال صاحب التحرير والتنوير : يجوز أن يكون (خير) بمعنى أخير ، فيكون التفضيل فى الخيرية على ثواب غيره ، وعقب غيره ، فان ما يأتى من ثواب من غيره ، ومن عقبى : اما زائف مفض الى ضر ، واما زائل ، وثواب الله خالص دائم ، وكذلك عقباه .

ويجوز أن يكون (خير) اسما ضد الشر ، أى هو الذى ثوابه وعقبه خير ، وما سواه فهو شر (١٥) .

وهكذا تنتهى هذه الآيات بتقرير من الله تعالى بأنه لا ثواب الا ثوابه ، ولا عطاء الا عطاؤه ، وأن عاقبة طاعته خير من عاقبة طاعة غيره ، لأنه عنده خزائن كل شىء ، فأولى بكل عاقل أن يجعل كل ولائه له تعالى حتى يفوز بما عنده من ثواب لا ينفد ، ومن نعيم خالص لا ينقطع .

المعنى العام لآيات المشهد الثالث

من الآية (٤٢) الى الآية (٤٤)

تبين لنا آيات هذا المشهد الأخير نهاية الغرور ، ومصير كفران النعمة والتكبر على صاحبها الذى أنعم بها ، وعلى عباده ، فبعد أن بين المشهد السابق توقع المسلم هلاك جنة صاحبه الكافر - لكفره - تجىء

---

(١٥) التحرير والتنوير : ١٥/٣٢٩ .

آيات هـذا المشهد لتوضح أن هذا التوقع قد حدث ، حيث أنزل الله تعالى على هـذه الجنـة ـ عذابا أصابها من جميع جوانبها فلم يترك منها زاوية ، الا ومنها دخل ، ولم يدع فيها أصـلا ولا ثمرا الا محقه ، فلا أصـلا أبقى ، ولا ثمرا ترك ، بل الكل شمله التدمير ، وعمـه الهلاك التام ، والخراب الشـامل ، حدث كل هذا والرجل الكافر فى نومه يغط ، وبآماله التى لا حـدود لها ، وأمانيه التى لا حصر لها يحلم ، وحينما أصبح الصباح ذهب الى جنتـه التى اعتقد لها الخلود الأبدى ، وقد عشعشت فى عقـله هذه الآمال والأمانى اذا به لا يرى من هـذه الجنـة عينا ولا أثرا ، هل ضـل الطريق ؟ هل هو حالم لم يستيقظ بعـد ؟ كلا ، ان المـكان هو المكان ، وهو يشعر بما يشعر به كل يقظان ، ان الأمر حقيقة قد وقعت ، لقد وقع الرجـل الى الجهة التى منها أخذ ، وبسببها عوقب ، انهـا الجهـة التى الا التصفيق بيديه ندما على هـذه الأمـوال التى لا حصر لهـا ، والتى صرفت على هـذه الجنـة ، انه أنفق فيها مالا يعـد ولا يحصى تثميرا لمـاله ، بدلا من ادخـاره وتعريضه لآفة تصيبه أو لحـادثة من حـوادث الزمان ، لقـد ذهل الرجل ، فأصبح يقلب كفيـه بما يشبـه حـركات المجنون ،ولماذا لا يفعـل ذلك ، فقد رأى كل ما عاش له ، وعمل له نهارا وحلم به ليـلا ، رآه فى لحظة واحـدة خرابا مدمرا ، وسرعان ما ينتبـه الرجـل الى الجهة التى منها أخذ ، وبسببها عوقب ، انها الحجـة التى حذره منها صاحبه المسلم ... ، لقـد حذره من الشرك بربه ، ومن الكفر بيوم لقـائه ، ولكن الرجل كان أصم اعمى ، فلم يسمع خيرا ، ولم يبصر حقـا ، فجعل الله فى أذنيـه وقرا ، وعلى قلبه غشاوة ، حتى أباد جنته ، وأفنى آماله وقضى على أمانيه ، وساعتها فقط انتبه الرجل الى الثغرةالتى منها حدث مـا حدث فندم على شركه ، وقال (يا ليتنى لم أشرك بربى أحدا) ، ولكن هـذا الندم جاء متأخرا ، فلم ينفعه ندمه فى اعـادة مـا

فنى ، بل ولم يشفع له فى ابقاء أصل ثروته ، لأن حكمة الله تعالى قد قضت بهلاك كل ذلك ، ولم يستطع من تعزز بهم وفاخر وكاثر أن ينفعوه ولم يستطع هو أن يمنع نزول هذا العذاب بجنته ، فما استطاع أحد أن ينصره فى هذه الشدة ، ولم يستطع هو بنفسه درء هذا الهلاك ، لأنه فى مثل هذه المواقف لا سلطان الا لله ، ولا حكم الا لله ولا موالاة الا لله ، فالقدرة قدرة الله ، والكلمة كلمة الله ، والأمر كله لله ، فما شاء كان ، ولا راد لقضائه ، ولا ممتنع من عذابه ، لأنه حق ، ووعده حق ، وعقابه حق ، وثوابه حق ٠

وما أجمل ختام آيات هذا المشهد ، حيث ختمها الله بقوله (**هو خير ثواب وخير عقبا**) حيث تبين لنا أن العاقبة دائما للمتقين ، وأن من سار على هداه فله العاقبة المأمونة ، وله منه أجزل العطاء وأعظم الثواب ٠

العبر المستفادة من آيات المشهد الثالث

من الآية (٤٢) الى الآية (٤٤)

من خلال تدبرنا لآيات هذا المشهد ، نستطيع أن نخرج منها ، بعدة عبر ، نقتصر منها على ما يأتى :

أولا : أن العاقبة دائما للمتقين الشاكرين ، فلا يستوى فى ميزان السماء شاكر وجاحد ، ومؤمن وكافر ، ذلك أنه شكر النعمة بأن نسبها الى المنعم ، وسخرها فى طاعته ، وحفظها بعيدا عن معصيته ، فشكره هذا جعله أهلا للمزيد ، كما وعده ربه (**لئن شكرتم لأزيدنكم**)(١٦) ، وجعله بذلك أيضا أهلا للعاقبة الحميدة فى الآخرة ،

---

(١٦) ابراهيم : ٧ ٠

حيث تنتظره جنة عرضها السموات والأرض ، كما وعده ربه أيضا بقوله « **تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين** »(١٧) ٠

ثانيا : كما تبين لنا هذه الآيات سوء العاقبة للجاحدين ، الذين يجحدون نعم ربهم ، ويجعلونها سببا فى عصيانه ، والتفاخر بها على خلقه ، وتلك سنة من سنن الله الكونية ، التى لا تتبدل ولا تتغير ٠

هاهم قوم سبأ ، جعل الله مسكنهم آية ، تتحدث عن قدرة الله تعالى فى الايجاد والابداع ، والجمال والكمال ، وأنعم عليهم بماء وفير ، وشجر مثمر ظليل ، حيث كانت لهم جنتان عن يمين وشمال ، ولكنهم قابلوا كل ذلك بالكفران ، وجعلوه وسيلة للعصيان ، فما كان منه تعالى الا أن طبق عليهم سنته فى الظالمين ، وجعل النعمة ذاتها نقمة ، فدمرهم بسيل العرم تدميرا ٠

وها هم صناديد قريش وزعماؤها أطعمهم الله من جوع وآمنهم من خوف ، ولكنهم بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار ، فما كان من القدرة الالهية الا أن أخذتهم يوم بدر أخذ عزيز مقتدر ، وما ينتظرهم فى الآخرة أخزى وهم لا ينصرون ٠

وياليت المسلمين ـ أفرادا وحكومات ـ يعوا هذا الدرس جيدا ، اننا نرى أقطارا اسلامية ، وشخصيات يدين لسانها بالاسلام لله رب العالمين ، نراهم يسبحون فى أنهار من الأموال ، ولا يؤدون حق الله فيها ، بل يستخدمونها فيما حرم ربهم ، فى الشهوات مع النساء والمشروبات وغير ذلك ، فى الوقت الذى تحتاج اليه الأقليات المسلمة المستضعفة فى بقاع كثيرة من الأرض الى الفتات من هذه الأموال ، وكأنه لا قرآن

---

(١٧) القصص : ٨٣ ٠

يجمعهم ، ولا سنة تبين لهم السبيل ، ولا اسلام يحثهم على تكوين صف واحد قوى كأنه البنيان المرصوص ، وكأنه الجسد الواحد ، اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر ، بل ان الامر يصل الى الذروة ، حينما تودع هذه الأقطار أموالها التى لا حصر لها فى دول الكفر والالحاد ، لينتفع بها الكافرون والملحدون ، ويحرم منها المسلمون بل وتستخدم فى ضرب الاسلام وأهله وتنصير أفراده ، والكل يعرف ولا يتكلم ، ألا ليتهم جميعا يعلمون ، وبقصة صاحب الجنتين يتعظون ويتذكرون .

ثالثا : واذا كنا نتكلم عن النعم وشكرها ، فانه لا يخفى على أى عاقل أن نعمة الاسلام أعظم النعم على الاطلاق ، ذلك أن ما عداها من نعم ، فان الله يعطيها لمن أحب ولمن لم يحب ، أما نعمة الاسلام فان الله لا يعطيها الا لمن أحب ، وعلى ذلك فان الأمة الاسلامية جميعها ، مطالبة بشكر هذه النعمة ، نعمة الاسلام ، وذلك بتطبيقه فى كل المجالات السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والاعلامية ، وغيرها ، وأن تعمل على نشره فى أرجاء الدنيا كلها ، والا فما كانت شاكرة لهذه النعمة ، وما عليها الا انتظار ما أصاب صاحب الجنتين ، فضلا عما ينتظرها فى الآخرة من سوء العذاب ، وشديد العقاب .

قال ابن كثير : « ان الله تعالى بعث محمدا ﷺ رحمة للعالمين ، ونعمة للناس ، فمن قبلها وقام بشكرها دخل الجنة ، ومن ردها وكفرها دخل النار »(١٨) .

رابعا : بفكر خاطىء ، وتصور قاصر يظن كثير من الناس أن التكاثر بالانصار ، والتعزز بأهل الجاه والسلطان ، يشد من الأزر

---

(١٨) تفسير ابن كثير : ٤/٤٢٧ .

وقت الشـدة ، وينجى من الغم وقت الكـربة ، حتى رأينـا لهم فى ذلك أمثـالا ، مثل قولهم (من له ظهر لا يضرب على بطنه) ، و (يا حـظ من كان أبو زيد خاله) و (الماء لا يصـعد الى أعلى) و (المعـرفة تنفـع) ، ونحو ذلك مما صار عرفا سـائدا بين النـاس ، عليه بنـوا علاقاتهم ، وقامت دعائم مجتمعاتهم ، على المستويين الفردى والدولى ، مما ترتب عليـه فى النهـاية آثار سـيئة ، وفسـاد فى الأرض كبيـر ، حيث اعتمـد الأفراد على علاقتهم مع ذوى الجـاه والسلطان ،واسـتند الطغـاة والظلمة على دول الظلم والافساد ، التى لا هم لها إلا نشر الشر فى البلاد ، وتعميم الفساد بين العبـاد .

ولقد دلت سـنة الله فى كونه أن بأس الله اذا جـاء لا يمنعه مانع ، ولا يحول دون نزوله حائل ، ولقـد ظهرت سنة الله فى هـذا المثل بكل جلاء ووضوح ، فلم تستطع فئـة الكافر ونفـره وعشيرته ، التى بهـا كاثر وفاخر ، أن تمنع عنـه بأس ربه ، ولم يجـد فى الوجود كله من يدرأ عنه هـذا الاهلاك ، ولم يستطع هو نفســه ، وهو صاحب هـاتين الجنتين أن ينصر نفسه ، ويمنع ما نزل بجنته .

وصدق الله اذ يقول : « **إنما قـولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكـون** »(١٩) .

ان قـول رب العـزة : (**ولم تكن له فئـة ينصـرونه من دون الله وما كان منتصرا**) درس للأفراد والحكومات ، على حـد سواء ، لكى يجعلـوا ولاءهم لله فى كل وقت ، وأن يتبرءوا ممن سـواه ، فـان كل مخلوق مهما عـلا شـأنه ، وبلغت قوته ، فانه لا يملك نفعا ولا ضرا ، بل لا يملك لنفســه هو موتا ولا حياة ولا نشورا .

---

(١٩) النحل : ٤٠ .

الفهرس

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضــــوع	الصفحة

تعـــــريف بالمؤلـف

عمـلا بالتوجيه القـرآنى ، والهـدى النبوى ، فى التعـارف بين المسلمين ، اليك أخى القارىء هذه السطور ، للتعريف بمؤلف الكتاب .

الاســــم : د/ جمال مصطفى عبد الحميد عبد الوهاب النجار

البـــلدة : مدينـة فـايد .. محافظة الاسماعيلية

الســـن : ٣٧ سنة (٦ أكتوبر ١٩٥٤ م)

العمـــل : مدرس التفسير وعلوم القرآن ، فى كلية أصول الدين ـ جامعة الأزهـر ، بالقاهرة .

الحالة الاجتماعية : متزوج ، وله ثلاثة أولاد (محمـد ، ومصـطفى ، وسيف الاسـلام) .

المشوار الدراسى : منـذ ولادته نذره والده لخـدمة الاسـلام ، فاعتنى به اعتنـاء كاملا ، فحفظ القـرآن الكريم كله ، حفظا جيدا ، قبل الالتحاق بالصف الأول الاعدادى الأزهـرى ، ولا زال يحفظـه ، والحمـد لله .

- وفى سنة ١٩٦٨ م وبعد احتـلال اليهود ـ عليهم اللعنـة ـ لسيناء بعـام ، وتهجير مواطنى مدن القنـاة ، التحق بمعهد الزقـازيق الأزهـرى ، حيث تتلمـذ على أيدى مجمـوعة من خيرة علمـاء الأزهـر ، فى جميع العلوم .

- وفى سنة ١٩٧٥ م حصل على الثانوية الأزهرية ، وكان ترتيبه فيها الأول على مستوى الجمهـورية ، وكـرمته الدولة ـ وقتذاك ـ مع بقيـة أوائل الجمهورية فى الشهادات العـامة ، برحلة الى خمس دول أوروبيـــة ، هي : اليونان ، ويوغوسـلافيا ، والنمسـا ،

وايطاليا ، وفرنسا ، لمدة شهر ونصف •

- وفى سنة ١٩٧٥ م التحق بكلية أصول الدين ، حيث كانت أعظم أمنية له ولوالده ، وأنعم الله عليه فى سنوات الكلية ، كما أنعم عليه من قبل فى الثانوية ، فكان الأول على دفعته كل عام ، وكان الطالب الوحيد الذى حصل كل عام على تقدير ممتاز •

- وفى سنة ١٩٧٩ م حصل على الليسانس ، بتقدير ممتاز ، مع مرتبة الشرف الأولى ، وعلى المركز الأول ، على طلبة الكلية •

- وفى مارس عام ١٩٨٠ م كلف بالعمل معيدا ، بقسم التفسير ، بكلية أصول الدين بالقاهرة •

- وفى سنة ١٩٨٦ م حصل على درجة الماجستير ، فى الدخيل فى التفسير ، بتقدير ممتاز ثم كلف بعد ذلك بالعمل مدرسا مساعدا فى نفس الكلية •

- وفى سنة ١٩٨٩ م حصل على الدكتوراه ، فى تفسير القرآن الكريم ، مع مرتبة الشرف الأولى ، مع التوصية بطبع الرسالة على نفقة الجامعة ، وتداولها مع الجامعات الأخرى •

- وفى سنة ١٩٩٠ م حصل على جائزة المستشار عبد الحليم الجندى ، والتى تعطى - بتوفيق الله تعالى - لمن حصل على المركز الأول من السادة الدكاترة ، على مستوى جميع كليات الجامعة ، لحصوله على اعلى التقديرات ، ابتداء من الدراسات التمهيدية للماجستير ، ومرورا بدرجة الماجستير ، وانتهاء بدرجة الدكتوراه ...

نسـال الله تعـالى أن يجعل تلك النعم مسخرة فى خدمة الاسلام ، وأن تكون حجة لصاحبها ، لا عليه ، وأن يعلمنـا ما جهلنا ، وأن يجعلنا ممن يعلمـون فيعمـلون ويخلصون ، وأن يختم لنـا ولوالدينا ولأساتذتنا بالحسنى آمـين .

رقم الإيداع بدار الكتب الوثائق القومية
١٩٩١/٩٢٤٥
تحريرا فى ١٩٩١/١١/٢٧

مطبعـة الحسين الإسـلامية
٢٥ حارة المدرسة خلف الجامع الأزهر
تليفـون : ٥١٠٦٧٢٤

